

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

الأكاديمية

مجلّة أكاديمية المملكة المغربية

العدد 22 – سنة 2005

أكاديمية المملكة المغربية

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم **11**، ص. ب. **5062**
الرمز البريدي **10100**
الرباط – المملكة المغربية

الهاتف : **75.51.46 (037) / 75.5199 (037)**

البريد الإلكتروني E-mail : alacadimia @iam.net.ma

فاكْس 75.51.01/89 (037)

الإيداع القانوني : **1982/29**
ردمك : ISSN : 0851-1381

الآراء المعبّر عنها في هذا الكتاب
تلزم أصحابها وحدهم

التصفيف الضوئي : أكاديمية المملكة المغربية
السحب : مطبعة المعارف الجديدة – الرباط
سنة 2005

أعضاء أكاديمية المملكة المغربية

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

I - سلسلة «الدورات» :

1 – «القدس تاريخياً وفكرياً»، مارس 1981.
2 – «الأزمات الروحية والفكرية في عالمنا المعاصر»، نونبر 1981.
3 – «الماء والتغذية وتزايد السكان»، القسم الأول، أبريل 1982.
4 – «الماء والتغذية وتزايد السكان»، القسم الثاني، نونبر 1982.
5 – «الإمكانات الاقتصادية والسيادة الدبلوماسية»، أبريل 1983.
6 – «الالتزامات الخُلُقية والسياسية في غزو الفضاء»، مارس 1984.
7 – «حق الشعوب في تقرير مصيرها»، أكتوبر 1984.
8 – «شروط التوفيق بين مدة الانتداب الرئاسي وبين الاستمرارية في السياسة الداخلية والخارجية في الأنظمة الديمقراطية»، أبريل 1985.
9 – «حلقة وصل بين الشرق والغرب : أبو حامد الغزالي وموسى بن ميمون»، نونبر1985.
10 – «القرصنة والقانون الأممي»، أبريل 1986.
11 – «القضايا الخُلقية الناجمة عن التحكم في تقنيات الإنجاب»، نونبر 1986.
12 – «التدابير التي ينبغي اتخاذها والوسائل اللاّزم تعبئتها في حالة وقوع حادثة نووية»، يونيو 1987.
13 – «خَصاص في الجنوب وحيرة في الشمال : تشخيص وعلاج»، أبريل 1988.
14 – «الكوارث الطبيعية وآفة الجراد»، نونبر 1988.
15 – «الجامعة والبحث العلمي والتنمية»، يونيو 1989.
16 – «أوجه التشابه الواجب توافرها لتأسيس مجموعات إقليمية»، دجنبر 1989.
17 – «ضرورة الإنسان الاقتصادي من أجل الإقلاع الاقتصادي لدول أوروبا الشرقية»، مايو 1990.
18 – «اجتياح العراق للكويت ودور الأمم المتحدة الجديد»، أبريل 1991.
19 – «هل يُعطي حق التدخل شرعية جديدة للاستعمار ؟»، أكتوبر 1991.
20 – «التراث الحضاري المشترك بين المغرب والأندلس»، أبريل 1992.
21 – «أوروبا الإثنتي عشرة دولة والآخرون»، نونبر 1992.

22 – «المعرفة والتكنولوجيا»، مايو 1993.

23 – «الاحتمائية الاقتصادية وسياسة الهجرة»، دجنبر 1993.

24 – «رؤساء الدول أمام حق تقرير المصير وواجب الحفاظ على الوحدة الوطنية والترابية»، أبريل 1994.

25 – «الدول النامية بين المطلب الديموقراطي وبين الأولوية الاقتصادية»، نونبر 1994.

26 – «أيُّ مستقبل لحوض البحرالأبيض المتوسط والاتحادالأوروبي ؟»، مايو 1995.

27 – «حقوق الإنسان والتشغيل بين التنافسية والآلية»، أبريل 1996.

28 – «وماذا لو أخفقت عملية السلام في الشرق الأوسط ؟»، دجنبر 1996.

29 – «العَوْلَمة والهُوية»، ماي 1997.

30 – «حقوق الإنسان والتصرّف في الجينات»، نونبر 1997.

31 – «لماذا احترقت النمور الأسيوية ؟»، ماي 1998.

32 – «القدس أنقطة قطيعة أم مكان التقاء ؟»، نونبر 1998.

33 – «هل يشّكل انتشار الأسلحة النووية عامل ردع ؟»، ماي 1999.

34 – «فكر الحسن الثاني : أصالة وتجديد»، أبريل 2000.

35 – «السياسة المائية والأمن الغذائي للمغرب في بداية القرن الواحد والعشرين»، نونبر 2000. (مجلدان باللغة الفرنسية).

36 – «السياسة المائية والأمن الغذائي للمغرب في بداية القرن الواحد والعشرين»، نونبر 2001. (مجلد واحد باللغة العربية).

37 – «أزمة القيم ودور الأسرة في تطور المجتمع المعاصر»، أبريل 2001.

38 – «أي مستقبل للبلدان المتنامية في ضوء التحولات التي تترتب عن العولمة»، نونبر 2001.

39 – «العلاقات الدولية في العشرية الأولى من القرن الحادي والعشرين، أي أفق؟»، أبريل 2002.

40 – «الحروب الإقليمية والمحلية وآثارها على التنمية الاقتصادية والتطور الحضاري واستتباب السلم في العالم»، دجنبر 2002.

41 – «الذكرى الخمسون لثورة المَلك والشعب»، غشت 2003.

II- سلسلة «التراث» :

42 – «الذيل والتكملة»، لابن عبد الملك المراكشي، السفْر الثامن، جزءان، تحقيق محمد بنشريفة، 1984.

43 – «الماء وما ورد في شربه من الآداب»، تأليف محمود شكري الألوسي، تحقيق محمد بهجة الأثري، مارس 1985.

44 – «مَعْلَمة الملْحون»، تصنيف محمد الفاسي، القسم الأول والقسم الثاني من الجزء الأول، أبريل 1986، أبريل 1987.

45 – «ديوان ابن فَرْكون » تقديم وتعليق محمد بنشريفة، ماي 1987.

46 – «عين الحياه في علم استنباط المياه» للدمنهوري، تقديم وتحقيق محمد بهجة الأثري 1409هـ/1989.

47 – «مَعْلَمة المَلْحون»، تصنيف محمد الفاسي، الجزء الثالث، «روائع المَلْحون» 1990.

48 – «عمدة الطبيب في معرفة النبات»، القسم الأول والقسم الثاني، لأبي الخير الإشبيلي، حققه وعلق عليه وأعاد ترتيبه محمد العربي الخطّابي، 1411/ 1990.

49 – «كتاب التيسير في المداواة والتدبير»، لابن زهر، حقّقه وعلّق عليه محمد بن عبد الله الروداني، 1411/1991م.

50 – «مَعْلَمة المَلْحون»، تصنيف محمد الفاسي، الجزء الثاني، القسم الأول، «معجم لغة المَلْحون»، 1991.

51 – «مَعْلمة الملْحون»، تصنيف محمد الفاسي، الجزء الثاني - القسم الثاني وفيه : «تراجم شعراء المَلْحون»، 1992.

52 – «بغيات وتواشي الموسيقى الأندلسية المغربية»، تصنيف عز الدين بناني، 1995.

53 – «إيقاد الشموع للذة المسموع بنغمات الطبوع»، لمحمد البوعصامي، تحقيق عبد العزيز بن عبد الجليل، 1995.

54 – «مَعْلمة الملْحون، مائة قصيدة وقصيدة في مائة غانية وغانية»، تصنيف محمد الفاسي، 1997.

55 – «رحلة ابن بطوطة»، خمسة أجزاء، تحقيق عبد الهادي التازي، 1997.

56 – «كنّاش الحائك»، تحقيق مالك بنّونة، مراجعة وتقديم عباس الجراري، 1999.

57 – «الأناشيد الوطنية المغربية ودورها في حركة التحرير»، تحقيق عبد العزيز بن عبد الجليل، 2005.

III - سلسلة «المعاجم» :

58 – «المعجم العربي–الأمازيغي» الجزء الأول، تأليف محمد شفيق، 1990.

59 – «المعجم العربي–الأمازيغي» الجزء الثاني، تأليف محمد شفيق، 1996.

60 – «الدارجة المغربية مجال تَوارد بين الأمازيغية والعربية» تأليف محمد شفيق، 1999.

61 – «المعجم العربي–الأمازيغي» الجزء الثالث، تأليف محمد شفيق، سنة 2000.

17- سلسله «الندوات والمحاضرات» :

62 – «فلسفة التشريع الإسلامي» الندوة الأولى للجنة القِيَم الروحية والفكرية، 1987.

63 – «وقائع الجلسات العمومية الرسمية بمناسبة استقبال الأعضاء الجدد»، دجنبر 1987 (من 1401هـ/1980 إلى 1986/1407).

64 – «محاضرات الأكاديمية»، 1988 (من 1403هـ/1983 إلى 1987/1407).

65 – «الحرف العربي والتكنولوجيا»، الندوة الأولى للجنة اللغة العربية، فبراير 1988/1408.

66 – «الشريعة والفقه والقانون»، الندوة الثانية للجنة القيم الروحية والفكرية 1989/1409.

67 – «أسس العلاقات الدولية في الإسلام»، الندوة الثالثة للجنة القيم الروحية والفكرية 1989/1409.

68 – «نظام الحقوق في الإسلام»، الندوة الرابعة للجنة القيم الروحية والفكرية،1990/1410.

69 – «الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية : الأخذ والعطاء»، الندوة الخامسة للجنة القيم الروحية والفكرية، 1991/1412.

70 – «قضايا استعمال اللغة العربية»، الندوة الثانية للجنة اللغة العربية، 1993/1414.

71 – «المغرب في الدراسات الاستشراقية»، الندوة السادسة للجنة القيم الروحية والفكرية، مراكش 1993/1413.

72 – «الترجمة العلمية»، الندوة الثالثة للجنة اللغة العربية، طنجة 1995.

73 – «مستقبل الهُوية المغربية أمام التحديات المعاصرة»، الندوة السابعة للجنة القيم الروحية والفكرية، تطوان 1997/1417.

74 – «هجرة المغاربة إلى الخارج»، الناظور 1999/1419.

75 – «الموريسكيّون في المغرب»، الندوة الثانية، شفشاون 2000/1421.

76 – «الأمثال العامّية في المغرب، تدوينها وتوظيفها العلمي والبيداغوجي»، دجنبر 2001.

77 – «ثقافة الصحراء : مقوّماتها المغربية وخصوصياتها»، مارس 2002.

78 – «التطرف ومظاهره في المجتمع المغربي»، مايو 2004.

V– سلسلة مجلة «الأكاديمية» :

79 – «العدد الافتتاحي»، وفيه سرد لوقائع افتتاح جلالة الملك الحسن الثاني للأكاديمية يوم الإثنين 5 جمادى الثانية عام 1400 هـ، الموافق 21 أبريل 1980.

80 – «الأكاديمية» العدد الأول، فبراير 1984.

81 – «الأكاديمية» العدد الثاني، فبراير 1985.

82 – «الأكاديمية» العدد الثالث، نونبر 1986.

83 – «الأكاديمية» العدد الرابع، نونبر 1987.

84 – «الأكاديمية» العدد الخامس، دجنبر1988.

85 – «الأكاديمية» العدد السادس، دجنبر1989.

86 – «الأكاديمية» العدد السابع، دجنبر 1990.

87 – «الأكاديمية» العدد الثامن، دجنبر 1991.

88 – «الأكاديمية» العدد التاسع، دجنبر 1992.

89 – «الأكاديمية» العدد العاشر، شتنبر 1993.

90 – «الأكاديمية» العدد 11، دجنبر1994.

91 – «الأكاديمية» العدد 12، سنة 1995.

92 – «الأكاديمية» العدد 13، سنة 1996.

93 – «الأكاديمية» العدد 14، سنة 1997.

94 – «الأكاديمية» العدد 15، خاص بالموريسكيين في المغرب، سنة 1998.

95 – «الأكاديمية» العدد 16، سنة 1999.

96 – «الأكاديمية» العدد 17، سنة 2000.

97 – «الأكاديمية» العدد 18، سنة 2001.

98 – «الأكاديمية» العدد 19، سنة 2002.

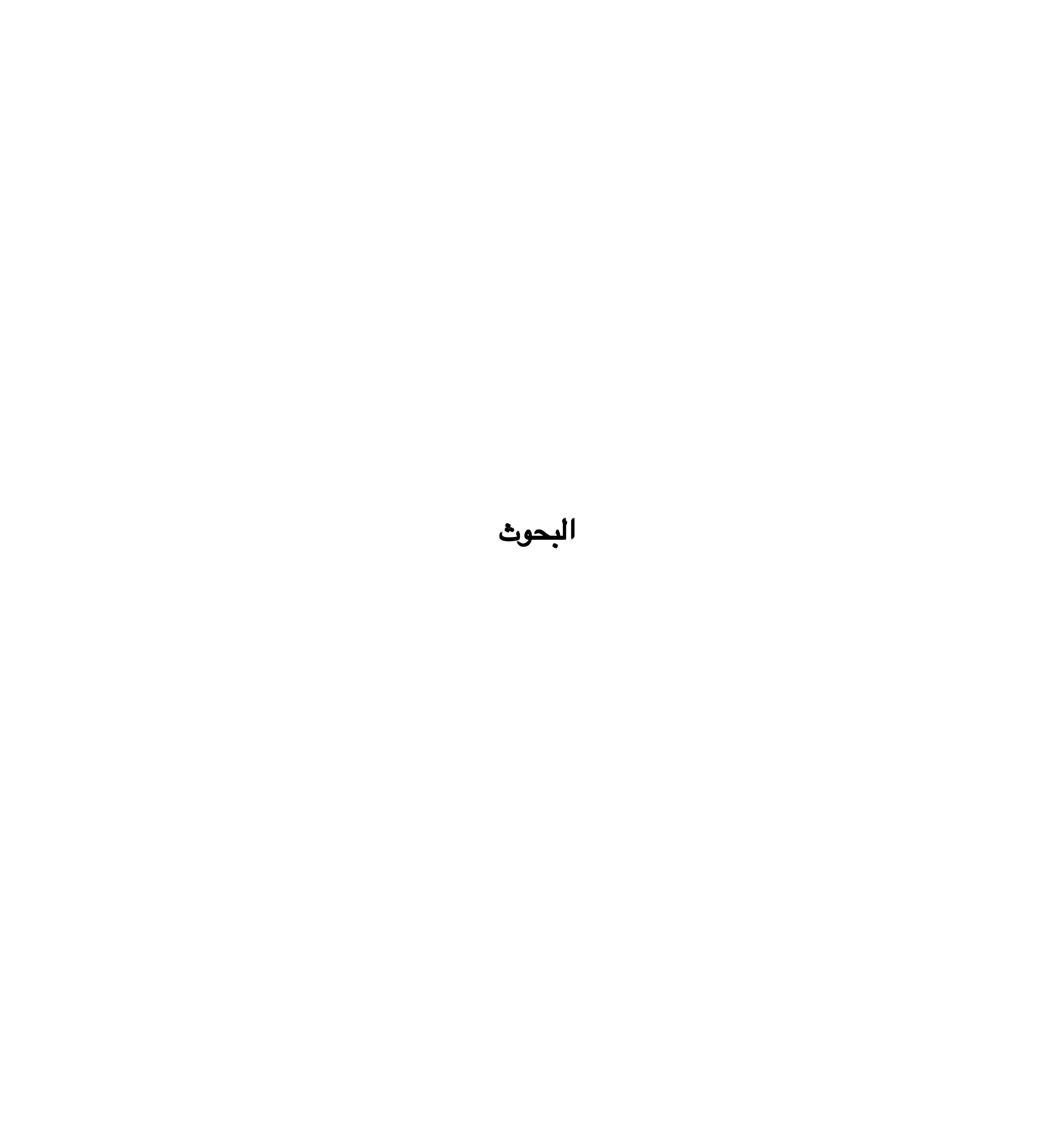
99 – «الأكاديمية» العدد 20، سنة 2003.

100 – «الأكاديمية» العدد 21، سنة 2004.

الفهـــرس

I - البحوث

2- ملخّصات البحوث باللغات الأجنبية مترجمة إلى العربية



البحوث

تأمّــلات فـي موضوع الدواء

عبد اللطيف بربيش

يُعتبر الدواء مادةً أو مُركَّباً يمتلك خاصيات علاجية أو وقائية تنفع المرضى من البشر أو من الحيوانات، وتضع حداً لأعراضهم أو أحوالهم الجسمية غير السوية.

يدخل في نطاق الأدوية كذلك المنتوجات الموصى باستعمالها بهدف التشخيص الطبي، وكذا بعض المنتوجات الصحية المشتملة على عناصر تعجّل بالشفاء. لا يباع الدواء مبدئياً إلا في الصيدليات، ويحتل مكاناً أساسياً في مجال الصحة. أما استعماله بناء على ما ذكر، فهو أمر لا يمكن تجنبه أكان ذلك للشفاء من الأدواء أم للتخفيف من أعراضها، إلا أن كلفته مع الأسف ترتفع أكثر فأكثر وتطرح مشاكل عويصة للحصول عليه في العالم كله وبالخصوص في الدول الفقيرة أو السائرة في طريق النمو.

ومن ناحية ثانية، وبفضل تطور البحث العلمي، أصبحت فعالية الدواء متزايدةً لكن وفي نفس الوقت يمكن أن يتسبب الدواء في آثار جانبية لا تكون أحياناً في الحسبان. لكل هذه الأسباب وغيرها قد يكون من المفيد تناول بعض المظاهر العلاجية التي يطرحها الدواء اليوم.

إن التحليلات التي ستعرض في هذه الورقة تتخلّلها مُصطلحاتُ طبيةٌ قد لا تكون مُسْتَسـاغَةً للناس جميعاً ولكنَّها ضرورية لصياغةِ الحديث، ولهذا فإني سأحاول أن أوافيِ القارئَ في نفس الوقت بالمصطلحات العربية والأجنبية، حتى أكون واضحاً جهد المستطاع.

أودّ أن أستَهلّ هذه الورقة بلمحة تاريخية لتطور الدواء عبر العصور.

يمكن اعتبار الماء الدواء الأول والطبيعي. وقد دلل على ذلك بالأثر العلاجي لحقن مَصْل الدم (sérum)، أو إدخال الماء أو شربه في عدة حالات من الاجتفاف الحاد الذي ينتج عن التقيء المسترسل أو الإسهال الغزير أو الحرارة المفرطة، وأحياناً عن نضح مائي هام بواسطة الكلية كما هو الشأن مثلا في استفحال عرض التبول عند المصاب بداء السكري حين يقع اختلال في توازن علاجه.

إن أعداد الأدوية وطبيعتها تتزايد وتتنوع عبر القرون. وكانت النباتات أول ما استعمل، حتى إن المُعتقداتِ الشَّعبية ظلَّت مُدةً طويلةً تعتبر أن لِكلِ داء مَا يُسْتَطبُّ به من الأعشاب أو النباتات.

وقد وقع التنصيص في الجدول السومَري "table sumérienne" لمدينة نيبّور وهي مدينة توجد في ما بين النهرين والتي تسمى الآن مدينة نيفر، أقول وقع التنصيص على ستمائة منتوج من أصل نباتي أو حيواني لأهداف علاجية، منها معدن واحد هو الكبريت.

ويُعتبر هذا الجدول الذي يرجع تاريخه إلى نهاية الألفية الثالثة قبل الميلاد أول صيغة صيدلية في العالم.

ويعالج بُردي إيبرس -Ebers- (1550 قبل الميلاد) فنّ المداواة وهو ينمّ عن معارف صيدلية لدى قدماء المصريين. وقد ذكر فيه أكثر من سبعمائة دواء من بينها منتوجات معدنية كالرصاص والزئبق والنحاس، ومنتوجات نباتية كالنافع

والزعفران والنعناع والْجَنْطيان (وهو نبات تستخرج منه مادة مُرّة منعشة) واللحلاح colchique وهو نبات تشتق منه مادة الكولشسين التي تفيد في معالجة داء النّقْرِس (goutte) وأمراض أخرى، وكذا تحضيرات دقيقة تستعمل الشحومات والزيت والحليب أو الخمر مما يضاف إلى الدواء حتى يصبح سائغاً. وقد كان المصريون في وقتهم يستعملون النُّقاعات (tisane) والجروعات والأقراص والمَراهِم والفتائل (suppositoires)، لكن الفضل يرجع إلى الصينيين، فهم أول من قاموا بتحضير عصارات النباتات (essences végétales).

هذا ويشير كتاب الحكمة وهو من النصوص التراثية إلى أن الملك سليمان (970 ـ 931 ق .م) كان يعرف نباتات فِنيقْيا والخاصيات العلاجية لكل منها.

ويُعَدّ جالينوس (Galien) أب الصيدلة، وقد عاش بين 204 و131 ق.م وكان طبيباً لكبير أباطرة الروم مارْك أوريل وسِبْتيم سيقير (Septime Sévère)، وقد قام بنفسه بتحضير الأدوية وإجراء بحوث عن السموم بواسطة التجريب.

وفيما بعد انتقل فن العلاج إلى أيدي العرب لعدة قرون. فقد كانوا هم الأوائل في إنجاز التقطير (distillation) والحصول على الماء المقطَّر والحامض الخلّي (acide acétique) وخاصة الكحول باستعمال الخلّ والخمر. ويرجع إليهم الفضل أيضاً في اكتشاف الإكسير واللَّعوق اللّوْزي ونِتْرات الفضة والدواء العسلي المعجون. وقد ظهر أثر العرب جليا في الجامعات الأوربية خلال العصر الوسيط في پاليرمو ومونْبولييه وأوكْسفورد وباريس وهايْدِلْبيرغ.

في القرن السابع عشر اغتنت الدراسات العلاجية باستعمال دوائين هامّين ما زالا يُستعملان حتى وقت متأخر من القرن الماضي وهما من ناحية عرق الذهب (ipeca) وهو نبات تستخرج منه مادة الأيميتين التي تعالج تعفّن الأمعاء بالمتموّرات (amibes) ومن ناحية أخرى الكانكينا (quinquina) وهي نبات تستخرج من قشرته مادةُ الكِنين الصالحة لمعالجة حمّى المستنقعات. وتمتاز

هذه الحقبة بالإقبال الكبير على الأدوية ذات الأصول الحيوانية عن طريق العقارب والثعابين والنمل والذباب الهندي (cantharide) (وهي مادة منعشة جنسياً) ودود الأرض والمفرزات كإفراز المسك الطبيعي المستخرج من غُدة توجد في عنق نوع من الغزال يعيش في شرق افريقيا، وإفراز القندس (castor) الذي يستعمل كدهن لمعالجة داء المفاصل/الروماتيزم.

ومع بداية القرن الثامن عشر أدخِلت زبدة الكاكاوُو الذي يصلح لصنع الشوكولاطة ويستعمل هنا كسواغ (excipient)، واكتشفت عدة أدوية منها الكورار (curare) المنشقّ من نبات سامّ يشلّ تناوُله العضلات ويستعمل في عملية التخدير (anesthésie)، كما أدخلت الديجيطالين وهي نبات سام يستعمل لتبطيء وتقوية ضربات القلب.

في سنة 1748 تضمن الجدول الفرنسي للأدوية (Codex) 931 دواء من بينها 709 من أصل نباتي و117 من أصل معدني و105 من أصل حيواني. وقد وضعت قيد الاستعمال عدة أدوية في شكل «اختصاصي»، مضمون ببراءة اختراع وملِكية.

في نهاية القرن الثامن عشر ظهر الطب التجانسي (homéopathie) وهو علاج الداء بالداء ويستعمل الأدوية بمقادير صغيرة للغاية. وتميّز القرن التاسع عشر بعزل الأجسام في حالتها الخام كالمورفين والديجيطالين وسمّ السْتْريكْنين (strychnine) وكذلك الأسْبِرين التي اكتشفت سنة 1853، كما تميّز باستعمال الأمصال واللقاحات بفضل أبحاث العالم الفرنسي لويس باستور.

في نفس هذا التاريخ اخترع الفرنسي ستانيسْلاس ليموزان الحبابات أو الأمبولات الزجاجية (ampoules) والقناع الخاص لاستعمال الأدوية الغازية كالأكسيجين والأثير والكلوروفورم المستعملة في التخدير. وتميزت هذه الحقبة باكتشاف المحقنة (seringue) والإبرة المجوّفة (aiguille) التي تصلح لضخ الدواء في الجسم.

خلال النصف الأول من القرن العشرين طرأت تغيرات جذرية على الدواء بحيث دخل في مرحلة الاكتشافات الكبرى والتراكيب (synthèse). حتى الوصفات الطبية نفسها تغيرت وتطورت : فالمكبوسات والحبّات، والجيلولات جاءت لتعويض السوائل كالجُلاب والإكسير والشراب المُسكَّر (sirop).

في هذا الوقت تم اكتشاف الفيتامينات (B1, C, D, PP, K, B12) واكتشاف البِنِسيلين والسولْفاميد (sulfamide) المضادين للمكروبات، والهِسْتامين المضادة للحساسية وعديد من المضادات الأخرى وكذلك الكورتيزون التي تعدّ أقوى دواءٍ لمعالجة الالتهاب.

وفي النصف الثاني من القرن العشرين ظهرت الأدوية المضادة للفطريات والمضادة للطفيليات وكذلك المهدئات والعلاج الكيمائي ضد السرطان ومضادات الانهيار العصبي (anti-dépresseurs) وهي متعدّدة، وأشهر ما اكتشف منها في السنين الأخيرة البروزاك.

وبفضل البحث والتجريب انتقل الدواء من المرحلة التقليدية إلى أن أصبح مقاولة صيدلية صناعية تولتها الشركات المتعددة الجنسيات المعروفة في يومنا هذا. ولم تفتأ المعارف المتعلقة بالأدوية تغتني مع تقدم العلوم التي هي أساس الاكتشافات الصيدلية. وهكذا وسّعت وظائفَ الدواء علومُ الكيمياء والبيوكيمياء والسموم والصيدلة وعلم المناعة وعلم الوراثة، كما تنوّعت أنماط صناعتها وتصريفها وأتاحت للطبيب ترسانة علاجية تتطور باستمرار. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى المُضادات الحيوية (antibiotiques) في آخر أشكالها المستحْدثة، والأدوية الناجعة ضد داء السلّ، والأدوية الواقية من رفض الأعضاء المنقولة في جسم الإنسان، وكذا إلى الأدوية المضادة للفيروسات والتي تستعمل لعلاج مرضٍ جلدي معروف بالعقبولة (herpès) وآخر معروف بالمنطقة أو الزّونة (zona) وكذلك داء فقدان المناعة المكتسب (sida). كما يجب الإشارة إلى أدوية

أخرى ولقاحات جديدة تصنع بواسطة الهندسة الوراثية والتي سأخصّص لها كلمة وجيزة في آخر الورقة.

أمّا أهم استعمالات الأدوية فهي جدُّ متعددة منها معالجة الأمراض وإنجاز التشخيص، والحماية من ظهور مرض أو تفاقمه، والتخفيف من الأمراض ومن حالات اختلالات التوازن، وتعديل السلوكات والقدرات.

هنا نتسائل : منذ متى ونحن نتوفر على أدوية فعّالة ؟

خمسة آلاف سنة بعد التوصيفات الأولى التي اشتملت عليها اللوائح السّومَرية يمكن أن نؤكد أن الأدوية ذات الأصول النباتية والحيوانية المقترحة لم تكن ذات فعالية حقيقية، وأن هذه الفعالية لم تبدأ إلا مع الأفيون والدّجيطالين والأسْبرين. لم تكن الأدوية تستعمل آنئذ إلا كعلاج بديل (placebo) حامل لوعود بالعلاج أو التحسن، لا يوصى به إلا في حدود التخفيف عن المريض أو طمأنة وسطه العائلي.

كان علينا أن ننتظر سنة 1930 ليبدأ عصر الصيدلانية الفعالة بإنجاز الأشكال الأولى من الممارسات العلاجية المضادة للجراثيم التي هي المُكَبْرتات (sulfamides) ثم البنِسلين التي اكتشفت صدفةً سنة 1928 على يد الإنجليزي ألِكْسندر فْليمينْج واصطُنِعت بتركيب كيماوي سنة 1945. هذه المادة صارت معجزة حقيقية في ميدان الطب حيث دشّنت عصر المضادّات الحيوية (antibiotiques)، ولعل نتائجها الباهرة هي أصل تقلص نِسب الوفيات من جراء الأمراض التعفنية التي كانت السبب الرئيسي للوفاة في الماضي.

من ناحية أخرى أدى اكتشاف الأدوية الفعالة للمعالجة النفسية (médicaments psychotropes) إلى ثورة حقيقية في مجال العلاج التحليلي النفسي وإلى انقلاب ثقافي فعلي. هكذا ففي خلال السنوات الأخيرة راج في

السوق الكثير من الأدوية القادرة على تعديل سلوك المرضى أو الأصحاء، تلك هي الحال بالنسبة للمنبهات وللمواد المنشطة المراد منها تعزيز القدرات في المجالات الفكرية والرياضية والجنسية والإنتاجية.

لقد أشرتُ في بداية هذا النص إلى الآثار الجانبية التي قد تسبّبُها بعض الأدوية في جسم الإنسان. هذه الأمراض العلاجية المَنْشَأ أو المثارة طبياً (maladies iatrogènes[1et2]) يمكن أن تحدث دون أي خطأ يرتكبه الطبيب، لأنه أصبح من السهل اقتناءُ الأدوية من بعض الصيدليات بدون وصفة طبية، بل ومن المجمّعات التجارية الكبرى (drugstores) أو حتى في بعض الأسواق الأهلية في بلادنا. ويعاني المرضى من هذه الأدواء في الغالب دون معرفة الأسباب أو إرجاع الأعراض إلى الأدوية المستهلكة. لذا كان علينا أن ننتظر عشرات السنين لنعرف أن هناك أدوية تعتبر غير مؤذية في الظاهر عند بداية استعمالها يمكن أن يتبيّن فيما بعد أنها هي الأصل في عوارض خطيرة، والأدوية المثيرة لهذه المضاعفات كثيرة نذكر منها على سبيل المثال من جهة أولى المضادات للالتهاب المستعملة لعلاج داء المفاصل (الروماتيزم) كالكورتيزون والأسبرين ومواد أخرى وكلّها قد تتسبب في نزيف في الجهاز الهضمي خاصة عند الأفراد الذين يعانون من التهاب أو حساسية خاصة أو جرح في المعدة أو الأمعاء. ومن جهة أخرى الأدوية المقاومة لتخثّر الدّم والمستعملة بدون مراقبة دقيقة منتظمة والتي قد تؤدي أيضاً إلى نزيف خطير في حالة تجاوز مقادير الدواء.

هناك أدوية أخرى قد تتسبب في آثار جانبية خطيرة كالحساسية والاختلالات الدموية والهضمية والعصبية وأوجاع الرأس والآلام والدوران الخ... وتقدر إحصاءات مسجلة في الولايات المتحدة الأمريكية[3] أن هذه الأعراض هي السبب في ثلث الحالات الاستشفائية، وتحتل الصف الخامس في أسباب الوفيات، وهي تفوق الوفيات التي تتسبّب فيها حوادث السّير والاعتداءات والانتحارات مجتمعة. وقد اتضح أن مائة ألف حالة وفاة المسجلة سنويا في

المستشفيات[1] لها علاقة بتناول الأدوية. فالكُلفة البشرية لهذه الأمراض كثيرة جداًّ. أما الكلفة المالية فهي خيالية وتقدّر في الولايات المتحدة الأمريكية بحوالي 76 مليار دولار في السنة.

أما في أوروبا فتتسبب هذه الأمراض العلاجية المنشأ في استشفاء 15 % من المرضى.

وتؤدي الحالات المتعلقة بالأدوية في فرنسا سنوياً إلى مليون حالة استشفائية وآلاف عدة من الوفيات[4]، وبموازاة مع ما ذُكر وحسب تحقيق قام به المركز الفرنسي للرصد الصيدلاني (pharmacovigilence) الموجود في مدينة أمْيان بفرنسا (Amiens)، فإن من بين 150 ألف وصفة طبية لمرضى تتجاوز أعمارهم 70 سنة توجد 13500 وصفة يمكن أن تتسبب في أخطار طبية و680 وصفة كان يجب منع استعمالها منعاً مطلقاً[6et7].

والحقيقة أن الأمراض العلاجية المنشأ يمكن تفاديها بنسبة 50 % حين يتعلق الأمر بخطأ في الوصفة أو بخطإ في كيفية تناول الدواء الموصوف. ويمكن تقليص تواتر هذه الحالات بتحسين كيفية الوصفة التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار السنّ والوزن والأمراض السالفة وتداعيات التداوى. كما يجب الحرص على إعطاء الوصفة بالإشارة إلى الجرعات المطابقة واحترام الحالات التي يمنع فيها تناول الدواء الموصوف وإخبار المريض بالمخاطر ذات العلاقة بالعلاج. وفي الغالب نجد أهم الأسباب ترجع إلى خروج عن القياس في الجرعات الموصوف بها أو تفاعلات دوائية خطيرة. إن التعارض الفسيولوجي أو الصيدلاني يمثل خطرا فادحاً بفعل كثرة الأدوية، وينتج ليس فقط عن خلط عديد من العناصر ولكن أيضا عن تناول متزامنٍ لعدة أدوية أو في فترات زمنية متقاربة أو تناول أدوية مع بعض المواد الغذائية المتعارضة. هكذا يمكن أن يؤدي التداخل بين الأدوية (interaction) أو بين الأدوية والأغذية إلى إبطال

المفعول وعدم صلاحية الوصفة، كما أن الخلط بين دوائين قد يؤدي لا إلى الجمع بين أثرين فحسب بل وفي بعض الحالات إلى مفعول أقوى. ذلك ما يمكن أن يقع مثلا في حالة الجمع بين المهدّئات والمنوّمات (tranquillisants et somnifères).

هذا وتوجد اليوم برامج أو حُبْكات إعلامية (logiciels) تُعين على التحليل والبرمجة و تساعد على استصدار الوصفات ممّا يُتيح للطبيب القيام بعمليات للتأكّد من نجاعة الأدوية تحول دون الوقوع في أخطاء، زيادة على إمكانية أخذ الكلفة المالية للوصفة بعين الاعتبار.

أما الأخطاء الطبية فتمثل جانباً آخر من هذه التأملات[7] : وهي تتعلق في الغالب بالوصفات، لكن يمكن أيضاً أن تكون نتيجة للمقاربات التشخيصية. وكثيرا ما يُتغاضى عن هذه الأخطاء حين يُستعمل الدواء عند المرضى خارج المستشفيات.

ورغم ذلك وبمقتضى ما يُسمّى قانون الصَّمت، فمن النادر ضبط الأخطاء الطبية المؤدية إلى الالتحاق بالمراكز الاستشفائية أو تمديد الإقامة فيها. وقد بين بحث أُنجز في جامعة هارڤارد[8] أن الأخطاء الطبية تؤدي إلى وفاة ما بين 44000 و 98000 مريض في كل سنة في الولايات المتحدة الأمريكية، في حين أن ثمّة أخطاء أخرى تُتدارك في آخر لحظة داخل المستشفيات. تلك مثلاً حالة وصْفة دواء أُعطيت لطفل مريض وهي في الحقيقة، في تركيبها، تُعطى عادة لشخص متقدم في السن، وتمّ التّنبه لهذا الغلط من قِبل الطبيب أو أبَوَي الطفل في اللحظة المناسبة، كذلك حالة الممرضة التي تتنبه في آخر لحظة بأنها كانت على وشك حقن مريضها بعلاج مُوصف به لمريض آخر.

هذه الأنواع من الأخطاء التي يقع التنبّه لها في الوقت المناسب قلما تُسجَّل أو يُعلن عنها. والحقيقة أن عدم التدقيق في مثل هذه الحالات يجعل الأطر الصحية المسؤولة تستحق اللوم والتوبيخ.

إن فعالية الدواء تُقاس بنجاعته في تحسين تطور مرض أو عرض له علاقة باختلالات عضو أو جهاز، غير أن هناك أدوية عديدة ليست ذات فعالية ولو سبق لها أن حَصلَّت في وقت مَّا على الترخيص بالتسويق، ومع ذلك يواصل الأطباء توصيفها نزولا عند رغبة المريض أحياناً أو لمجرد الأخذ بخاطره. مع ذلك إن هذه الأدوية رغم ضعف فعاليتها تصرف لها التعويضات التأمينية.

إنّ الانطباع الذي يحصل عند المريض بكونه تماثل للشفاء من جراء تناول الأدوية غير الفعالة انطباع قد يعود إلى الآثار الصيدلانية للدواء على الجسم، أكان الأمر يتعلق بعلاج بديل (placebo) أم بمجرد تطور تلقائي مفيد للمرض. وتعود هذه الظاهرة من حسن الحظ إلى أن بعض الأعراض وبعض الأمراض الحادّة تتجه طبيعيا وتلقائياً نحو الشفاء. من جملة الأدوية غير الفعالة الأدوية التجانسية التقليدية (homéopathiques) المستعملة كعلاجات بديلة والتي ما زال يستصدرها بعض الأطباء إلى اليوم لعدم خطورتها على المريض، ولقلة ثمنها، ولتجنّب الاستعمال المبالَغ فيه للمضادات الحيوية (antibiotiques)، لكن في حالة تعفن فيروسي بسيطٍ، مثلاً، لن تنفع هذه الأدوية على كل حال.

وقد اقترحت الوكالة الفرنسية للتأمين الصحي سنة 2001 بسحب 835 دواء لعدم كفايتها للمعالجة الطبية، مما يمثل تقريبا 19 % من 4500 منتوج مدروس ومتوفّر في الصيدليات ومُعوَّض من طرف مؤسسات التأمين. وبالفعل فقد سُحِب أخيراً عدد كبير من الأدوية التي ليست لها فعالية حقيقية كما سُحبت من لائحة أخرى أدوية كانت تُعوّض فيما قبل.

ـ تأمّلُ آخرُ يخصّ مراقبة الدواء ودراسته بعد تسويقه : من المعلوم أن كلّ الأدوية تخضع للتجارب والاختبارات العلاجية اللازمة قبل الترخيص بتسويقها حين يتأكد توفّرها على الفعالية المطلوبة مقارنة مع علاجات بديلة أو مع الأدوية المنافسة الموجودة في السوق والتي لها نفس الأهداف العلاجية.

وفي الحقيقة لا يعني حصول دواء ما على الترخيص بالتسويق (autorisation de mise sur le marché) أن الأمر انتهى، بل تُواضب المختبرات الصيدلانية والأطباء والسلطات الإدارية والصحية على ممارسة رقابة دقيقة، وإجراء دراسات معمّقة للأدوية بمضاعفة التجارب على الحيوانات والتجارب السريرية على المرضى خلال مدة طويلة. هذا الحرص العلمي يُمكّن من معرفة أفضل للآثار غير المرغوب فيها، ومن اكتشاف آثار أخرى أقل بروزاً، ومن التقييم الموضوعي والدقيق للفعّالية العلاجية، وكذلك الاكتشاف الممكن لمؤشرات باستعمالات جديدة للدواء المعني بهذه العملية.

هذا وإن التعرف على الأثر غير المرغوب فيه، مما كان مجهولا من قبل، يمكن أن يحثّ السلطات الصحية على التراجع وسحب الترخيص الذي منحته من قبل، أو تقييده ببعض الشروط.

إن تقييم الفعالية الحقيقية لدواء جديد هو من الأهداف الرئيسية للبحث الطبي المعاصر، ويُفيد المعالجين لأن هَمّهم الدائم هو معرفة الأدوية الأكثر صلاحية. وتجرى هذه الأبحاث والمتابعات لصالح المرضى أنفسهم، ولصالح المجتمع الذي يتحمل كلفة العلاج. لذلك نرى أن الدراسات السريرية التي تجرى قبل تسويق أي دواء لاتبدو كافية لتوفير المعلومات الدقيقة عن درجة فعالية الأدوية الرائجة.

وينبغي التنبيه هنا إلى أنّ الدراسات العلاجية البَعدية مكلِّفة جدّا كلما ارتفع عدد المرضى الخاضعين للتجريب وطالت مدة العلاج. والحالة أن صنّا ع الأدوية الذين يتحملون التكاليف الباهظة للقيام بتلك الدراسات، والتي قد تصل إلى مبلغ خمسائة مليون دولار للدواء الواحد، ليسوا دائما مستعدّين، بعد تحقيق أهدافهم، لتأمين التمويل الضروري لمتابعة البحث، خاصة وأن مصلحتهم في إمكانية استثمار جديد لأدويتهم أمر غير مؤكّد. لذلك فإن تدقيق المعارف حول

فعالية الأدوية مرهون بمبادرات الطبيب أو مجموعة الأطباء الذين يتفرغون للبحث التطبيقي.

هذا وتُستعمل الأدوية كذلك في الوقاية من بعض الأمراض المهدِّدة لصحّة الناس وحياتهم، كما تستعمل لتأمين مناعة السكّان ضد الأمراض المُعدية. ويتعلق الأمر باللقاحات التي تُجرى لحديثي الولادة والأطفال لوقايتهم من الخُناق (diphtérie) والسُّعال الديكي (coqueluche) وشلل الأطفال (poliomyélite) وداء السلّ وداء الحَصَبة (rougeole) والحمّى الحُمَيراء (rubéole) والكُزاز (tétanos) الخ ... كما يتعلق الأمر باللقاحات التي تنجز في حالات الأوبئة كالنزْلة الوافدة (grippe)، والتهاب الكبد الڤيروسي (hépatite) (أ وَ ب)، والتهاب السحايا، والحمّى التيفية (fièvre typhoïde). وقد أدّى استعمال هذه اللقاحات في المغرب إلى القضاء على عددٍ من الأمراض مثل شلل الأطفال والجذري وغيرهما بفضل برنامج التلقيح الموسّع الذي تقوم به وزارة الصحة العمومية.

وتستعمل الأدوية أيضا لتعديل أنشطة عضوٍ أو وظيفة فيزْيولوجية. فالأشخاص الأصحّاء الذين يشكون ارتفاع نسبة الكوليستيرول في الدّم، رغم اتّباعهم الحِمية بالتقليل من استهلاك الدهون، يمكنهم تناول أدوية تقلّص تلك النسبة المرتفعة، وتحول دون حدوث مضاعفات، كانسدادِ شرايين القلب أو الدماغ. ونفس تلك الأدوية يوصي بها الآن للوقاية من الانسداد القلبي عند المرضى المهدّدين بتضيّق الشِّريان التاجي (coronaire) حتى ولو لم تكن نسبة الكوليستيرول مرتفعة في الدم. من جهة أخرى فإن علاجَ ارتفاع الضغط الدموي غايته الحقيقية حماية الشخص من إصابات شرايين القلب والدماغ وغيرها والتي تهدد صحته.

وتوجد كذلك علاجات وقائية لأمراض العظام يُوصى بها للنساء اللائي يئِسن من المحيض لحمايتهن من أن تُكسر عظامهن لسقوط بسيط على الأرض

مثلاً، أو اصطدامهن بحاجز، وتتقوّى هذه الآفات بسبب ضعف تَمعْدن العظام (déminéralisation)، وهي حالة متفشّية لدى هؤلاء النساء.

وهناك الأدوية المستعملة من أجل إنماء قدرات الإنسان السليم وهي متعددة ونكتفي في هذا الصدد بأن نعرض بعض الحالات الأكثر وقوعاً :

– الأولى تخصّ التلاميذ والطلبة الذين يحرصون على الحفظ بسرعة ويسهرون الليل لتحضير امتحاناتهم، ويُفرِطون في أخذ الأدوية المهيّجة للجهاز العصبي كالأمْفيتامين والأقراص المنبّهة المانعة للنوم (pilules anti-sommeil)، مع الإكثار من احتساء القهوة.

– والثانية تخصّ الأشخاص الذين يشكون السُّمنة أو البدانة ولا يترددون في استهلاك أدوية تفقدهم شهوة الطعام وتجعلهم يخفضون من وزنهم مما قد يتسبب لهم في اضطرابات قلبية وعصبية خطيرة.

وثمة حالات أخرى نشير إليها باختصار: الأولى تخص الأشخاص الذين يريدون تقوية ممارساتهم الجنسية فيستعملون بعض العقاقير كـ (الفياگرا) أو أدوية أخرى مماثلة بدون أي احتياط، والثانية تخص الأشخاص الذين يتطلعون إلى مواجهة ضغوط الحياة اليومية فيتناولون بعض المهدّئات أو مضادّات التوتر النفسي أو هما معاً، والحالة الثالثة تهم الرياضيين الذين يتعاطون المنشّطات (dopage) قصد رفع مستوى الأكسيجين في الدّم وتقوية العضلات وتحسين القدرات البدنية لتحقيق الأرقام القياسية.

وأخيرا يمكن استعمال الأدوية لأهداف غير علاجية، وهي ممارسة منتشرة وتُعدّ انحرافا خطيرا، في هذا المجال، وتلك هي حالة المدمنين على المخدّرات والمسكّرات والأفيون والكوكايين وغيرها.

ثمّ هناك حالة المستعملين لبعض العقاقير المنوّمة، يُلجأ أحياناً إليها مثلاً في الاستنطاقات البوليسية الخاصة في بعض البلدان، لكي يصلَ المُتّهم إلى درجة من النوم تجعله يفوه بالحقيقة ويعترف بما فعله (sérum de vérité).

وهناك حالة تصريف أنواع من الأدوية لبعض المعارضين قصد تبديل شخصيتهم والادّعاء بأنهم مصابون بأمراض عقلية تستلزم مكوثهم المستمر في مستشفيات الأمراض العقلية كما كان يقع في بعض بلدان ما وراء الستار الحديدي.

ثم هناك استعمال آخر للأدوية، في حالات الانتحار، وفي حالات القتل العَمد، وكذلك لتنفيذ حكم الإعدام على المتّهمين في بعض الدول كالولايات المتحدة الأمريكية، ويجري هذا الإعدام بحقن الأدوية السامّة في العروق بمقادير مرتفعة مُميتة.

هذا وكما أَشرتُ إليه آنفاً، فإن الهندسة الوراثية تُوظّف لصناعة الدواء، ذلك أن هذا الفرع من العلوم يَستعمل جراثيم وڤيروسات لصناعة أدوية بالتحويل الجيني، فتُنتج هذه الجراثيم بروتينات علاجية مثل الأنْسولين والإريثْروبيّيتين وتُنتج لقاحات مثل اللقاح المُضادّ لالتهاب الكبد الڤيروسي من نوع ب.

ويمكن أن تكون الهندسة الوراثية في المستقبل البعيد، مصدراً آخراً للتداوي، وذلك بإدخال مُورثات سليمة في جسم شخص يحمل مورثات مريضة، كما هو الشأن في بعض الأمراض الوراثية. وهكذا قد تنتج المُورثات المُدمجة البروتينات الضرورية لحسن أداء الأعضاء لوظائفها. ولإدخال هذه المورثات يُلجأُ لحامل يساعد على ذلك وهو الڤيروس أو الباكتيريا، خصوصاً منها العُصيّات الكولونية (E. Coli).

جانب مهمّ آخر يجدر بنا أن نشير إليه ولو بكيفية عابرة ويخصّ الدواء النوعي (générique) هذا الدواء. هو في الحقيقة نسخة طبق الأصل للدواء

المَرجعي، لكن لا يُسمح بإنتاجه إلا بعد مُضيِّ 25 سنة على إنتاج الدواء الأصلي والشروع في تسويقه وبعد أن يَسقُط في الملكية العمومية. وهكذا يحق لأي مختبر أن يعيد إنتاجه كدواء نوعي وترويجَه واستغلالَه بشرط أن تكون كلفته أقلّ من كلفة الدواء المرجعي، وأن يقدّم أو يُصرف في شكل آخر غير شكل الدواء المرجعي من حيث اللون أو التعليب أو غير ذلك.

ملاحظات أخرى كثيرة تهمّ عدّة جوانب من الأدوية نكتفي بجردها كالوصفات غير الشرعية وحجم الوصفة والمبالغة في استهلاك الأدوية والفائدة في تنمية تسويقها والإشهار لفائدتها الخ ...

خلاصة القول إن الأدوية كما بيّنّا، موجّهة في العادة لمعالجة الأمراض، أو على الأقلّ للوقاية منها. إلا أن مفهوم الدواء نفسه أخذ يعرف يتغيّر جذرياً، سواء من حيث الغرض منه أو من حيث كيفية تعاطيه. وقد بدت في الأفق بشكل جليّ معالم هذا التغيّر في سلوكات الأفراد وهم يرتادون الأسواق الكبرى في اختيارهم للمواد الغذائية حسب الرغبات أو التخوّفات، على أن تكون تلك المواد مخففة أو مقوّاة. فالحليب مثلاً يُعرض كمنتوج خام أو مُعزّز بالكلسيوم أو الفلويور أو مضادّات التأكْسُد أو الڤيتامينات، كل ذلك من أجل تحسين الجسم أو تقويّته وجلب منافع علاجية تميّز كلّ مادّة غذائية، تُخفّض نسبة الكوليستيرول، أو تُخفِّفَ التمعدن العَظمي، أو تقوّي الذاكرة، أو تُحافظ على الحيوية. وهكذا ليس المرضى وحدهم هم الذين يتعاطون الأدوية بل حتى الأصحّاء الراغبون في رفع قدراتهم الجسمية والعقلية أو الحفاظ على هذه القدرات ما أمكن.

Bibliographie

1 - J. Lazarou and all.

Incidence of adverse drug reactions in hospitalised patients. J.A.M.A-1998 n° 279 p.1200

2 - P. Pouyanne and all.

Admissions to hospital caused by adverse drugs reactions B.MJ-2000, n° 320, P.1036

3 - J. A. Johnson and J. L Bostmann

Drug relation morbidity and mortality Economic impact- A.M.J Health Sust. Parmany, 1997 n° 54 P.554

4 - Enquête sur les accidents médicamenteux.

Le moniteur des Pharmacies -n° 2283 du 28.11.1998

5 - C. Tourbe : "Une ordonnance sur 50 est dangereuse"

Science et Avenir, juin 1999.

6 - J. Ankri : Risque iatrogène et population âgée.

Actualités et Dossiers en Santé Publique, 27 juin 1999

7 - Claude Béraud : Les erreurs médicales *in* “Petite encyclopédie critique du médicament” - Les Editions de l’Atelier, Paris 2002

8 - S.N. Weingart and all. : Epidemilogy of Medical error, B.M.J. 2000 n° 320, P. 774

صوَر من علاقات التفاعل
بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى

محمد الكتّاني

من المؤكد أن أي حضارة لم تنشأ أو تزدهر إلاّ بالتفاعل مع غيرها من الحضارات. فالحضارات كلها قد خضعت لقوانين التأثر والاقتباس والتواصل مع غيرها، من حضارات سبقتها أو عاصرتها. حتى إن الباحثين في أصولها لا يجدون بداً من استقراء عناصرالتلاقح والإخصاب والتأثر التي تدين بها كل حضارة لغيرها. والبحث في هذا الموضوع يفتح المجال أمام علم الحضارة المقارن الذي هو خير ما يكشف النقاب عن حوار الحضارات، والتفاعل فيما بينها، تأثراً وتأثيراً [1].

وفي عصرنا الذي قويت فيه على نحو غير مسبوق التفاعلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الشعوب، أصبحنا أكثر اقتناعاً بحتمية التواصل والتفاعل الحضاري بين مختلف الأمم والشعوب عبر التاريخ.

فالمؤرخ الإنجليزي أرنولْد توينْبي Arnold TOYNBEE – 1975[2] يؤكّد في كتابه : «مختصر لدراسة التاريخ» أنه ليس هناك لا تاريخ ولا حضارة بوسعهما

أن يفسّرا بمعزل عن هذا التأثر، أو في استغناء عن تفاعلهما مع غيرهما[3]. وهو يعبّر عن ضروب التأثر والتأثير بين الحضارات، بكونها تماثل ما يعرف «بالتولد والتبنّي»، في المجال البيولوجي. ويعني بالتولد تفرع حضارة عن حضارة أخرى، وبالتبني أن تكون حضارة ما منشئة للأخرى، في بيئة مغايرة للأولى. والمستشرق الروسي بارتولد Vasily BARTOLD – 1930[4] يرى أن العلاقات المتبادلة بين الأمم تعدّ من أكبر عوامل التقدم والرقيّ. وأنه لا يمكن تفسير ظهور حضارة أو تقدمها بالنسبة لأي أمة، بما لها من مميزات عرقية، أو معتقدات دينية، أو طبيعة مواتية، وإنما يمكن تفسير ظهور هذه الحضارة أو تطورها بما لها من موقع داخل إطار العلاقات المتبادلة بينها وبين جيرانها[5].

ومؤلف «قصة الحضارة» و.ل. ديورانْت William James DURANT – 1981[6] ينتقد النظرة التقليدية التي كان ينظر بها الغرب إلى حضارة الشرق. فيذكر في مقدمة كتابه الشهير، أنه في اللحظة التي نرى فيها أن التعصب الإقليمي، الذي ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان، وتختزل حضارات آسيا كلها في سطر واحد، لم يعد مجرد غلطة علمية، بل ربما كان إخفاقاً ذريعاً في تصوير الواقع، ونقصاناً فاضحاً في ذكائنا. وسيدهشنا أن نعلم أن مخترعات عديدة ونُظماً اقتصادية وعلوماً وآداباً وفلسفات إنما يرجع كلها إلى الشرق[7]

والواقع أن الحضارة الأوروبية الحديثة لم تنشأ إلاّ في سياق التأثر بالحضارات الشرقية، وفي مقدمتها الحضارة الإسلامية، وفي إطار التفاعل بينها، بما انطوى عليه هذا التفاعل من اطّلاع على الحضارة الإسلامية، وعمرانها وأنظمتها، التي كانت بدورها من نتاج التفاعل مع الحضارة الفارسية والهندية والثقافة اليونانية. إذ من المعلوم أن الحضارة الإسلامية لم تشذ عن هذه القاعدة في بداية ظهورها وعصور ازدهارها.

إن هذه الظاهرة التي عمت سياق التاريخ الحضاري هي ما يُعبّر عنه اليوم «بحوار الحضارات»، أي تفاعلها فيما بينها، تأثراً وتأثيراً، عبر العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية. هذا الحوار الذي يعني ضمنياً، قيام التعايش بين كل الثقافات والحضارات التي لا مناص لها من الخضوع لقانون التمثل والانتقاء والاقتباس.

بيد أن هذه الظاهرة التاريخية المطّردة تظل برغم كل ما يقال عنها مجرّد تصور أو حكم مبهم، إن لم تقم على أساس بحث مفصل، يقف فيه المرء على ظواهر التأثر والتأثير، ومَواطن التفاعل والنقل، المشخّصة في الوقائع والأحداث والأمثلة والشواهد، سواء تعلق الأمر بالحياة المادية، أو بالحياة العقلية. ولاسيما حينما يتعلّق الأمر بالحضارة الإسلامية التي تأثرت بما قبلها وأثّرت في ما بعدها. وهذا ما أريدُ أن أسهم في بيانه في هذا البحث الموجز، عن العلاقة بين الإسلام والحضارات المختلفة. وذلك بتناول ظواهر التفاعل الحضاري، من خلال رصد صوَر أو مظاهر محدّدة، مدعّمة بالتوثيق العلْمي، الذي أنجزه به متخصّصون، وعلماء من الشرق والغرب، عرفوا بالموضوعية والحياد العلْمي.

وسأتناول الموضوع من خلال تتبع نشوء الثقافة الإسلامية التي كانت بمثابة الروح الموجهة للحضارة التي أسّسها المسلمون أو تفاعلوا من خلالها مع الحضارات السابقة، لرصد ظواهر التواصل والتعايش التي أقام الإسلام حياة الأمة الإسلامية على قواعدها.

لقد ابتدأ تاريخ الإسلام كما هو معلوم في بداية العقد الثاني من القرن السابع الميلادي، انطلاقاً من قيام الرسول العربي، محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي بمكة، بدعوة الناس إلى التوحيد الخالص من شوائب الشرك، فدعا قومه في المرحلة الأولى إلى اعتناق الإسلام، وما فتئ يوسع دائرة تلك الدعوة إلى أن هاجر إلى المدينة التي وجد فيها المجال الملائم والبيئة المتفتّحة لنشر الإسلام،

وإقامة دولته. فكتب حينئذ إلى كل ملوك وحكام الأمم المجاورة للجزيرة العربية، يدعوهم فيها إلى الدخول في الإسلام، إيذاناً بأن الإسلام هو دين الإنسانية كلها، ما دام يقوم على نفس الأصول الاعتقادية التي جاءت بها الأديان السماوية السابقة.

لقد انطلقت الدعوة إلى الإسلام، من خطاب القرآن الكريم الذي وجّه العقل إلى حقائق التوحيد، كما وجه الوجدان الإنساني إلى القيَم الأخلاقية المثلى، ليؤسّس على قواعدها حضارة جديدة، قُدّر لها أن تؤثر في مسيرة التاريخ الإنساني، بما حملته من مبادىء متميزة في العقيدة وقيَم التعايش والتسامح والإصلاح الاجتماعي.

فمن حيث العقيدة يقوم الإسلام على مبدإ التوحيد، وإفراد اللّه سبحانه بالعبادة والإخلاص. ويقوم من حيث نظامه السياسي على مبادىء حفظ الملّة وصيانة وحدة الأمة وتطبيق الشريعة والعمل بالشورى بين الحاكم والمحكوم، وتحقيق المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات وفي القضاء، وعلى الدفا ع المشترك عن المقدسات. ويقوم في نظامه الأخلاقي على القيم الأخلاقية الفضلى، وتحكيم الفطرة السليمة والوسَطية والاعتدال، وحسن المعاملة مع الناس والتوازن بين مطالب المادة ومطالب الروح. ويقوم في نظامه الاجتماعي على مبادىء التوازن بين الفردية والجماعية، أي بين مصالح الفرد ومصالح الجماعة. وعلى نظام التكافل والتضامن، وعلى احترام الأسرة، وإشاعة المودة والرحمة بين أعضائها. كما يقوم في نظامه الاقتصادي على مبادىء الإقرار بحق الملكية المشروط بعدم السّفه والضرر والإسراف، وعلى تحريم الربا، وعلى تبادل المنافع والمصالح بين كل الناس، على أساس العدل والمساواة. أما نظامه الثقافي فيقوم على طلب العلم وتحرّي الحقيقة في كل مضامينها، واستقراء السنن الكونية للاستدلال بها على حقائق الغيب، كما يقوم على حرية التفكير والتعبير.

ولذلك حمل القرآن بذور ثقافة جديدة، أمكنها أن تؤسّس حضارة تقوم في أساسها على القيم الخلقية، مصداقاً لقوله ﷺ: «إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق». حضارة تتقبل بحكم شموليتها كل تطوُّر وتفاعل مع الحضارات الأخرى، والتمثل لكل معطياتها، ما لم تتعارض مع تلك القيم والمبادىء[8].

والملاحظ في تاريخ الإسلام، وهو يخاطب عموم الإنسانية بدعوته، أنه لم ينعزل أو يجمد داخل أي مذهب أو حزب أو جماعة أو شعب. فظل خطاباً عاماً، مفتوحاً أمام كل العصور والشعوب والبيئات الإنسانية. وكان تاريخه ثمرة اشتراك شعوب وأمم عديدة في صياغته ونسج حضارته، مؤثراً حيناً ومتأثراً أحياناً بالتاريخ العام للإنسانية، وهذا ما يفسّر اهتمام المؤرخين والباحثين من المسلمين وغير المسلمين بهذا الدين وتاريخه في القديم والحديث.

وأول ما لفت نظر هؤلاء الباحثين في هذا التاريخ هو السرعة التي تم بها انتشار الإسلام في منطقة كانت مسرحاً لظهور أديان ومعتقدات شتّى، لم يكن من السهل أن يتنازل أهلها عنها، لارتباطها بكيانهم القومي أو العرقي. لكن الواقع أن عدداً كبيراً من المسيحيين فضلاً عن غيرهم، وبخاصة في الشام ومصر والعراق، قد تقبلوا دعوة الإسلام، وسارعوا إلى اعتناقه، عقب فتح المسلمين لبلدانهم، بمن فيهم بعض الأساقفة ورؤساء الكنيسة، في بداية الفتوحات الإسلامية، مثل جرجيس أسْقُف البحرين، George وفيلوگزينوس Philoxenos أسقف اذربيجان اليعقوبي، وأغناطيوس IGNATIUS مطران تكْريت وغيرهم[9]. وهذه الظاهرة ظلت تتكرّر، وربما لدوافع غير إيمانية، حسب ما يرويه المؤرخون المسيحيون، كإسلام رئيس الأساقفة النسطوريين بمدينة مروٍ، وكبير أساقفة الأندلس بمدينة الْبيرا[10].

والواقع أن انتصارات المسلمين المتوالية وفي فترة وجيزة في فتوحاتهم لأقطار الشرق الأدنى وآسيا الوسطى، وعلى أمم كانت متقدمة عليهم حضارياً

وعسكرياً، لا تفسّر إلاّ بما كان يحمله الفاتحون المسلمون إلى تلك الشعوب من مشروع حضاري، لإنقادهم من الاستعباد والظلم، اللذين كانا يُمارَسان عليهم من لدن حكامهم. فلقد بدا لهذه الشعوب أن الإسلام يحمل إليهم رسالة إصلاح شامل في العقيدة وتكريم الإنسان، وإشاعة العدل والسلام، مؤكداً نفس الحقائق والمعتقدات التي جاءت بها الرسالات السماوية السابقة، مخاطباً العقل بمنهج الاستدلال والفطرة السليمة بمنهج البداهة والحس السليم. وقد كان من الضروري ـ وقد جاء الإسلام خاتماً للرسالات السماوية ومتّصفاً بالعموم والشمول ـ أن يعتمد على ثلاثة مبادىء في خطابه :

أولها : خطابه للعقل الإنساني، باعتباره ميزاناً للنظر وتقييم الأشياء تقييماً موضوعياً بالنسبة لكل زمان ومكان.

ثانيها : قيامه على الحوار، والدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن. معلناً دعوة أهل الكتاب جميعاً من النصارى واليهود إلى كلمة سواء[11].

ثالثها : اعتباره للاختلاف بين البشر سنّة من سنن اللّه في الطبيعة البشرية. وأن هذا الاختلاف في اللغات والألوان والجنسيات والسجايا هو من مقاصد الإرادة الإلهية، لتقوم حياة الناس على التعارف والتعاون والتكامل والتمايز.

وبما أن القرآن دعا العقل إلى النظر في ظواهر الكون، القائمة على نظام ثابت، وسنن لا تبديل لها، فقد حث على تحصيل العلوم بتلك السنن الثابتة، في الطبيعة والنفس، وفي تاريخ الأمم والشعوب. وبذلك فتح القرآن أمام العقل الإنساني مجال البحث والنظر بغير حدود، وتحصيل العلم النافع، والتماس الحكمة حيثما كانت.

لهذا مضى المسلمون الأولون في تحصيل العلوم، واقتباس النظم والمؤسسات من الحضارات التي كانت قائمة لدى الأمم المجاورة، لكنهم قبل أن يقتبسوا ما لدى غيرهم من تلك العلوم والمعارف وضعوا أسس العلوم الإسلامية، ليؤسسوا على قواعدها أنظارهم في العلوم السابقة، وابتدأوا أولاً بتوثيق النص القرآني داخل المصحف الإمام، وجعل رسم هذا المصحف قابلاً للقراءات المتواترة للقرآن، وجمع الأحاديث النبوية وتدوينها وحفظها بأسانيدها. ثم نظروا في اللغة العربية التي هي مناط الخطاب الإلهي، فدوّنوا مادّتها وأدبها المروي، الذي يحمل معانيها في المعاجم، واستنبطوا قوانينها اللسانية، وصاغوها في علوم لغوية معروفة. وانصرفوا إلى العلوم المستنبطة من النصوص كالفقه وأصوله، وعلم الكلام ومناهج الجدل والحوار[12]. ثم أخذوا ينقلون العلوم العقلية والتجريبية عمّن سبقهم، لأن هذه العلوم إنما يعتمد فيها على العقل والتجربة والاختبار. ولذلك ظهرت حركة الترجمة للعلوم العقلية والتجريبية عن اليونانية والسوريانية والفارسية والهندية والرومانية ممّا سنقف على أمثلته فيما بعد.

ونأخذ في بيان الطور الأول، من خلال إبراز صوره الرئيسية عن تفاعل الإسلام والمسلمين مع التراث الحضاري الموجود.

والمتأمل في تاريخ العصر النبوي، وفي السيرة النبوية بالذات يقف على حقائق وأحداث وأخبار، لها دلالتها، فيما يخص تفاعل المسلمين مع ما وجدوه في محيطهم المكّي أو المدني في البداية أو ما وجدوه في محيطهم الواسع الذي انتشر فيه الإسلام بعد ذلك، منتفعين إلى أقصى حد بالنظم والأعراف والعلوم التي اقتبسوها من الفُرس، أو من البيزنطيين أو من الهنود وغيرهم من الأمم المتحضرة.

ولا نعثر في السيرة النبوية التي هي مرجع تطبيق الشريعة، تجسيد السياسة الشرعية في إدارة شؤون الأمة الإسلامية، على ما يدل على تحريم

الانتفاع بما كان معروفاً في الجزيرة العربية، من نظم الحياة العملية، في الشؤون الزراعية أو الاقتصادية أو التجارية أو الصحية أوالعسكرية، إلاّ ما نصّت الشريعة على تحريمه.

بل نجد على العكس من ذلك أن الرسول ﷺ، ومنذ بداية تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة، يفرق بين الشأن الديني الذي مصدره الوحي وبين الشأن الدنيوي، الذي مصدره التجربة العملية. وقد روى الإمام مسلم في صحيحه طائفة من الأحاديث الدالة على ذلك. وفي مقدمتها حديث تأبير النخل، الذي جاء فيه قوله ﷺ : «إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر». وفي رواية أخرى : «أنتم أعلم بأمر دنياكم[13]». وقد بين العلامة شاه ولي الله الدهْلَوي (1176) هذا التمييز بين الأمرين بكل تفصيل[14].

وورد في السيرة النبوية ما يشهد بأخذ الرسول ﷺ بكل ما دلت التجربة أو الممارسة اليومية على صلاحه. ولعل أول مظهر تجلى فيه أخذ الرسول والمسلمين بنظم الحياة العملية، ما كانت تمليه الضرورة الدفاعية أو الحربية من مواجهة الأعداء بنفس سلاحهم. فقد استعمل الرسول ﷺ بالإضافة إلى تلك الأسلحة التقليدية كالسيوف والرماح والنبال الأسلحةَ المعروفة عند الأمم المجاورة. ومنها المنجنيق، الذي استعمله النبي ﷺ في حصار أهل الطائف بعد فتح مكة، بإشارة من سلمان الفارسي، الذي كان قبل ذلك قد أشار عليه بحفر الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب[15].

أما المظهر الثاني الذي تجلّى فيه الأخذ بما كان معروفاً من علوم عملية فهو الطب. فالرسول ﷺ اعتبر الأخذ عن الأطباء المشهود لهم بالمعرفة والتجربة، ولو لم يكونوا من المسلمين، أمراً مباحاً، بل ومرغوباً فيه. وكذلك كان شأنه عليه السلام في الأخذ بكل معرفة دلت التجربة على صحتها.

ففي سنن أبي داود عن سعد بن أبي وقّاص، قال : «مرضتُ فأتاني النبي ﷺ يعودني، فوضع يده بين ثديي» فقال لي : «إنك مفؤود، إيت الحارث ابن كَلَدة أخا ثقيف، فإنه رجل يتطبّب»، أي يمارس الطب، وكان الحارث طبيباً مشهوراً، من أهل الطائف ولم يدخل الإسلام. وكان النبي ﷺ ينصح بالذهاب إليه كلَّ من به علّة من المسلمين[16].

وعن عائشة، رضي الله عنها، أن الرسول ﷺ كان يعتريه المرض في آخر حياته، فكان يأتيه الأطباء من العرب ومن العجم. ولا شكّ أن بعض هؤلاء كانوا يومئذ كفاراً، ومع ذلك كان الرسول ﷺ يستوصف من يثق فيه منهم[17].

ونعثر في كتب طبقات الصحابة على ترجمة مَن اتخذهم الرسول ﷺ دليلاً له في الهجرة من مكة إلى المدينة أو في غيرها من رحلاته وغزواته، ممّن كانوا غير مسلمين يومئذ[18]. وهذا يدل على أن الرسول ﷺ أجاز الانتفاع بخبرة الكفار ومعارفهم في الحرب والطب والكتابة وتحصيل العلم، وقد ترجم ابن أبي أُصَيْبِعَة في كتابه : «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لجماعة من أطباء النصارى من أهل القرن الأول، كان معاوية ومَن بعده من الخلفاء يستخدمونهم في الطبابة والعلاج اقتداء منهم بالرسول ﷺ.

وفي مجال الزراعة نقرأ في صحيح البخاري أن الرسول ﷺ ترك أرض خَيْبر لليهود بعد فتحها على أن يزرعوها، وذلك باقتراح منهم. فقد رأى الرسول ﷺ أن قيام اليهود وهم أصحاب خبرة، بحرثها وزرعها واستثمارها على أن يكون للمسلمين نصف ريعها ضماناً لمردودية أفضل[19].

ولم يؤْثَر عن النبي ﷺ ما يحرّم قراءة كتب الأقدمين أو غير المسلمين من النصارى واليهود بلغاتهم. فهذا عبد اللّه بن عمرو بن العاص كان يقرأ بالسريانية. وكان سلمان الفارسي يجيد قراءة كتب الفرس، وكتب الأديان السابقة. وكان عدد من الصحابة يطلعون على التوراة[20].

وعندما فتح المسلمون خَيْبَر كان من بين ما غنموه صحائف متعدّدة من التوراة، فجاء اليهود يطلبونها من الرسول ﷺ فأمر بتسليمها إليهم. وقد شعروا بالامتنان والتقدير لهذا الموقف، في حين كانوا يعلمون أن الرومان عندما تغلبوا على أورشليم سنة 70 ميلادية أحرقوا جميع الكتب المقدسة وداسوها بأقدامهم[21].

أما المروي عنه ﷺ من أنه غضب عندما رأى صحيفة من التوراة بين يدي عمر بن الخطّاب. وقوله إثر ذلك : «لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلاّ اتباعي» ، فقد نبه الحافظ بن حَجَر، شارح صحيح البخاري إلى أن النبي ﷺ لم ينه المسلمين عن الاطلاع على التوراة، وإنما نهاهم عن تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم لأن القرآن كافٍ في الإجابة عن كل تساؤل يطرحه المسلم[22]. ومن المعلوم أن الاطلاع على كتب النصارى واليهود للرد عليهم أمر مرغوب فيه. وقد قام بذلك عدد من علماء المسلمين، وفي مقدمتهم الإمام ابن تيمية رحمه اللَّه[23].

ولا نحتاج إلى تكلّف الردّ على ما تنطوي عليه هذه الحادثة من تساؤل. فالقرآن نفسه حكى بكل تفصيل مضمون الرسالات السماوية السابقة، وتاريخ أنبياء بني إسرائيل، مثلما حكى أقاويل المعرضين والمكذبين لرسالاتهم، مبرزاً أهم معتقداتهم والرد عليها، لأن القرآن كان يستهدف ترسيخ مفهوم عالمية الإسلام على أساس أن العقيدة واحدة، والشرائع مختلفة بحسب الأزمان والبيئات والأطوار الحضارية، وأن العلم القائم على الاستدلال والبرهان هو منطلق الإيمان بحقائق الغيب. وعقيدةٌ هذا منهجها لا تتحرج في أي عصر من وجود أي عقيدة مخالفة، أو في الدخول معها في حوار.

وقد أخرج أبو نُعَيم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «العلْم ضالة المؤمن حيثما وجده أخذه». وروى الحافظ ابن عبد البرّ عن علي ابن أبي طالب (ض) قال : «العلْم ضالة المؤمن فخذوه ولو من المشركين، ولا يأنف أحدكم أن

يأخذ الحكمة ممّن سمعها منه[24]. وهنا نذكر أن بعض الصحابة تعلّموا الكتابة من المشركين أسارى بَدْر. وكذا من يهود المدينة. والحديث المشهور : «اَطلبوا العلْم ولو بالصين»، يستفاد منه الحث على السفر في طلب العلم حيثما وجد، بغض النظر عن عقيدة أهله ومكان أخذه.

وقد سار الخلفاء الراشدون وسائر الصحابة على النهج النبوي في الإفادة من كل ما كانت تقدمه الحضارات القديمة، في مجال الطب والصناعة وأسلحة الدفاع وفنون الزراعة. من منطلق أن الإسلام لم يمنع البتَّة من الإفادة ممّا أثبتت التجارب صلاحيته، وأكدت العلوم وخبرات الأمم قيمته، من أساليب الزراعة والتجارة والطب ومعرفة النجوم ونظم الإدارة. فقد أخذ عمر بن الخطاب في بداية عهده بنظام الدواوين عن الفُرس. وتلقى تقارير من بعض عمّاله عن وصف البلدان التي تحت نظرهم[25]. وأبقى على التداول بالعملة الفارسية، وهي الدرهم والدينار. فجعل الدولة الإسلامية تتجاوز نهائياً التعامل بالمقايضة، ولكنه ضرب على النقوش الكِسْرَوِية كلمة «لا إلاه إلاّ اللَّه» فأضفى على العملة طابعاً إسلامياً[26].

وممّا عمل به الخليفة عُمر أيضاً في نطاق استثمار التجارب الحضارية للأمم المجاورة النهوض بنظام الريّ في مصر بعد فتحها. إذ يذكر المؤرخون أنه خصص ثلث إيرادات الدولة الإسلامية من مصر لبناء الجسور والترَع فيها لإصلاح الريّ الذي كان قائماً على نهر النيل لاستثمار مياهه على أفضل وجه. وذلك من منظور تعزيز مردودية الزراعة وتشجيع الزرّاع. وإذا كان قد روي عنه أنه لم يأذن لعماله ولا للجنود المسلمين بمزاولة الزراعة في الأراضي المفتوحة فلأنه حسب رأينا أراد أن لا يزاحم الفاتحون المسلمون الزراع الأصليين الذين هم أقدر على استثمار أرضهم بالخبرة والكفاية اللاّزمتين، ولترسيخ مبدإ بقاء الأرض بيد أهلها، فتظل مواردها الزراعية بيد الدولة في تحديد الخراج، لا بين أفراد يملكونها وحدهم[27].

وأما الصورة الثانية عن واقع التفاعل الحضاري بين المسلمين وبين غيرهم من الأمم المتحضرة فنأخذها من العصر الأموي. ففي هذا العصر الذي يمتدّ إلى نهاية الربع الأول من القرن الثاني الهجري نمت بقوة عوامل التأثر بالحضارات الفارسية والهندية والرومانية. وكان وراء هذا التأثر المتنامي عوامل أهمها: عامل الاحتكاك بين المسلمين والشعوب التي فتحوا بلدانها ومخالطتهم لها في المدن والأرياف، وفي المواجهات الحربية، وهو ما جعل المسلمين يقفون على أحوال تلك الشعوب، وعلى ما لها من حضارة تتمثل في العمران والصناعات وأساليب العيش من بيوت وأفرشة وألوان من التأنّق في الطعام واللّباس، إلى جانب نظم الإدارة وآلات الحرب ومعاهد العلم ومكتباته.

وقد أنشأ المسلمون بعد الفتح أمصاراً جديدة مثل البصرة والكوفة، ومثل مدينة الرملة التي أنشأها الخليفة سليمان الأموي في بلاد الشام. كما أنشأ المسلمون معسكرات صارت مدناً بعد ذلك، فاستقروا بها، وأخذوا يعيشون حياة تختلف عمّا نشأوا عليه، آخذين بأساليب العيش المترف، بعد أن توافرت بين أيديهم أموال الفيء والخراج، ولا سيما في بناء البيوت والتأنق في اللباس، وبناء المساجد والقصور على أرقى أساليب العمارة دون أن يشعروا بأن في هذه الحياة الجديدة ما يتناقض مع قيم دينهم وأخلاقهم.

وقد حافظ المسلمون أيضاً على الوظائف الكتابية في الإدارة أو الدواوين في أول عهدهم بالفتوحات، إذ تركوا هذه الإدارة بأيدي العمال المحلّيين، وباللغات المحلية من فارسية ويونانية. فلم يبدأ تعريب الدواوين إلاّ في نهاية القرن الأول الهجري. وفي هذا الوقت أيضاً بدأ سكّ العملة العربية. أما العمارة والبناء وسائر مظاهر الحياة المترفة فقد تأثر بها الفاتحون المسلمون، فأصبحت بعد تهذيبها مظهراً من مظاهر حياتهم الاجتماعية.

وأما في مجال الأخذ بالعلوم التي عند الأمم المفتوحة، فقد قيل إن خالد بن يزيد بن معاوية (85 هـ) كان أول من أمر بترجمة العلوم القديمة، كالطب

والكيمياء ونظم الحرب والصناعات التي عرفت بها الأمم المتقدمة. وكان أيضاً أول الخلفاء الذين قرّبوا إليهم أهل الحكمة ورؤساء كل صناعة بعد أن استقر المسلمون في بلاد الشام وفارس ومصر. فالأخذ بالعلوم والانتفاع بها من لدن المسلمين بدأ في عصر بني أمية، أي قبل الزمن الذي اعتاد المؤرخون اعتباره بداية لترجمة العلوم القديمة والاقتباس منها[28].

ويلاحظ كل المؤرخين المسلمين والغربيين مدى اتساع حركة التفاعل الثقافي والحضاري بين المسلمين وبين الشعوب التي فتحوا أقطارها، فقد بلغ الأمر أن أصبح أعظم علماء الإسلام في الفقه والحديث واللغة وعلوم الأصول وعلم الكلام من أبناء تلك الشعوب المفتوحة، فضلاً عن نبوغ الشعراء والكتّاب المبدعين في اللغة العربية من هؤلاء الذين يعتبرون من الأعاجم أصلاً ممن تفخر بهم آداب اللغة العربية وعلومها.

وبقدر ما كان تأثر المسلمين بالمظاهر الحضارية التي عند هؤلاء الأعاجم فإنهم أثروا بدورهم في أبناء البلاد المفتوحة بدينهم وأخلاقهم ولغتهم، فأقبلت الجماهير الواسعة من الفرس والمصريين والبربر على اعتناق الإسلام، وتعمق شريعته وإتقان علومه. ويرجع انتشار الإسلام في هذه الشعوب إلى عدة أسباب، منها بساطة العقيدة الإسلامية التي تتقبلها كل فطرة سليمة، وتتسع بمنهجها لإقناع العامة والخاصة على حدّ سواء. وكذا المنهج الذي اتبعه المسلمون الأولون في الدعوة إلى الإسلام بإعطائهم القدوة النموذجية في السلوك والالتزام بالأخلاق الإسلامية. ورفعهم لما كان يرهق أهالي البلاد المفتوحة من الضرائب والإتاوات المفروضة عليهم من قبل، وردّ الأموال المسلوبة إلى أربابها، واسترجاع الحقوق من مغتصبيها عند التظلم واللجوء إلى القضاء الإسلامي. وتفعيل مبدإ المساواة بين الناس.

ويذكر المستشرق توماس أرنولد[29] Sir Thomas ARNOLD (1930)[30] أمثلة عديدة على سلوك المسلمين تجاه النصارى، ومن بينها أن الفاتحين

المسلمين لمصر بقيادة عمرو بن العاص، حرروا الأقباط في مصر من الاستبداد الروماني، وتركوهم أحراراً في إقامة شعائرهم، ولم يضع عمرو بن العاص يده على شيء من ممتلكات الكنائس، بل يؤكد لنا أنه لا يوجد شاهد في التاريخ يدل على إرغام الأقباط على ترك دينهم في المرحلة الأولى من دخول الإسلام مصر. أما اعتناقهم للإسلام بعد ذلك وعلى نطاق واسع فقد جاء اقتناعاً. ومما يدل على كثرة المعتنقين للإسلام أن خراج مصر كان قد بلغ في عهد عثمان بن عفّان اثني عشر مليون دينار. ثم نقص إلى خمسة ملايين في عهد معاوية. ثم استمر في النقصان في عهد عمر بن عبد العزيز، حتى إن واليه على مصر اقترح عليه ألاّ يعفى من الجزية من يدخلون في الإسلام من الأقباط للحفاظ على ميزانية الدولة. لكن الخليفة عمر بن عبد العزيز أبى ذلك قائلاً : «إن اللَّه بعث محمّداً داعياً ولم يبعثه جابياً[31]».

ونستحضر في هذا الصدد المعاملة الخاصة التي كان يحظى بها النصارى واليهود في ظل الحكم الإسلامي، والتي تتجلى في المحافظة على كنائسهم وبِيَعهم، وإعادة بناء ما هدم منها خلال الفتح. فقد أذن موسى بن عيسى والي العبّاسيين على مصر من قِبل الرشيد ببناء الكنائس التي هدمت والتي بنيت كلها بمشورة الفقهاء الكبار، أمثال الليث بن سعد. وقد قيل إن عامة الكنائس التي بمصر لم تُبْنَ إلاّ في ظل الحكم الإسلامي. ومن أساليب السياسة التي اتبعها خلفاء المسلمين الأوائل أنهم تركوا للبطارقة والقساوسة والأحبار مراقبة الكنائس والبِيَع وتسييرها، ومنحوهم الحرية في إقامة شعائرهم، بل كان هؤلاء يتحاكمون إلى المحاكم الإسلامية عند الخلاف بينهم، ثقة في عدل القضاء الإسلامي[32].

والخلاصة أن سياسة الخلفاء الأوائل عملت على إشاعة التسامح تجاه المخالفين في العقيدة في أي بلد من البلدان المفتوحة في المشرق والمغرب.

فكانت سياستهم قائمة على المساواة الحقيقية بين الناس مع احترام الاختلاف في العقيدة والثقافة. والأمثلة والوقائع على وجود هذا التسامح وممارسته عديدة في تاريخ الإسلام. ومن قبيل ذلك ما يذكره المؤرخ والمستشرق تريتون Arthur Stanley TRITON (1973)[33] في هذا السياق، إذ ينقل في كتابه: «الخلفاء ورعاياهم من غير المسلمين» شهادة للبطريق يشوع بايف الثالث الذي تولّى بطريركية أنطاكية من سنة 674 إلى سنة 657 ميلادية، جاء فيها : «إن العرب الذين مكّنهم الربّ من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون، فهم ليسوا بأعداء للنصرانية، بل يمتدحون ملّتنا ويوقرون قساوستنا، ويمدّون العون إلى كنائسنا[34]».

وقد تقلصت المجوسية والنصرانية في البلاد المفتوحة، بدون أن تكون الدولة الإسلامية قد عملت على نشر الإسلام بطريقة منتظمة، مثل ما كان يفعله حكام النصارى من السهَر على التبشير وتمويل رجاله. فالمسلمون كانوا بحكم معاملتهم السمحة وأخلاقهم المتميزة وقدوتهم الخلقية يجتذبون أبناء هذه الشعوب إلى الدخول في الإسلام. وكانوا يرعون حقوق أهل الذمة بصورة متميزة. ومرجع ذلك ما كان قد حدده الإسلام من مبادىء التعامل مع المخالفين له من أهل الكتاب ومن لحق بهم. وتتلخص هذه المبادىء في بذل العدل والإنصاف للجميع أمام القضاء الإسلامي، وكذا رعاية الأقليات الدينية في المجتمع الإسلامي، الذين كان يطلق عليهم أهل الذمة، بما يليق بسماحة الإسلام وإقراره بالاختلاف بين الناس. وقد كانت السيرة النبوية المرجع العملي في ترسيخ هذه المبادىء.

ومن الظواهر الدالة على اتباع سياسة التسامح واحترام الاختلاف من لدن المسلمين، ولاسيما الخلفاء الأوائل، بقاء أهل الديانات المختلفة في المجتمعات المفتوحة، كالنصارى واليهود والمجوس والبوذيين على عقائدهم، واستمرار

معابدهم، ولو كان المسلمون خلال حكمهم وهيمنتهم المطلقة على تلك البلاد قد استأصلوا شأفتهم وقضوا على عقائدهم من باب التعصّب والإقصاء، لما كان قد بقي لهم اليوم أي أثر في بلدانهم، بل نرى أنه قد استمرّت هذه الأديان بتراثها على مدى العصور، بما فيها تماثيل البوذيين، ومعابد النار عند المجوس. وفي هذا السياق أسوق شهادة المستشرق الكبير السير توماس أرنولد، وهي شهادة لها قيمتها بالنظر إلى من صدرت عنه، يقول : «إننا لم نسمع عن أي محاولة مدبّرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد القصد منه استئصال الدين المسيحي. ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطّتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فِرْدِناند وإيزابِلاّ دين الإسلام من إسبانيا، أو تلك التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي مذهباً يعاقَب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعَدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة. وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالاً تاماً عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحائه أحد يقف في جانب أتباعها، باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين. ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن لَيحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية من تسامح نحوهم[35].

إن التعايش بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الأديان الأخرى داخل المجتمع الإسلامي، وفي ظل السلطة الإسلامية، هو الذي فتح المجال أمام التفاعل الثقافي والحضاري بين شعوب متعدّدة الثقافات، وجعلها تصوغ حضارة إسلامية جديدة، انصهرت فيها كل المعطيات العلمية والتقنية والثقافية موجهة بروح الإسلام التواقة إلى المعرفة.

وبغض النظر عما كان يحدث أحياناً من اندلاع خلافات واشتباكات عنيفة، تؤدّي إلى فتن محلّية بين المسلمين وغيرهم من المسيحيين واليهود لأسباب عاطفية، فإن التعايش الاجتماعي القائم على الاحترام للفئات المخالفة، ظل غالباً

على علاقاتهم. وقد لاحظ الرحالة المقْدِسي مثلاً أنه لم ير في مدينة شيراز مجوسياً واحداً بلباس يميزه. وإن كانت هذه ظاهرة استثنائية، لأن التميز باللباس بالنسبة لأهل الذمة كان معمولاً به منذ وقت مبكّر[36]. ومن أمثلة التعايش والاحترام المتبادل أن يمشي في جنازة كبار الصوفية المسلمين المسيحيون واليهود أحياناً[37]. ومن أمثلة ذلك أيضاً أن الصابئة استعادوا في عهد الأمين العباسي العمل بتقاليدهم في التظاهرات بشعائرهم وحفلاتهم[38]. وأراد الخليفة المأمون العباسي أن يصدر كتاباً لأهل الذمة يضمن لهم حرية الاعتقاد، وحرية إدارة شؤون كنائسهم وبِيَعِهم، بحيث يكون لكل مذهب مهما كانت عقيدته وعدد المنتمين إليه ولو كانوا عشرة أنفس أن يختاروا بطريقتهم ويعترف لهم بذلك، فأبى رؤساء الكنائس هذه الحرية التي تمسّ بمكتسباتهم، فاحتجوا على هذا الموقف، ولذلك عدل الخليفة عن إصدار هذا الكتاب[39].

وقد عومل المجوس والصابئة بنفس المعاملة التي عومل بها النصارى واليهود فيما بعد استقرار الإسلام في بلاد فارس وما وراءها برغم كونهم لم يكونوا من أهل الكتاب[40]. كما أن هؤلاء جميعاً كان لكل منهم رئيس يمثله في قصر الخلافة أو بين يدي الأمراء والحكام. وإذا كان مؤرخو المسلمين قلما تحدثوا عن رئيس لليهود، إلاّ أنهم عوملوا كطائفة دينية محترمة في كل البلاد الإسلامية. فكانت جالياتهم كثيرة في العراق والشام والأندلس والمغرب، فضلاً عن الجزيرة العربية. ولم يتعرضوا للفتك والمطاردة، إلا في ظل الحكم الصليبي في فلسطين، حينما قام المسيحيون باستئصال شأفة الجاليات اليهودية[41]. بل نرى أنه على العكس من ذلك قام المسلمون بحماية اليهود في ظل الحكم الإسلامي على نحو لم يتحقق نظيره حتى بالنسبة للمسيحيين بين طوائفهم، ذلك أن العداء الشديد الذي كان قائماً بين الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية وبين الكنيسة الغربية الكاثوليكية، كان يصل إحياناً إلى تدخل الشرطة الإسلامية التي

كانت تحول بين الفريقين لمنعهما من الاشتباك في الحياة الاقتصادية والتجارية[42].

وأقوى ما كان يمثل قيام التعايش والتفاعل بين المسلمين ومختلف الأمم ذوات العقائد المخالفة في ظل الدولة الإسلامية العلاقات الاقتصادية والتجارية بين المشرق والمغرب. فازدهار التجارة والمبادلات في عصر الدولة الإسلامية لم يقتصر على فئة معيّنة من الناس. وإنما كانت تقوم بها فئات نشيطة من اليهود والنصارى والمسلمين والهنود. فكان اليهود يحتكرون التجارة بين أوروبا والمشرق، ويستعملون الطرق البحرية خاصة عبر أساطيل من السفن مشهورة بهم، وينتقلون من بلاد الفرنجة بفرنسا إلى بلاد الهند عبر البحر الأحمر، حاملين مختلف البضائع المطلوبة في ذهابهم وإيابهم[43].

وقد أمّن أمراء المسلمين الطرق الواصلة بين المشرق والمغرب، فاتسع التبادل التجاري وتعدّدت طرقه بين الشرق الأوسط والصين وروسيا في الشرق وشمال إفريقية والأندلس في الغرب. وكان الجغرافيون والرحالة المسلمون قد قاموا بوصف البلدان والطرق والأنهار، وكذا المنتجات الطبيعية والصنائع في كل بلد من البلدان. وهو ما جعل التواصل بين المجتمعات يتم بناء على معرفة مسبقة بها. والدليل على ذلك أن الجاليات الإسلامية أخذت تستقر في البلاد غير الإسلامية[44].

ولاحظ المستشرق آدم ميتز[45] Adam MEZ (1917) أنه لم يكن لأوروبا أي سلطان على البحر الأبيض المتوسط خلال القرن العاشر الميلادي/القرن الخامس الهجري، فقد كان بحراً عربياً، وربما كان ذلك راجعاً لسوء الملاحة الأوروبية وضعفها يومئذ، بينما كانت مراكب المسلمين تعبر البحر الأبيض المتوسّط مشرقاً ومغرباً. بعد أن أسّسوا مراكز تجارية على مرافىء الشواطىء على امتداد البحار التي ركبوها بما في ذلك بحر الصين[46].

وتتحدث كتب التاريخ عن هذا التعايش بين الأديان المتعدّدة في ظل الدولة الإسلامية، وبين أحضان المجتمع الإسلامي، بما لا يدع مجالاً للشك في كون التسامح الذي أضفاه المسلمون على سلوكهم وعلاقاتهم مع المخالفين لهم، كان قاعدة من قواعد السلوك، إلاّ في فترات استثنائية من تاريخ المسلمين كان الخلفاء أو الحكام جائرين حتى على رعاياهم من المسلمين.

وإذا كان الحوار الحضاري يعني بالدرجة الأولى هذا التفاعل القوي بين مختلف الطوائف والأجناس في ظل تعايش قائم على احترام الحقوق والواجبات، وتبادل المنافع والخدمات الذي كان يتم بصمت وهدوء، وفي البيوت وفي الأسواق وفي معاهد العلم وفي دواوين الحكومة، والذي كانت اللغة من وسائله الأساسية، فإن المرء يتساءل عن مدى انتشار اللغة العربية في البلاد المفتوحة، وعن تأثيرها في لغات الشعوب الخاضعة للحكم الإسلامي.

ومن المعلوم أن اللغة العربية انتشرت في أعقاب الفتوحات الإسلامية بصورة لافتة للنظر، ومرجع ذلك، لا شك، إلى أن اللغة العربية كانت لغة العقيدة والشريعة. فاعتناق الإسلام والتماهي معه متوقفان على معرفة هذه اللغة. لذلك انتشر التعريب بسرعة في البلاد المفتوحة. وبالإضافة إلى هذا العامل الديني الهام في انتشار العربية، فإن اندماج العرب الفاتحين، ثم اندماج القبائل المهاجرة من العرب في الأوساط الاجتماعية في البلاد المفتوحة، والذي كان متلاحق الموجات يعتبر عاملاً قوياً كذلك في تحقيق التعريب، وانتشار اللغة العربية، دون أن يعني ذلك القضاء نهائياً على لغات تلك البلاد المفتوحة.

ونذكر بأن القرآن الكريم، وإن نزل باللغة العربية وبأقوى أساليبها فصاحة وبلاغة، فإنه قد استعمل كثيراً من الألفاظ غير العربية، ودلالة ذلك من الناحية الثقافية والحضارية أن القرآن نفسه أخذ بظاهرة التفاعل اللغوي وإن كان قرآناً عربياً معجزاً في أسلوبه ومعانيه. وقد أحصى السيوطي في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» كل الألفاظ المعرّبة عن اليونانية والحبشية والسريانية والفارسية

والرومانية وغيرها[50]. فليس غريباً واللغة العربية غنية بآليات التنمية الذاتية لمعجمها كالاشتقاق والتوليد والنحت والتركيب المزجي أن تزداد ثراءً بعد نزول القرآن، وعن طريق التفاعل مع اللغات الأخرى ذات الحمولة الثقافية أو العلمية وذلك بواسطة ما يعرف بالاقتراض اللغوي والتعريب للألفاظ الأجنبية، ولاسيما من خلال عملية الترجمة للعلوم القديمة.

ومن مظاهر التفاعل الحضاري أن المسلمين الفاتحين نقلوا العلوم عن تلك الأمم المفتوحة وتعاطوها، واستفادوا منها، ونمّوها بالتجارب والتطبيق والتصحيح والاستدراك عليها. ولم يعمدوا إلى إحراق المكتبات التي وجدوها، برغم وثوقهم بما بين أيديهم من كتاب اللّه وسنّة رسوله، وعملهم بأن هذه الكتب منها ما يشتمل على ما يتنافى مع معتقداتهم وثقافتهم. بل نراهم على العكس من ذلك قد حرصوا على اقتنائها، حتى إن بعض الخلفاء العبّاسيين قبلوا بافتداء الأسارى من الروم مقابل تسليم الكتب التي لديهم. فهذا السلوك الحضاري هو الذي جعل الأمم من غير العرب تدرك القيم الحضارية الجديدة. وتنقاد للإسلام وتندمج فيه، إما عن اقتناع، وإما على أساس كونه يوفر الاحترام لعقائدهم في ظل التعايش وتبادل المنافع.

وهذا الموقف الواضح تجاه الأخذ بالعلوم والمعارف التي دوّنها الأقدمون يتنافى مع الخبر الذي لفّقه فيما يبدو المؤرخ السرياني المسيحي ابن العِبْري عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بأنه أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية بعد فتح مصر. وقد روّج هذا الخبر بعد ذلك بعض المؤرخين الغربيين المتحاملين على الإسلام من غير تحقيق في شأنه. وقد فنّد هذا الخبر عدد من الغربيين أنفسهم[51].

وفي هذا المجال قام التعليم كما قامت الترجمة عن اللغات بالدور الحيوي في التفاعل الثقافي، وهما اللذان قام بهما في الغالب النصارى والسُّريان في

العصر العباسي، كما كان للاختلاط بين العرب والعجم في الأسواق والدواوين، وفي تكوين الأسَر بالزواج والتسري، واتخاذ الرقيق أثره أيضاً في نشر اللغة العربية، وتأثرها في آن واحد باللحن وتسرب الدخيل إليها. فكان من نتائج ذلك ظهور اللهجات العامية أو المولّدة، التي أخذت من الفصحى ومن غيرها من اللغات. وبذلك كان التفاعل اللغوي من أقوى مظاهر التفاعل الحضاري بين المسلمين وبين الأمم في المشرق والمغرب. ومن مظاهر ذلك تأثير اللغة العربية في اللغة الفارسية، وفي اللغة الإسبانية، خلال الوجود الإسلامي في الأندلس بصورة ملحوظة لا مجال هنا للتوسّع فيها[52].

إن هذا التفاعل اللغوي وما كان يعنيه من تفاعل ثقافي كان يحمل في طياته اقتباس المناهج العلمية، والأساليب الأدبية، ومظاهر الفنون المختلفة من تراث كل ثقافة، وترجمة كتبها والانكباب على تحصيل ما فيها من معارف. وهذا ما تجلّى بصفة خاصة في العصر العباسي، الذي يقدم لنا الصورة الثالثة عن التواصل الحضاري بين المسلمين وغيرهم.

وقد ذكر المؤرخ المسعودي (346) أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور (158) كان أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغة العجمية إلى العربية. منها كتاب «كليلة ودمنة»، وكتاب «السنْد هند»، وترجمت له آيضاً كتب أرسطو في المنطق، وكتاب المَجيسْطي لبطليموس، وكتاب إقْليدس في الهندسة وغيرها من الكتب القديمة من اليونانية والرومانية والفهلوية والسريانية. وأخرجت هذه الكتب للناس ليطلعوا عليها وينتفعوا بها. وكان أول من تقرى المذاهب وارتاض في الآراء والأقاويل، ولذلك ظهرت بعده مجاهرة المجوس بمعتقداتهم، فانتشرت آراء المانوية والديصانية وغيرها بسبب إتاحة الحرية في الاعتقاد. ولذلك عمل الخليفة المهدي العباسي (169) على تشجيع علماء الكلام على مجادلة هؤلاء وحوارهم. وكان أول من أمر هؤلاء الجدليين من أهل البحث والنظر بالتصنيف للرسائل في

الرد على الملحدين، وإقامة البراهين على المعاندين[53]. وإن كان لا بد من الإشارة أيضاً إلى أن ردود الفعل ضدّ انتشار الزندقة كان مختلفاً بين الخلفاء بحسب ما تمليه الظروف. فتارة كان التسامح والحوار أساس التعامل، وتارة كان القمع والفتك بالزنادقة هو الموجه للسلطة وإن كانت سياسة التسامح هي الغالبة.

وإذا كان المأمون العباسي (218) عمل على نشر الإسلام في بلاد ما وراء النهر وفرغانة، وأقاصي مملكته الواسعة، فإنه لم يستعمل سلطته في فرض الإسلام على غير معتنقيه، بل إن تسامحه جعله يحمي زعيم المانَوية الذي قدم إلى بغداد، وناظره المتكلمون لحمله على الإسلام فأبى، وعند ذلك أمر المأمون بحمايته من العامة، وتركه لشأنه[54]. وبقدر ما كان متسامحاً كان حريصاً على دراسة كتب القدماء من الفلاسفة، منكباً على فهمها، ميالاً إلى آراء المعتزلة العقلانية، مقرباً الكثير من علماء الجدل والمتكلمين الذين استدعاهم لمجالسته من مختلف الأمصار، وأجرى عليهم الأرزاق. فاقتدى به عِلية القوم في عصره، وإن كان غير متسامح مع مخالفيه في القول بخلق القرآن.

ونستخلص من جل مراجع التاريخ الإسلامي، نتيجة أساسية عن تفاعل المسلمين مع الحضارات السابقة، وهي أن الفتوحات الإسلامية سمحت ببقاء الثقافات الشرقية القديمة عند طوائف كبيرة من الأهالي الذين ظلّوا يمارسون طقوس أديانهم ومعتقداتهم، ويحتكمون إلى شرائعهم، ويتحدثون بلغاتهم. فكان طبيعياً أن تقوم روابط التعايش بين الفاتحين وأهالي تلك البلاد المفتوحة في وقت مبكّر، وأن تترسخ هذه العلاقات لما قام عليها من نفع متبادل. إلاّ أن هذه العلاقات لم تتأكد على نحو أفضل، إلا في عهد العباسيين، نظراً لما عرفه عصرهم من توسيع مجال الحريات بين المسلمين وأهل الذمة، وتحقيق المساواة فيما بينهم.

وفي هذا السياق أيضاً قويت حركة الترجمة والنقل عن اليونانية والفارسية والهندية. وقام التراجمة الكبار بنقل علوم الطب والفلك والرياضيات، كما قام

الخلفاء وعلية القوم باقتناء الكتب واستنساخها، وإيداعها في مكتباتهم، فاطلع المسلمون على الثقافات المختلفة والعلوم العقلية، وانتفعوا بكل ما تراكم من إنتاج علمي وعقلي عبر العصور السابقة.

ولما كانت الحضارة الإسلامية قد قامت على قواعد الإيمان والعلْم والتسامح فإنها لم تتحرج من استيعاب وتمثل كل العلوم المؤسسة على العقل والتجربة التي وجدتها لدى الأمم السابقة. فانكب المسلمون على تلك العلوم يتدارسونها بعد نقلها إلى اللغة العربية ويتعمقونها، وقد تأثروا بها إلى الحد الذي جعلهم يصبحون أساتذة للغرب في التعريف بها والإحاطة بمضامينها. والدراسات التاريخية الكثيرة عن دور المسلمين في نقل العلوم القديمة واستيعابها وتنميتها عن طريق البحث والنظر، وعن طريق الاختراعات والاكتشاف في ضوء المنهج التجريبي أكثر من أن تحصى في هذا المقام.

وقد أورد المرحوم محمد كُردْ عَلي، رئيس المجمع العلمي بدمشق في كتابه القيم «الإسلام والحضارة العربية» بياناً مفصلاً عن حركة العلوم عند السلمين، وما بلغته من تقدم وحققته من منجزات، معززاً بشهادات العديد من العلماء الغربيين، ومن بينها شهادة قول أحد المؤرخين :

«إن الحضارة الإسلامية أكملت المناهج العلمية، وأغنت بأبحاثها جميع فروع العلم اليوناني، من جبر وحساب المثلثات، وفلك ومساحة ومعادن وطبيعيات وكيمياء وطب. وأقامت مراصد فلكية ومختبرات وخزائن كتب، ونشأ في ظل هذه الحركة العلمية علماء عظام، وشخصيات مرموقة، من شعراء ومؤرخين وفلاسفة. وكان لما نقلته من العلوم عن اليونانية والسريانية، ثم ما نقل منها إلى اللاّتينية أعظم الأثر في الحضارة الغربية. خلافاً لما كانت عليه الحضارة البيزنطية. وعلى هذا تعتبر الحضارة الإسلامية محطة مهمة في مسيرة الحضارات بين العالم اليوناني الشرقي وبين أوروبا في القرون الوسطى»[55]. وشهادة أخرى ورد فيها : «إن الحضارة العباسية، ولسانُها العربية ودينُها الإسلام كانت مكملة

بمظهرها العقلي للحضارات القديمة التي عرفتها مملكة العباسيين الواسعة. ويصح ذلك على الخصوص بما نشأ من الفلسفة العربية والعلوم الإسلامية، فأثرت تأثيراً في أهل القرون الوسطى. لقد كانت الحركة العلمية في العالم كله وخلال أكثر من أربعة قرون بأيدي الشعوب الإسلامية». ثم يقول : «واحتفظت الحضارة الإسلامية بتفوقها خلال القرون الوسطى في الشرق والغرب. وقد اعتدنا اعتبار حضارتنا الأوروبية قد تألفت من جوهر الحضارة اليونانية الرومانية حتى صعب علينا أن نعتقد بأنه أتى عصر، وأهم قطر متحضر في أوروبا لم يكن سوى ولاية ذات حضارة إسلامية غريبة عنا، (يقصد الأندلس)، وأن البحر المتوسط مهد حضارتنا كان مهداً بأن يصبح بحراً عربياً. وكادت النصرانية في الغرب والإسلام في الشرق يكونان شيئاً واحداً، في زمن كانت فيه آسيا الصغرى نصرانية، وكانت إسبانيا والبرتغال وصِقِلِّية تظلها حضارة إسلامية زاهرة»[56].

ونصل الآن إلى الطور الثاني من طورَيْ تاريخ التفاعل بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى. والمقصود هنا هو تأثير الحضارة الإسلامية في انبعاث الحضارة الغربية الحديثة.

وقد وقفنا من خلال الأمثلة الموثقة على تأثر المسلمين بالحضارات القديمة من فارسية وهندية ويونانية ورومانية في مجالات شتى، بما فيها تأثير المناهج العلمية نفسها التي نمت بفضلها حركة العلوم عند المسلمين، وكيف تجاوبت قيم الإسلام مع الانفتاح على العلوم القديمة في نطاق ما ينسجم مع عقيدة الإسلام وقيمه الأخلاقية. وبقي أن نقف في إطار هذا التفاعل الإيجابي بين الحضارات على تأثير الحضارة الإسلامية في الغرب. وهو التأثير الذي جعل من المسلمين أساتذة للغرب في مرحلة من مراحل المسيرة الحضارية للإنسانية.

ويُقر المستشرق المعاصر جْرونْباوْم Gustave VON GRUNEBAUM (1972)[57] بفضل الحضارة الإسلامية على انبعاث الحضارة الغربية في مجال العلوم، وإن بأسلوب يسوده التحفظ ويطبعه التهوين من كل قيمة لدى العلماء المسلمين، سبق له الإعجاب بها، فهو يذكر لنا على سبيل المثال سبق الجاحظ والمسعودي وإخوان الصفا إلى القول بالنشوء والارتقاء. إلاّ أنهم في نظره كانوا يركنون إلى الحدس لا إلى التجريب[58].

كما زعم أن الملاحظة والتجريب كانت ضئيلة عند علماء المسلمين، ولكنه تناقض بهذا الزعم مع إقراره بما أنجزه علماء المسلمين في الطب والفلك والجغرافية وهي علوم لا تتطور ولا تستقيم بغير الملاحظة والاستقراء. بل لم يسعه إلاّ أن يقر بأن علم البصريات عند المسلمين قد فاق بصورة مميزة كل ما سبقه من علوم الأقدمين. وهو حين يشيد بتأثير طب الرازي في طب أوروبا، ويبين مدى اعتماده على الملاحظة والتشخيص[59]، ويذكر مثالاً على هذا المنهج العلْمي الموضوعي الذي لم يتأثر بالعقيدة ولا بالنصوص المخالفة لسان الدين ابن الخطيب الأندلسي في رسالته عن الطاعون[60] ويعقب على ذلك بقوله : «إن هذه الرسالة كان قد فات أوانها لأن العلم العربي كان قد دخل يومئذ مرحلة السبات العميق»[61].

ولا يمكن في نظرنا أن يتحقق هذا التفوق المشهود للمسلمين في تلك العلوم التجريبية بغير اصطناع المنهج التجريبي. ويقول جْرونباوم بالنص: «كان العلماء العرب مصدر إلهام قوي للغرب في العصور الوسطى»، ولم يكن الغرب يكتفي فقط بالتلهف على المادة التي يقدمها المسلمون، والتي أصبح في المستطاع الوصول إليها بما تم من تراجم واسعة النطاق، بل كان الغرب يتبنّى الشروح التي وضعها علماء المسلمين في هذه العلوم. ففي القرن الرابع عشر لم تقبل جامعة باريس إدخال دراسة أرسطو إلاّ بشروح ابن رشد[62]. ثم يضيف

إلى هذه الشهادة قوله : «ليس ثمّة ميدان من ميادين الخبرة الإنسانية لم يضرب فيها الإسلام بسهم، ولم يزد ثروة التقاليد الغربية فيها غنى، فثمّة الأطعمة والأشربة والعقاقير والأدوية والسلاح والدروع ونقوشها، والفنون الصناعية والتجارية والبحرية، ثم بعد ذلك الأذواق والموضوعات الفنية، بغض النظر عن المصطلحات العديدة في علوم الفلك والرياضيات، وإن قائمة تحصي على المدى الكامل مساهمة الإسلام في كل ذلك لَتستغرق صفحات عديدة دون أن تبلغ حدّ التمام»[63].

ويعترف المستشرق ألْدو ميلِّي Aldo MIELLI مؤرخ العلم العربي[64] بدور هذا العلم قائلاً : «إن مقام العلم العربي لهو بالمكانة الأولى من الأهمية في تاريخ العلوم؛ لأن هذا العلم يكون حلقة الاتصال والاستمرار بين الحضارة القديمة وبين العالم الجديد. وإذا نحن لم نواجه ذلك العلم العربي، ولم نتفهمه، فسنجد فراغاً يتعذر تفسيره بين الحضارات القديمة وبين حضارتنا الحديثة»، ويقول في سياق آخر : «ويمكن أن نقرّر أن كل هذا الإنتاج في علوم الرياضيات قد عرفه وانتفع به العرب الذين استطاعوا أن يستقوا بحرية من ذلك المعين من الثروة العلمية، ولم يفلت من دائرة انتباههم إلاّ أسس الحساب التفاضلي التي وضعها أرْخِميدس، واستطاع العلماء العرب أن يغترفوا أيضاً من الكتب الميكانيكية والفلَكية، كما انتفعوا بكنوز الطب الإغريقي إلى حدّ بعيد»[65].

لقد كانت ظواهر التأثير الثقافي والحضاري والعلمي التي حملتها الحضارات الشرقية، وفي مقدمتها الحضارة الإسلامية إلى الغرب منذ العصور الوسطى، ولاسيما في بداية عصر النهضة الأوروبية الحديثة موضوع دراسات وأبحاث عديدة قام بإنجازها علماء مختصون، نظراً للأهمية الكبرى في التعرف على أصولها وتطوّرها، وتأكيد كون الحضارات تظل خاضعة لجدلية التواصل والتفاعل والانتقاء، وبناء اللاّحق على السابق، وأنها لم تكن قائمة على الصدام كما ادّعى البعض[66] ولا على التقوقع أو الإقصاء.

ويذكر المتخصصون في تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب أن ظواهر التأثير الحضاري الشرقي في حضارة الغرب تجلّت في عدة ميادين من بينها الكتابة والطباعة وصناعة الورق وفنون المعمار والزخرفة، فضلاً عن العلوم والفلسفة والآداب التي تم نقل الكثير من كتبها من اللغة العربية إلى اللاّتينية. ويؤكدون بالخصوص تأثير التصوف الفارسي في التصوف الغربي، وتأثير الفكر الرُّشدي في الفلسفة المسيحية، وتأثير فنون بناء المساجد في بناء الكنائس.

وليس من الضروري من أجل تكوين صورة مفصّلة عن العلاقات الاقتصادية والتجارية بين المسلمين وأوروبا في العصور الوسطى، ولاسيما منذ بداية الحروب الصليبية، أن نعتمد على وثائق محفوظة أو مصادر موثوقة تثبت هذه العلاقات المعقدة، نظراً لضياع معظم تلك الوثائق والمصادر. إلاّ أن المتخصصين الذين يقرّون أنها كانت علاقات قائمة بحكم طبيعة الأشياء، ويستدلون بما بقي من تلك المصادر على ما اندثر منها. ويؤكدون في هذا السياق تأثير أساليب الاقتصاد والزراعة والري في أوروبا بعد اتصالها بحضارة الشرق الإسلامي. فيذكرون على سبيل المثال انتقال زراعة الأرز وقصب السكر والبرتقال والليمون من الشرق إلى الغرب، ويذكرون أيضاً نقل أساليب الري الإسلامي، بمدّ القنوات تحت الأرض، واستنباط المياه الجوفية، كما كان معروفاً ذلك في الأندلس[67]. ويقال مثل ذلك في تأثير الفنون الإسلامية التي ابتعدت بطبيعة نزعتها عن التماثيل ذات الرموز الدينية المخالفة لنزعة الإسلام. فالفن الإسلامي إنما اعتمد تصوير الحيوانات والطيور والأزهار، واعتمد التوريقات والزخرفة والنقش على الخشب والرخام، والتذهيب والنسج الأنيق. وبهذه الصفة نجد بصمات الفن الإسلامي في الفنون الأوروبية في عصر النهضة.

ونفس التأثير يقوم به علم الجغرافية عند المسلمين، ونذكر في هذا السياق ازدهار علم وصف البلدان على يد علماء المسلمين، وفي مقدمة آثاره كتاب :

«نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للشريف الإدريسي الذي ألفه تلبية لطلب الملك النورماندي روجر الثاني، والذي يعد أول محاولة لوصف الكرة الأرضية. وقد وضع الإدريسي كتاباً آخر في الجغرافيا لولْيام الأول خَلَف روجَر. كما أن ما كتبه المسلمون في علم البحار كان له أثر بالغ في تقدم الملاحة الغربية، والملاّح العربي الأشهر أحمد بن ماجد هو الملاح الذي وضع أفضل دليل عن المحيط الهندي، وألف زهاء ثلاثين مؤلفاً في هذا العلم(68).

وربما كان «الصفر» أحد الأمثلة الأساسية في هذا المجال. إذ من المعلوم أن للصفر دوراً جوهرياً في تطور علوم الحساب والرياضيات، وقد استعمله المسلمون العرب وإن كانت طريقة انتقاله إليه من الهند، وانتقاله إلى الغرب بعد ذلك يسودها الغموض، لكن من المؤكد أن الصفر لفظ عربي، ورد في الشعر الجاهلي في إحدى قصائد حاتم الطائي، ورد قوله :

ترى أن ما أهلكت لم يك ضرني   وأن يدي ممّا بخلت به صفر

وهو هنا يعني الخواء والخلو واللاّشيء. وعندما قام المسلمون بنقط المصاحف في صدر الإسلام وضعوا السكون على شكل حلقة صغيرة يرمزون به إلى عدم الحركة، ثم جعلوا هذه الحلقة المسماة صفراً دالة على اللاّشيء في الحساب، أو دالة على الأعشار والمئات وما فوقها بحسب وضعه(69).

ويشهد المستشرقون أنفسهم بأن العرب أحسنوا انتقاء المواد التي كانوا يلتقطونها من كل الحضارات والأوساط الاجتماعية الوارثة للثقافات القديمة، ومن مجموع هذه المواد أبدعوا حضارة حيّة مطبوعة بطابع قرائحهم. وقد غاب عن هؤلاء المستشرقين أن هذا الانتقاء من كل الحضارات كان يتحكم في بلورته منظور إسلامي عقدي، ينظم كل تلك المعطيات في سلك متجانس، وأن هذا المنظور هو قوام الحضارة الإسلامية، ولذلك هيمنت هذه الحضارة في كل بلد دخلته متمثلة كل ما كان نافعاً من ثقافته، نابذة ما سواه.

والواقع أنه بفضل امتلاك الأوروبيين للعلوم والمعارف العربية والإسلامية، منذ ابتداء القرن الثاني عشر للميلاد حصل تقارب بين الإسلام والغرب، وبخاصة في اللاّهوت والطبيعيات والميتافيزيقا على حد تعبير المستشرق الروسي المعاصر أَلِكْسي جورافْسكي Aleksii JURAVSKI[70]، الذي يذكر في نفس السياق قيام مدرسة متخصصة في الترجمة ذات نزعة فلسفية، منذ أواخر القرن العاشر الميلادي، على يد الأسقف فولبير، والتي صارت في ما بعد منارة للنهضة الفرنسية، ساعية للتوفيق بين المصادر المسيحية والمصادر العربية، متأثرة بالفكر الإسلامي ذي النزعة الهيلينستية[71].

ولم يكن بالإمكان الوقوف في وجه تأثير الحضارة الإسلامية في الأوساط المسيحية مهما بلغت قوة الحاجز الديني. ففي إسبانيا لم يتمكن أهلها من أن يحولوا دون تغلغل النفوذ الإسلامي في صميم حياتهم حتى إن ممالك إسبانيا النصرانية استعملت النقود الإسلامية أربعة قرون، واستحضر كثير من ملوك قشتالة وأراغون جما غفيرا من علماء المسلمين واليهود، وقدموهم في مجالسهم، كما استخدم كثير من ملوكهم المهندسين والبنائين المسلمين، وفتحوا قصورهم لكثير من الموسيقيين والشعراء العرب للاستمتاع بأنغامهم وشعرهم، ولم تمت روح التسامح بين هذه الشعوب المتساكنة يومئذ في شبه الجزيرة الإيبرية، إلاّ بعد خروج الإسلام من إسبانيا، فحل محله روح ملؤها التعصب الأعمى الذي أشعل ناره القساوسة، فأصبحت إسبانيا أسيرة عبوديتهم[72].

ويقول رينو (1867) Joseph TOUSSAINT-REINAUD[73] في كتابه «تاريخ غزوات المسلمين لأوروبا» إن المسلمين في مدن الأندلس كانوا يعاملون النصارى بالحسنى، وأن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين، فيختتنون أولادهم ولا يأكلون الخنزير. ثم قال : إن النهضة الحقيقية في أوروبا لم تبدأ إلاّ منذ القرن الثاني عشر الميلادي، أي منذ زحف أهل الغرب لقتال أهل الشرق، ووقفت النصرانية والإسلام وجهاً لوجه، ووقع التصادم بين المسلمين والنصارى،

فأفاق الفرنسيون والإنجليز والألمان من رقادهم، نافضين عنهم غبار الخمول، ووجدوا أن من الضروري الاشتراك في المدنية الإسلامية. وذلك بعد أن كان العلم باللغة اليونانية قد ولّى وصار العلم اليوناني غير معروف إلاّ عند العرب. فأخذ النصارى من فرنسا وغيرها يؤمّون إسبانيا أو الأندلس لأجل ترجمة الكتب العربية المنقولة عن اليونانية[74].

وقد تكرّرت عملية الانتقاء من لدن التراجمة في نقل التراث اليوناني إلى اللغة العربية في العصر العبّاسي مرة أخرى في انتقاء المترجمين الأوروبيين لبعض التراث العربي، ولاسيما ما يتصل بمؤلفات أرسطو. وبذلك أصبح اهتمام هؤلاء التراجمة منصبّاً على مؤلفات ابن سينا وابن رشد والكندي، وإلى هذا التوجه يعزى ظهور «الأوغوسطينية السيناوية»، وظهور التيار الفلسفي الرشدي المسيحي في القرن الثاني عشر في أوروبا[75].

إن الدور التاريخي الكبير الذي قام به المسلمون في النقل لعلوم الحضارات القديمة والتنسيق بين معطياتها المختلفة، والتفاعل معها بروح التسامح والاقتباس، لم يكن ليتحقق بهذه الصورة الواسعة والشاملة إلاّ في ظل شروط أخلاقية واجتماعية مواتية وعقيدة منفتحة على العلوم الإنسانية ومعطيات العقل السليم. والمقصود بذلك سماحة الإسلام ووسطيته، وقيامه على العقل المستنير، وتسامح المسلمين حينما لم يرفضوا الاختلاف الثقافي والعقائدي، وإنما عملوا على مدّ الجسور داخل هذا الاختلاف عن طريق الحوار والمناظرات والتعايش مع أمم وشعوب تختلف عنهم عقيدة وثقافة.

وبفضل هذه الروح العقلانية والنقدية البناءة، ظهر على يد علماء المسلمين نوع من التأليف، يتعلق بالحوار بين الأديان عن طريق المناظرات والجدل العقلي، هدفه الإقناع والاقتناع، والعمل بدعوة القرآن إلى سبيل الحق بالحكمة والموعظة والجدل بالتي هي أحسن.

ويذكر في سياق الحوار والجدل اللذين ظهرا بين المسلمين والمسيحيين خاصة منذ العصر الأموي أنه ربما نشر على يد يوحنّا الدمشقي Saint John DAMASCUS (749م) المسيحي الذي قام بتأليف رسائل في قالب حوار سجالي بين مسيحي ومسلم قصد منها تزويد المسيحيين بالإجابات عما كان يطرحه المسلمون عليهم من قضايا العقيدة المسيحية، وذلك بقصد تحصين هؤلاء المسيحيين من الانسياق لبرهان المسلمين في إثبات عقيدة التوحيد الخالصة، وما يتصل بطبيعة المسيح عليه السلام. وواصل تلميذه الأسقف ثِيودور أبوقرّة هذا المنهج حول مسائل الخلاف بين المسلمين والمسيحيين، كما كان البطريق النسطوري طيماثوس يشارك في المناظرات التي كانت تنظم بحضرة الخليفة العباسي الهادي والخليفة هارون الرشيد[76].

وفي هذه المناظرات كان يحدث ما هو متوقع من اقتناع بعض المسيحيين بالإسلام مثل مطران مدينة مروٍ الذي اعتنق الإسلام فقال عنه المسيحيون إنه أسلم مقابل هدايا ثمينة ومنصب أسنده إليه الخليفة المهدي العباسي[77]. ولا ينبغي أن ينصرف الذهن هنا إلى أن المسلمين كانوا يحرصون على مجرد إظهار المسيحيين للإسلام، إذا لم يكونوا مقتنعين به. ذلك أن المسلمين ولاسيما الخلفاء كانوا لا يقبلون من المسيحيين إلاّ الإسلام المبني على الاقتناع، ويستهجنون الإسلام المبني على الطمع في المال أو المناصب.

والخلاصة أنه قام منذ العصور الأولى لالتقاء المسلمين بالمسيحيين حوار ومناظرات سجالية بين المسيحية والإسلام في ظل التعايش والاحترام وكفالة حقوق المسيحيين في الاحتفاظ بشعائرهم ومعتقداتهم. ولقد أدّى هذا الحوار مع الأديان، والذي فتح المسلمون أبوابه الواسعة، إلى ظهور علم مقارنة الأديان الذي يعتبر الحسن النوبَختي (330) أول من كتب فيه، وله كتاب الآراء والديانات وكذلك المؤرخ المسعودي (345) الذي ذكر تأليفه فيه في بعض كتبه. وقد سار على هذا النهج علماء مسلمون آخرون اهتموا بهذا الجانب، نذكر منهم عبد الملك

بن محمد الحراني المسبحي (420)، وله كتاب الأديان والعبادات في ثلاثة آلاف وخمسمائة ورقة. وكذلك البيروني (440) الذي ألف عن الأديان الهندية القديمة، ووصفها بكل موضوعية وحياد علمي في كتابه : «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة».

ونذكر من أولئك العلماء المسلمين أيضاً ابن حزم (456) في كتابه المشهور: «الفصل في الملل والأهواء والنِّحل»، والغزالي (505 هـ) في كتابه: «الرد الجميل لألوهية عيسى بصريح الإنجيل»، والشهْرسْتاني بعده (548) في كتابه: «الملل والنِّحل» .

ومن خلال المناظرات والحوار الذي كان متصل الحلقات في دور العلم والمكتبات وغيرها، بين النصارى والمسلمين على وجه الخصوص في المشرق وفي الأندلس، أدرك بعض العلماء المسلمين أنه يجب تحديد مناهج الحوار أو الجدل بين المختلفين، ووضع القواعد الأساسية التي تمكن من الارتقاء بهذا الجدل إلى مستوى الحوار الموضوعي، بعيداً عن التشغيب والسفسطة.

وممّا له دلالة خاصة في سياق التواصل الثقافي والحضاري بين الإسلام وبين الأديان السابقة ما يشير إليه المستشرق أَلِكسي جورافسكي[78] من قيام علاقات عالمية بين العقائد اليهودية والمسيحية والإسلامية في القرون الوسطى، حتى إن مصنفات المسلمين استخدمت في نفس العصور بوصفها ذات أهمية علمية عالمية، بالنسبة للاهوتيين الكاثوليك. وبأن هذه المصنفات ترجمت بدورها مؤلفات عن اللاهوتيين الكاثوليك، إلى اللغة العبرية، لتستخدم في المجادلات والمناظرات الكلامية التي كانت تجري في المدارس اليهودية المختلفة. فالكتاب الذي كان يؤلف في الشرق الإسلامي سرعان ما يصبح في متناول العلماء والدارسين الغربيين بواسطة المترجمين من المسيحيين واليهود، وينتظره مئات القراء في الأندلس وفي إيطاليا وباريس وغيرها.

ومن حقنا أن نتساءل عن مصير هذا التفاعل الثقافي والحضاري الإيجابي بين الشرق والغرب. والذي جرى في ظل قيم التسامح والانفتاح والحرية الفكرية خلال عهود الازدهار في ظل الدولة الإسلامية ؟

إنه لمن المؤسف أن يلاحظ المؤرخون عامة أن هذا التفاعل المثمر بين الشرق والغرب قد أخذ يتقلص، ويأخذ مظاهر مخالفة لروحه الإيجابية السابقة عقب تقدم الغرب، وتفوقه في امتلاك أسباب القوة بالنسبة للمسلمين. فقد أصبح العالمان الإسلامي والمسيحي يبتعد كل منهما عن الآخر، ليس في المكان والزمان، ولكن في مجال التعايش والتبادل الثقافي، بسبب تأجيج العواطف الدينية المعادية للإسلام والمسلمين. فمنذ قام مسيحيو أوروبا، وعلى رأسهم البابا أوربانوس الثاني في مجمع كْليرْمون بفرنسا، في أكتوبر سنة 1095 بالتعبئة الجماعية لشن حملات صليبية ضدّ العالم الإسلامي، لتحرير القدس من هيمنة من سمّاهم (بالكفار)، أي المسلمين، ابتدأ تاريخ جديد من العلاقة بين الشرق والغرب، قائم على التصادم العسكري والسياسي بين الدول الإسلامية والدول المسيحية. وخلال ثلاثة قرون من هذا الصراع الذي كان يخمد تارة ويشتعل أخرى، لم تبق هنالك علاقات ثقافية متبادلة المنافع والمصالح، وإنما بقيت بفعل الضرورة علاقات ديبلوماسية وتجارية شديدة الارتجاج. والواقع أن الأوروبيين وحدهم كانوا المستفيدين من هذه الحروب الصليبية والمسؤولين عن فجائعها في آن واحد.

وعندما يرجع الباحث المتأمل إلى ما كان يقوم به قساوسة الكنيسة من تشويه لصورة الإسلام، وصورة نبيه عليه السلام، في خيال عامة المسيحيين في أوروبا، الذين كانوا يجهلون بالمرة حقائق الإسلام وتاريخه ودعوته إلى التوحيد وتصديقه لكل الرسالات السماوية، بما فيها رسالة المسيح عليه السلام، وبما كانوا يعبّرون من خلاله عن عدائهم الدفين للإسلام[79] كالقصص الشعبي

والشعر والدراسات التاريخية، ونسج الخرافات المناسبة لخيال الأطفال والعجائز عن نبي الإسلام، بما فيها اعترافات المرتدين عن الإسلام، والتي هي أيضاً من صنع الخيال. أقول : إن الباحث عندما يرجع إلى كل ذلك لا يستغرب ذلك الحماس العظيم الذي اندفعت به جحافل الصليبيين نحو بيت المقدس، والقيام بمذابح غير مسبوقة في مهد الديانات السماوية كان المسلمون هم المستهدفين منها.

ومن المعلوم أن هذه الحملة المعادية التي لم يكن لها ما يبرّرها لا في موقف المسلمين من المسيحيين، ولا في تاريخ الإسلام السياسي الذي رأينا أمثلة عديدة منه فيما سبق. وقد كانت الكنيسة البيزنطية هي البادئة بهذه الحملة العدائية، لأن الفتح الإسلامي هدّد امبراطوريتها، ثم انتقلت العدوى إلى الكنيسة الإسبانية كردّ فعل للخوف من اكتساح الإسلام للبلدان التي كانت تحت سلطان الكنيسة. وعندما اندلعت الحروب الصليبية ترسخت في الوعي الأوروبي فكرة الصراع بين الإسلام والمسيحية. وهي فكرة غذتها كل الأحداث التاريخية المتعاقبة، بما فيها قيام الدولة العثمانية بانتزاع شعوب شرقي أوروبا من السلطة المسيحية.

لذلك لا نعجب حينما قامت أوروبا بعد توفرها على كل أسباب القوة المادية والعلمية والعسكرية بشن الغارة على العالم الإسلامي، والتي انتهت باستعماره خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

لكن التاريخ المعاصر الذي أظهر فيه المسلمون قدرتهم على الصمود، وقدرة الإسلام نفسه على استيعاب كل أسباب التطور العلمي والتقدم الاجتماعي والتفاعل الحضاري، تميز أيضاً بالنسبة للإنسانية كلها بتطور بعيد المدى في كل المجالات، ولاسيما مجال التواصل والانتفاح والتأثر الكبير بمعطيات الحضارة الحديثة، فتحول عالمنا إلى قرية كونية، واقتنعت الشعوب والأمم كلها بحتمية ذلك

التواصل والتعاون والحوار بين الثقافات والأديان. ولذلك لم يسع العالم المسيحي أو الغربي إلاّ أن يقر بالهُوية الحضارية للإسلام. فأخذ يبذل المساعي من أجل التقريب بين المسيحية والإسلام على نحو ملموس. وقامت الكنيسة الكاثوليكية منذ سنة 1964 في عهد البابا بولس السادس بإنجاز الخطوات التقريبية الأولى، أعلنت فيها الفاتيكان عن احترامها لكل الأديان السماوية، بما فيها الإسلام[80] وبذلك يمكن القول بأنه قد فتحت صفحة جديدة في تاريخ العلاقة بين الإسلام والمسيحية، نعيشها اليوم، ونتتبع جهودها المحمودة. وهي علاقة تفرضها ضرورة التعاون بين المسلمين والمسيحيين لمواجهة انتشار الإلحاد والتدهور الروحي للإنسان في سياق حضارة مادية، جردت الإنسان من قيمته الروحية.

وإنّ ما ذهب إليه المستشرق مونْتجُمري واتْ Montgomery WATT[81] في أننا نعيش عصر تداخل الأديان لصحيح إلى حدّ بعيد إن كان يعني بذلك قيام التعايش والحوار في ما بينها. فالاستشراف العلمي والنظرة الواقعية للأمور، وللعلاقات الدولية، المحكومة بحتمية التعاون في مواجهة التحديات الكبرى للإنسانية ستساعد كلها على إشاعة ثقافة الحوار والتعايش في ظل احترام كل منا لأفكار الآخر ولمنظوره إلى الأشياء، إن لم نقل إن العلوم ستكشف لنا أين توجد الحقيقة في كل هذه الأفكار، ومعنى ذلك أن الحوار بين الثقافات والأديان والحضارات الثقافية سيأخذ في الاتساع والتعمق لصالح الإنسانية كلها.

الهوامش

1) علم الحضارة المقارن مفهوم مستفاد من إشارة أرنولد تويبني في كتابه «مختصر التاريخ». مبحث الدراسة المقارنة للحضارات. ج -21/1.

2) مؤرخ إنجليزي كبير، متخصص في دراسة تاريخ الحضارات. ومن مؤلفاته المشهورة «مختصر دراسة التاريخ» نقله إلى العربية الأستاذ فؤاد محمل شبل. وطبعته جامعة الدول العربية في أربعة أجزاء سنة 1966.

3) أنظر مختصر التاريخ، الفصل الأول، وحدة دراسة التاريخ، ج.25.1/3.

4) مستشرق روسي، عضو أكاديمية العلوم في سان بتيرسبورغ، ومن المشاركين في دائرة المعارف الإسلامية. من آثاره «تاريخ الحضارة الإسلامية» ، نقله إلى العربية الأستاذ حمزة طاهر، طبعته دار المعارف بمصر 1952.

5) انظر : «تاريخ الحضارة الإسلامية» للمستشرق بارتولد، نقله عن التركية إلى العربية الأستاذ حمزة طاهر. ط/المعرف بمصر 1952.ص.7.

6) مؤرخ من أبرز كتاب الولايات المتحدة الأمريكية. ومن آثاره الهامة كتاب «قصة الحضارة» الذي نقله إلى اللغة العربية في 42 جزءاً الأستاذ محمد بدران، طبعته جامعة الدول العربية 1988.

7) انظر : «قصة الحضارة»، اديورانت، ج.1 (المقدمة).

8) انظر كتابنا «من المنظور الإسلامي». حيث حللنا فيه القيم الإسلامية الثابتة التي قام عليها المنهج الإسلامي في تكوين الأمة وإصلاح المجتمع الإنساني، ط/ دارالثقافة بالدار البيضاء 1990. وانظر أيضاً مقالة الأستاذ عبد الرحيم السايح من مصر، بعنوان : «الحضارة الإسلامية بين الماضي والمستقبل». مجلة اللسان العربي، التي كان يصدرها مكتب التعريب بالرباط، المجلد 1971/8.

9) انظر تفصيل ذلك في كتاب : «الدعوة إلى الإسلام» للمستشرق توماس أرنولد. صفحة 106/87، ط/القاهرة 1957. وكذلك كتاب : «الحضارة الإسلامية» للمستشرق آدم ميتز، تعريب الدكتور عبد الهادي أبي ريدة. ج 56/1.

10) انظر كتاب : «الحضارة الإسلامية» لآدم ميتز. ج.56/1.

11) المقصود هو دعوة النبي ﷺ نصارى نجران للحوار معه كما تروي كتب السيرة النبوية. وفي سياق هذا الحادث نزل قوله تعالى : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ اللَّه ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللَّه فإن تولّوا فقل اشهدوا بأنا مسلمون﴾ (سورة آل عمران، الآية 64). قال المفسرون : إنها نزلت في النصارى واليهود جميعاً. وقد جاءت هذه الآية بعد آية المباهلة، وهي قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند اللّـه كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. الحق من ربّك فلا تكونن من الممترين. فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة اللّه على الكاذبين﴾ . (الآية 59-61 من سورة آل عمران). وقد رفض كبير نصارى نجران العاقب هذه المباهلة، ورضي بالجزية يؤديها عن المسيحيين للمسلمين، وهي ألف راحلة يؤدونها كل عام.

12) راجع كتابنا : «جدل العقل والنقل». الجزء الأول، مبحث نشأة الفكر الإسلامي. صفحات 372 وما بعدها، ط/ دار الثقافة بالدارالبيضاء 1990.

13) انظر «صحيح مسلم» بشرح الإمام النووي. ج.15. ص 116، ط/دار الكتب العلمية، بيروت.

14) انظر كتاب : «حجة اللَّه البالغة» للدهلوي. ط/دار التراث بالقاهرة. ج.128/1.

15) انظر كتاب : «التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في عهد المدينة العلية» الذي طبع بعنوان : «نظام الحكومة الإسلامية» للشيخ العلامة عبد الحي الكتاني، بيروت، ج.371/1 وما بعدها، وسنشير إليه في هذا البحث بعنوانه الأصلي: «التراتيب الإدارية».

16) التراتيب الإدارية ، ج.457/1.

17) نفس المرجع، ص، 458.

18) انظر «باب بناء أمرهم في التعليم على أن يتلقوا العلم ممن وجدوه عنده ولو كان مشركاً»، و«باب الدليل في الطريق»، كتاب التراتيب الإدارية، ج،1/ 348 و 463. والجزء الثاني منه. ص، 66-67.

19) انظر كتاب : «فتح الباري على صحيح البخاري»، ط/ البهية 1348، ج، 12/5-17.

20) انظر كتاب التراتيب الإدارية، ج،427/2. باب من كان يقرأ الكتب القديمة من الصحابة، وانظر أيضاً «فتح الباري»، ج.285/13.

21) انظر كتب : «الإسلام والحضارة العربية» للأستاذ محمد كرد علي. ج، 214/1.

22) أخرج الإمام البخاري في صحيحه، باب قول النبي ' لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، قال أبو هريرة : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال الرسول ' لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا باللَّه وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم. قال ابن عباس : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل على رسول اللَّه أحدث، تقرأونه محضاً لم يشب. انظر «فتح الباري».ج.285/13-286. وأما مجرد الاطلاع ومعرفة الأخبار عن أهل الكتاب فلا بأس به. قال رسول اللَّه ' في ما رُوي عنه : حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج. وقد تضاربت الآراء في تفسير هذا الحديث. انظر عن ذلك كتاب : «التراتيب الإدارية». ج.225/2.

23) ألف الإمام ابن تيمية كتابه : «الجواب الصحيح على من بَدّل دين المسيح» في هذا الموضوع. وأظهر فيه اطلاعاً واسعاً على معتقدات الفرق النصرانية، بالرجوع إلى كتبهم. طبع في أربعة أجزاء بدون تاريخ.

24) انظر كتاب : «التراتيب الإدارية».ج.348/2.

25) انظر كتاب : «التراتيب الإدارية» للشيخ عبد الحي الكتاني.ج.265/2-266.

26) انظر كتاب : «الحضارة الإسلامية» للمستشرق بارتولد. ص. 34.

27) انظر كتاب : «التراتيب الإدارية».ج.48/2.

28) انظر كتاب : «الإسلام والحضارة» لمحمد كرد علي.ج.167/1. وكان الشيخ عبد الحي الكتاني قد ردَّ على المؤرخ ابن خلدون حين قال: إن العرب ظلت على بداوتها في صدر الإسلام، ولم تأخذ بالعلوم والصنائع إلاّ في العصر العباسي. انظر كتاب: «التراتيب الإدارية» .ج.269/2.

29) مستشرق إنجليزي كبير. كان أستاذاً بجامعة عَليگَرة بالهند، وأستاذاً للفلسفة بجامعة لاهور. وكان أول من احتل كرسي الأستاذية بقيم الدراسات العربية بمعهد اللغات الشرقية بلندن. وكتابه : «الدعوة إلى الإسلام»، وهو بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، من أهم الكتب التي وقفنا عليها، وتتسم بالنظرة الثاقبة والاعتدال والإنصاف وسعة الاطلاع. ترجمه إلى اللغة العربية الأساتذة : حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي، طبع بمكتبة النهضة المصرية سنة 1957.

30) انظر كتاب : «الدعوة إلى الإسلام» لِ سير توماس أرنولد.ص.81-82.

31) انظر كتاب : «الدعوة إلى الإسلام»، ص 124 نقلاً عن طبقات ابن سعد. ج.213/5.

32) انظر بحث الدكتور أسعد حومد «المستعربون الإسبان في ظل الحكم الإسلامي». مجلة اللسان العربي الصادرة بالرباط. مجلد 1969/6. ص. 307 وما بعدها.

33) مستشرق إنجليزي، (1881-1973) كان أستاذاً بجامعة عليگَرة بالهند، وبمعهد الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن. وكان متخصصاً في الفقه والتاريخ الإسلاميين. من أهم كتبه: «الخلفاء ورعاياهم من غير المسلمين». أصدره سنة 1930، ونقله إلى العربية حسن حسني. طبع بالقاهرة 1969.

34) انظر كتاب : «الدعوة إلى الإسلام» لِ سير توماس أرنولد. ص. 98 -99.

35) انظر كتاب : «الإسلام والحضارة العربية».ج.167/1 وما بعدها.

36) انظر كتاب : «الإسلام والحضارة الإسلامية» لآدم ميتز. ج.80/1 - 82.

37) نفس المرجع. ج.64/1.

38) نفس المرجع. ص.67.

39) نفس المرجع. ص.70/69.

40) مرجع اعتبار المجوس مُلحَقين بأهل الكتاب أن الرسول ﷺ كان قد صالح مجوس هجر من بلاد العرب على أساس الجزية كالنصارى. وصالح أهل البحرين كذلك على الجزية وهم من المجوس. وأخذ عمر ابن الخطاب بهذا الأمر، وكذلك عثمان بن عفان. انظر كتاب : «الأموال» لأبي عبيد القاسم بن سلاّم المتوفى سنة 224. حققه عبد الأمير علي مهنا. ط/ دار الحداثة بيروت 198. ص. 39– 44.

41) انظر كتاب : «الحضارة الإسلامية» لآدم ميتز.ج 61/1 وما بعدها.

42) نفس المرجع. ج.69/1.

43) نفس المرجع. ج.312/2 وما بعدها.

44) نفس المرجع. ص.315 وما بعدها.

45) مستشرق ألماني (1869-1917)، كان أستاذاً للغات السامية بجامعة بالْ بسويسرا، وتخصص في أدب العصر العباسي وحضارته وتاريخه. وكتابه: «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري». من أهم المراجع عن هذا العصر، نقله إلى العربية المرحوم الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة في جزأين. طبع بالقاهرة 1940.

46) انظر المرجع السابق. ص. 374 وما بعدها.

47) انظر كتاب : «الإسلام وحضارته» للمستشرق الفرنسي أنْدري ميكيل ، عربته الأستاذة زينب عبد العزيز. ط/المكتبة العصرية ببيروت 1981. ص.181.

48) انظر «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع» ج.48/1 وما بعدها، والدعوة إلى الإسلام، ص. 81–82.

49) المرجع السابق. ص 85–87.

50) اختلفت آراء الفقهاء الأولين حول هذه الظاهرة في أسلوب القرآن، فمنهم من أنكر أن يكون القرآن استعمل الألفاظ العجمية. ومن هؤلاء الإمام الشافعي. ومنهم من قال : إنّ ما ورد فيه من تلك الألفاظ إنما هو من قبيل التوارد. ومن هؤلاء الإمام الطبري. ومنهم من قال: إنما ورد من تلك الألفاظ جاء بعد استعمالها وقتاً طويلاً، فأصبحت بمثابة ألفاظ عربية. وهذا هو الصحيح، لأن اللغات جميعها تتقارض ويأخذ بعضها عن بعض بحكم الاختلاط الاجتماعي والتأثر الثقافي، ويرجع للوقوف بتفصيل على هذه المسألة في كتاب : «الإتقان في علوم القرآن» للإمام السيوطي. ج.285/1.

51) انظر «الدعوة إلى الإسلام»، ص.67 وما بعدها، وصفحات 157 وما بعدها.

52) انظر مقالة الأستاذ سامي الحفار الكزبري بمجلة اللسان العربي، المجلد 1970/7 بعنوان: «أثر اللسان العربي في اللغة الإسبانية»، ص. 155 وما بعدها، حيث يحلل ظواهر هذا التأثر. أما بخصوص تأثير اللغة العربية في الفارسية فينظر بحث الأستاذ محمد التونجي «نظرة في الصلات العربية والفارسية» مجلة اللسان العربي المجلد 1971.8، صفحات 159 وما بعدها.

53) انظر كتابه : «مروج الذهب»، تحقيق المستشرق الفرنسي شارل بيلاّ، طبعة بيروت، ج.212/5.

54) انظر كتاب : «الدعوة إلى الإسلام» ، ص.105.

55) انظر : «الإسلام والحضارة العربية» ج.1/ 222– 223.

56) نفس المرجع، ص.241.

57) گوسْتاف ڤون گْرِينْباوْم مستشرق نمساوي معاصر، شغل منصب أستاذ بجامعة نيويورك 1938 وجامعة شيكاغو 1943، وجامعة كاليفورنيا 1957. كان أستاذاً للتاريخ الإسلامي وللشرق الأدنى. وله مؤلفات عديدة مهمة في مجال تاريخ الأدب العربي والحضارة الإسلامية.

58) انظر كتابه : «حضارة الإسلام» ترجمه إلى العربية الدكتور عبد العزيز توفيق جاويد. الهيأة العامة للكتاب سنة 1994.ص.421.

59) نفس المرجع، 423.

60) نفس المرجع، 426.

61) نفس المرجع، 427.

62) نفس المرجع، 432.

63) نفس المرجع، 435.

64) مستشرق إيطالي معاصر، تخصص في التأريخ للحركة العلمية عند المسلمين، ومن أهم كتبه في الموضوع: «العلم العربي وأثره في تطور العلم العالمي»، نشره مع إضافات هامة لعدد من المستشرقين. نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار والدكتور محمد يوسف موسى، طبع بالقاهرة سنة 1962.

65) انظر العلم العربي وأثره في تطور العلم العالمي. ص.11.

66) المقصود هنا المفكر الأمريكي صمْويل هانْتِنْتون، أستاذ الدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفارد الذي قال بنظرية «صدام الحضارات» . وانظر تحليلنا لهذه النظرية في كتابنا: «من تساؤلات عصرنا»، ص. 118–119، ط/النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2001.

67) انظر كتاب : «أثر الشرق في الغرب»، للمستشرق الألماني جورج يعقوب (-1937)، وقد رجعت إليه للاطلاع على تفاصيل المؤثرات الشرقية في الحضارة الغربية. قد ترجم هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ فؤاد حسين علي، وطبع بالقاهرة سنة 1946. انظر صفحات 21 وما بعدها.

68) انظر كتاب : «تراث الإسلام». تصنيف المستشرق الألماني شاخْت (1902-1969) وزملائه. ويُعد هذا المستشرق من أكثر المستشرقين اطلاعاً على الفقه الإسلامي، وقد نشر هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء، سلسلة كتب عالم المعرفة بالكويت 1978. انظر الجزء الثالث، ص، 139– 140.

69) راجع ما ذكره المستشرق جورج يعقوب في كتابه: «أثر الشرق في الغرب في موضوع الصفر». وانظر «مادة الصفر في لسان العرب»، حيث يورد ابن منظور أمثلة من الأدب الجاهلي تدل على أصالة لفظ الصفر في اللغة العربية. وقد ذكر أن الصفر في حساب الهند هو الدائرة. انظر لسان العرب، ج.461/4 وما بعدها. وما ذكر الدكتور أحمد محمد عثمان، حين قال: إن العرب ترجمت كلمة «SANYA» . الهندية بمعنى الفراغ. ثم صارت تسمى الصفر، وكانت قد ترجمت إلى اللاّتينية بلفظ «CEPHIRUM» وعرفت في اللغات الأوروبية الحديثة كلها بألفاظ «ZERO - ZERO» وهي كلمات تعني الرقم الغريب (؟). رأي غير مدعوم بالدليل ولذلك اعتبره غريباً ولاسيما حين يقول: إن الصفر ظل سراً غامضاً يصعب على عامة الناس فهمه. انظر بحثه بعنوان: «دور العرب في النهضة الأوروبية الحديثة». محاضرات الموسم الثقافي لمؤسسة الثقافة والفنون بأبي ظبي 1993، ص.64 وما بعدها.

70) مستشرق روسي معاصر، متخصص في تاريخ العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب والمسيحية والإسلام، وأستاذ في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية. ومن كتبه الهامّة: «الإسلام والمسيحية» الذي عربه الأستاذ خلف محمد الجراد. سلسلة عالم المعرفة بالكويت 1996.

71) انظر كتاب : «الإسلام والمسيحية» أليكس جورافسكي (المعرّب) ،ص.53.

72) انظر كتاب : «الإسلام والحضارة العربية»، ج.219/1.

73) مستشرق فرنسي (-1867)، كان أستاذاً للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وعضواً في المعهد العلمي بها. وله تصانيف ذات أهمية مرجعية. منها كتابه: «غزوات المسلمين في أوروبا»، نشره سنة 1836.

74) انظر : «الإسلام والحضارة العربية»، ج.221/1.

75) انظر : «تراث الإسلام» لشاخت، ج،52/1.

76) انظر : «الدعوة إلى الإسلام» .ص.104-103.

77) نفس المرجع. ص. 104.

78) انظر : «الإسلام والمسيحية» ص، 46 وما بعدها.

79) أعطى المرجع السابق عرضاً مفصلاً عن الصورة النمطية السائدة في الكتابات الكنسية عن الإسلام، وعن رسول الله ﷺ في العصر الوسيط. ص، 67 – 92.

80) المرجع السابق، ص. 137 وما بعدها.

81) انظر كتاب : «الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر للمستشرق مونتگُمري واتْ. عرَّبه الأستاذ عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، ط/ الهيأة العامة للكتاب بمصر 1998، ص. 27 وما بعدها.

مدلول النظام العام في التصرّف القانوني

إدريس العلوي العبدلاّوي

أولا : النظام العام وحسن الآداب

النظام العـــــام والآداب (l'ordre publique et les bonnes mœurs) فكرة تستعصي طبيعتها على التحديد، ويمكن أن يقال في شيء من التعميم والتقريب إن النظام العام هو كل ما يمس كيان الدولة أو يتعلق بمصلحة عامة أساسية من مصالحها، وسواء في ذلك أكانت هذه المصلحة سياسة أم اجتماعية أم اقتصادية. ويراد بالمصلحة العامة كل أمر يتعلق بالنظام الأساسي للمجتمع بحيث يرجح على كل مصلحة فردية. ومن ثم وجب على جميع الأفراد أن يحترموا كل ما يتعلق بالنظام العام، حتى ولو كان في ذلك تضحية بمصالحهم الخاصة، فإذا هم خرجوا على هذا النظام باتفاق خاص وقع هذا الاتفاق باطلا عديم الأثر.

وقد تكون المصلحة العامة سياسية، كما هي الحال بالنسبة إلى كل ما يتعلق بتنظيم الدولة وطريقة مباشرة سيادتها بوساطة سلطاتها المختلفة. وقد تكون هذه المصلحة اجتماعية، كما هي الحال بالنسبة إلى تنظيم الأسرة وما يتعلق بكفالة استتباب الأمن والنظام في الدولة. وقد تكون هذه المصلحة اقتصادية، كما هي الحال بالنسبة إلى تنظيم الإنتاج القومي في الدولة وتداول

النقد فيها ، وقد تكون أخيرا هذه المصلحة خلقية، ككل ما يؤدي إلى صيانة الأخلاق الحميدة في الدولة، وهذا ما يطلق عليه حسن الآداب (bonnes mœurs).

وليس من الممكن إطلاقا أن نحصر الأمور التي تدخل في نطاق النظام العام. ومن ثم لم يكن هناك مفر من أن نترك زمام الأمر لفطنة القاضي، الذي يقدر، بمناسبة كل حالة، ما إذا كان محل الالتزام أو سببه يتمشى مع النظام العام أو ما يخالفه، وعلى القاضي أن يهتدي في ذلك بصالح الجماعة. على أن يلتمس ضوء تلك الهداية في المبادئ العامة التي تسود في بلده، لا أن يبحث عن ذلك الضوء في قريرة نفسه هو، لكي يكيف النظام العام بحسب ما يراه هو مثلا أعلى لما يجب أن تكون عليه الأمور في بلده. وبعبارة أخرى على القاضي، وهو في سبيل تحديد ما إذا كان أمر ما يتفق مع النظام العام أم يخالفه، أن يهتدي بمعيار مادي يتلمسه في ذات البيئة التي يعيش فيها، لا أن يهتدي بمعيار شخصي يرسمه له تفكيره ومثله العليا.[1]

من هذا يبين أن النظام العام هو المبادئ القانونية التي لا يمكن للأفراد مخالفتها، وإن خالفوها كان جزاء تصرفهم هو البطلان. ولم نقصد من كل هذا أن نضع تعريفا للنظام العام، وإنما مجرد تقريب فكرته إلى الأذهان. ففكرة النظام العام في الحقيقة فكرة واسعة مرنة، يعوزها التحديد، لدرجة أن استعصت حتى الآن على أن يجد لها الفقهاء تعريفا جامعا مانعا. وقد عبر البعض عن تلك الحقيقة بقوله : «إن النظام العام يستمد عظمته من ذلك الغموض الذي يحيط به. فمن مظاهر سموه أنه ظل متعاليا على كل الجهود التي بذلها الفقهاء لتعريفه».

لقد أثارت فكرة النظام العام جدلا واسعا بين فقهاء القانون الوضعي، واختلافا بيّنا في آرائهم ، ولم تتفق آراؤهم على بيان مداه.

فالعالمان (لأوبري وَ رو)، لم يقدما لنا شيئا نعرف منه النظام العام، وكل الذي يمكن أن ننقله عنهما أنهما يريان أن النصوص الآمرة والناهية لا يمكن مخالفتها من قبل المتصرفين[2] ومعنى هذا أن هذه الصيغ معيار للنظام العام.

أما (ديبمولومب)[3] فيميز بين القانون العام الذي غايته المباشرة أو غير المباشرة النفع العام، وبين القانون الخاص الذي غايته منفعة خاصة للأفراد، وهو لا يهم النظام العام بينما الأول يهم النظام العام. والحقيقة أن هذه الفكرة لا تعطي شيئا واضحا عن النظام العام، لأن التساؤل سيبقى مطروحا عن ما هو النفع العام.

وأما (هنري) فقد أقام نظرية النظام العام على فكرة حماية الحقوق وتحديدها، وعنده أن الحماية والتحديد هو الدور المزدوج (le double rôle) لفكرة النظام العام. ففي كل نظام اجتماعي مؤسس تأسيسا جيدا يكون تحديد الحقوق ليس بأقل أهمية من ضمان مباشرتها. وفكرة النظام ليست بسيطة بل توجد فيها عناصر من طبيعة مختلفة، بعضها ثابت لا يتأثر بالظروف الخاصة بتطور المجتمع ذاته. وبعضها قابل للتأثر بهذه الظروف.

والنوع الأول يقدمه القانون باسم النصوص الآمرة والناهية. ويُسمي (ماسون) النصوص الآمرة بالمثبتة، وهي إما مثبتة لمبادئ آمرة، وإما لقرارات (décision impérative)، ويقسم النصوص الناهية إلى مانعة ومقيدة للحق.

وأما تقييد الحق في النصوص الناهية فمعناه أنه عند إساءة استعمال الحق يمنع صاحبه من استعماله بشكل يضر بالغير.[4]

إن هذا التقسيم الذي اختاره (ماسون) تقسيم تحكمي، وإن كانت أصل الفكرة التي تقول إن النصوص الآمرة والناهية هي التي تدل على النظام العام فكرة صحيحة. فمن التحكم القول أن النصوص التي تعطي المبادئ تختلف عن النصوص التي تدل على القرارات الآمرة. والصحيح أن كلا النوعين يعطي مبادئ قانونية واحدة . كما أنه تحكمي كذلك حصر صيغ النهي بالمنع في إقامة الدعوى وتقييد الحق.

كما أن هذا التقسيم يُشعِر بأن ماعدا الصيغ التي ذكرها لا تدخل في النصوص التي تدل على النظام العام. والحقيقة أن المشرّع لم يلتزم صيغا معينة للدلالة على النصوص التي تهم النظام العام. وإن كان الغالب هو ما ذكره «ماسون».

والذي يعاب على نظرية ماسون كذلك أنه جعل طرق تفسير النصوص على النظام العام المتغير. فقد جعل الطريقة الاستقرائية والطريقة الاستنتاجية تدلان على النظام العام. لأن كل واحدة منهما تثبت قواعد قانونية تهم النظام العام.

وأخيرا فإن الأساس القانوني لنظرية «ماسون» لا يمكن التسليم به. فليس صحيحا أن النظام العام هو التحديد والحماية. فليس صحيحا مثلا أن السلطة الأبوية أو الزوجية وحرية التعاقد أصبحت من النظام العام لأن طبيعتها التحديد والحماية. بل لأن المشرّع أراد لها أن تكون كذلك.

كما أن التحديد والحماية موجودان في النصوص التي لا تعدّ من النظام العام. لأن طبيعة القانون تحديد الحقوق. ويأتي حفظ أو حماية الحقوق نتيجة لهذا التحديد. فالعقد يحدده القانون بنصوصه وبالشروط التي يضعها الطرفان. وتكون نتيجة هذا التحديد حماية الالتزامات المتقابلة من العبث بها من أطراف التصرف القانوني.

وعلى هذا يكون «ماسون» قد خلط في نظريته بين غاية النصوص القانونية ونتيجتها والنظام العام. والحقيقة أنه لابد لإقامة نظرية النظام العام من الاعتماد على النصوص ذاتها، دون أن ندخل في حسابنا غاية النص والنتيجة التي يؤدي إليها، لأن الغاية والنتيجة تتساوى فيهما كافة النصوص القانونية أي النصوص الخاصة بالنظام العام والنصوص التي لا تمتُّ إليه من حيث الأصل.

ويقسم الفقيه «كابيتان» النصوص إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : وهو القسم الأعظم، نصوص تفسيرية لإرادة الطرفين. والقسم الثاني هو النصوص الآمرة والناهية، والقسم الثالث نصوص تنظيمية dispositives [5].

1) النصوص التفسيرية

وهي النصوص التي يمكن للأفراد أن يستبعدوا تطبيقها ليضعوا غيرها، تطبيقا لمبدأ سلطان الإرادة، وهي ما تسمى عند أغلب الفقهاء بالقواعد المقررة أو المكملة أو المفسرة أو المتممة، إذ إن هذه القواعد لا صلة لها بالنظام العام.

2) النصوص الآمرة والناهية

يتضمن القانون بجانب النصوص التفسيرية نصوصا آمرة ملزمة (obligatoire)**.** والبواعث (les motifs) التي تحدو بالمشرّع لفرض هذه القواعد هي: ضمان صيانة النظام العام، يعني النظام الضروري للتنظيم الاجتماعي واحترام الآداب. وحفظ الأشخاص من الأضرار التي تحصل بدون وجه حق (immérité) التي يمكن أن يسببها المتصرف في بعض الظروف.

هذا النوع الثاني من النصوص يجب أن يكون بالضرورة نصوصا آمرة، لأنه من الواضح أن هذا الأسلوب يفقد غايته إذا كان من الممكن استبعاده بإرادة العاقدين.

ويرى «كابيتان» أنه توجد في الصيغ الآمرة والناهية مواد كثيرة جدا غايتها إيجاد طريقة لحماية الحقوق.

ويخلص «كابيتان» إلى أن النصوص الآمرة من القانون الخاص هي إما نصوص من النظام العام، أو نصوص لحماية المنفعة الخاصة (intérêt privé).

أولاً : النصوص التنظيمية : (les lois dispositives)

تتعلق هذه النصوص بمواضيع لا يكون للإدارة أي دور فيها. فقد تظهر في الحياة القانونية مسائل لا يكون لإرادة المتعاقدين أن تقطع فيها برأي لأنها تظهر في شكل نزاع (conflit) بين منافع شخصين لم يكونا متعاقدين. بمعنى أن هذا النزاع يرجع إلى مصالح خاصة. ولأجل حل الأمر يقارن المشرّع بين هذه المصالح ويوازن بينها ثم يعطي الرجْحان الذي يظهر أنه أحق بالحماية. هذه الأوامر (prescription) القانونية، المستوحاة من اعتبارات العدالة، تكوّن نوعا يتميز عن النوعين الأولين. فهي ليست مفسرة ولا آمرة لأنها تنتظم المسائل التي تحصل بين الأشخاص الذين لم يتعاقدوا في ما بينهم.

ورغم أن الفقيه «كابيتان» وضع هذه القواعد موضعا متميزا عن النوعين السابقين إلا أنه لم يذكر لنا ما هي طبيعة هذه النصوص. اللهم إلا أن يفسر ذلك على أنه ما دامت توجبها قواعد العدالة فهي من النظام العام.

وأخيرا نرى "كابيتان" يعرف النظام العام بأنه النظام في الدولة، يعني تنسيق للنظم، وتنظيم للقواعد القانونية التي هي ضرورة للدولة في استعمالها وعملها. فكلمة النظام العام تدل على فكرة تنظيم منطقي وعلى فكرة التدرج في النظم التي تعطي إلى المجموع الوحدة والحياة.

"on peut définir l'ordre public, l'ordre dans l'Etat, c'est à dire l'arrangement des institutions, l'organisation des règles qui sont indispensables à l'exercice et au fonctionnement de l'Etat. Le mot ordre public, en effet, est l'idée d'une disposition logique, d'une subordination qui donne à l'ensemble l'unité et la vie".

ويلاحظ على التقسيم الذي قال به الفقيه «كابتان» أنه جعل النصوص القانونية الآمرة نوعين، نوع يعدّ من النظام العام، ونوع لا يعدّ منه، وسماه : «نصوصٌ لحماية المصالح الخاصة» (lois de protection d'intérêts privés) ومع

ذلك لم يعط حكما معينا لكل قسم، ولم يذكر كيف يمكن معرفة ذلك. كما أن مما يلاحظ على نظرية الفقيه «كابيتان» جَعلُه النصوصَ التنظيمية خارجة عن النصوص الآمرة والناهية ، مع أنها داخلة فيها.

والملاحظة التي يمكن أن توجه للتعريف الذي قدمه الفقيه «كابيتان» للنظام العام هو أنه عرّف النظام العام بالنتيجة القانونية المتوخاة من النظام العام. أي أنه لم يعرّف النظام العام مباشرة، يضاف إلى ذلك أن التعريف الذي قدمه يتسم بالغموض والإبهام، فهو يشمل كل نوع من أنواع التنظيم في دولة ما، كما يشمل النصوص التي سماها بالمفسرة.

كما أن التعريف لم يتضمن كذلك المعيار الذي توزَن وتقاس به هذه النظم القانونية، فمتى تكون غاية القانون قيام النظام بالدولة، ومتى يكون المراد منه أن يحكم علاقة الأفراد المالية ؟ هل يترك ذلك لرأي القاضي أم أن القاضي لا رأي له في هذا المجال ؟ ثم ما هو المدى المسموح به للقاضي أن يدخل نصا في النظام العام للدولة أو يخرجه منه ويدخله في علاقات الأفراد المالية ؟ ولا يخفى أن ترك المعيار الأصلي في هذا الشكل مشوبا بالغموض والإبهام يجعل حقوق الأفراد والواجبات الملقاة على عاتقهم خاضعة للأهواء[6].

ويرى الفقيه فاريي سوميير[7] (Varilles Soummières) أن النصوص القانونية كلها تهم النظام العام، ولا يمكن مخالفة أي قانون. وقد اعتمد في تأييد رأيه على اللغة الدارجة في أن النظام العام يدل على الأمن العام، كما أنه في تبرير نظريته تمسك بمنطق الفلسفة. ويقول إن النظام العام فيها معناه الترتيب المعقول لكل الأشياء في الشعب (la disposition rationnelle dans un peuple) وأن هذا الترتيب لا يحصل إلا بشرطين : أن ترشد القانون إلى هذا الترتيب، وأن تكون مطاعة. ويستخلص من وجوب احترام القوانين وطاعتها أن كل نصوص القوانين تؤثر في حياة المجتمع، وكل مخالفة لها تتضمن اعتداء على النظام العام.

ويلاحظ أن هذه النظرية تفترض أن تغيير النظام العام يتضمن نفس المعنى في الفلسفة والقوانين، والكلمات والمصطلحات تتغير غالبا بحسب المواضيع التي تستعمل فيها. فالقانون الذي هو علم من العلوم له قاموسه القائم والمستقل بنفسه، فالذي يعتقد مثلا أنه كوّن لنفسه فكرة محددة عن نظرية الالتزامات التضامنية من دراسته العميقة للتضامن الأخلاقي (la solidarité morale) يكون قد أخطأ خطأ جسيما. والأمر كذلك بالنسبة لتحليل ما وراء طبيعة النظام العام فقد لا يمكن أن تنكشف أسرار النظام العام، إذ إن كلا المجالين مختلفان، والحقيقة أن القانون قد وُجد لتستفيد منه العامة (la loi est faite à l'usage du public)، وبموجب بعض الشروط يستطيع الكل التمسك به، لأنه طالما يخاطب أفراد الجماعة فوجوده يهم المجموع، والجماعة لا يمكنها أن تعيش بدون قانون ينظم الحياة داخلها، كما أن القانون لا يمكنه أن يؤدي الوظيفة التي وجد من أجلها دون قضاء، كما أن القضاء لا يمكنه أن يؤدي وظيفته دون قانون ينظم أصوله وأوضاعه، فلا جماعة بدون قانون، ولا قانون بدون قضاء، ولا قضاء بدون قانون ينظم طريقة الالتجاء إليه وإجراءات الفصل في المنازعات.

إن المقصود بالنظام العام هو المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام المجتمع في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية، وهذا هو التعريف الذي يقدمه الفقه، ولكنه تعريف يكشف عن أن فكرة النظام العام لا يمكن أن تكون معيارا دقيقا يمكن استخدامه للكشف بسهولة عن نوع القواعد القانونية، وعن مدى اتصالها بمقومات الدولة الأساسية ومصالحها العامة. وإذا كانت فكرة النظام العام والآداب على هذا النحو من المرونة والتطور، فإنها تعتبر المنفذ الذي تدخل منه العوامل الاجتماعية والاقتصادية والخلقية إلى النظام القانوني، كي تلائم بينه وبين التطور الذي تعرض له المجتمع في وقت معين، وفي غير الحالات التي يتدخل فيها الشارع بمقتضى نصوص يأخذ فيها بمقتضيات هذا التطور، تقع على عاتق القاضي مهمة تحقيق هذه الملاءمة. فالقاضي يكاد يكون شارعا في

هذا النطاق، وعليه أن يستلهم المصلحة العامة ويتقيد بالنظم والآداب السائدة في المجتمع. فلا يُعول على آرائه ومعتقداته الخاصة، وإنما يراعي ما تدين به الجماعة. ومن ثم كان الفصل فيما إذا كانت قاعدة معينة تتعلق بالنظام العام أو الآداب مسألة قانونية يخضع فيها قاضي الموضوع لرقابة محكمة النقض.

ثانياً : تغير دائرة النظام العام بتغير المكان والزمان

إن فكرة النظام العام تضيق وتتسع تبعا للأفكار السائدة في المجتمع. فهي تنحصر في أضيق الحدود في ظل المذاهب الفردية التي تقدس حرية الفرد وتقدم مصلحته على مصلحة المجموع، بينما تتسع في ظل المبادئ الاشتراكية التي تضع مصلحة المجموع في المقام وتضحي في سبيلها بالمصلحة الفردية.

وهكذا يلاحظ أن دائرة النظام العام تضيق إذا تغلبت نزعة المذاهب الفردية، هذه المذاهب تطلق الحرية للفرد، فلا تتدخل الدولة في شؤونه، ولا تحميه إذا كان ضعيفا، ولا تكبح جماحه إذا كان قويا. فإذا تغلبت النزعة الاشتراكية ومذاهب التضامن الاجتماعية اتسعت دائرة النظام العام، وأصبحت الدولة تقوم بشؤون كانت تتركها للفرد، وتتولى حماية الضعيف ضد القوي، بل هي تحمي الضعيف ضد نفسه. ولا نستطيع أن نحصر النظام العام في دائرة دون أخرى، فهو شيء متغير، يضيق ويتسع حسب ما يعدّه الناس في حضارة معينة مصلحةً عامةً. ولا توجد قاعدة ثابتة تحدد النظام العام تحديدا مطلقا يتمشى على كل زمان ومكان، لأن النظام العام شيء نسبي. وكل ما نستطيعه هو أن نضع معيارا مرنا يكون معيار «المصلحة العامة». وتطبيق هذا المعيار في حضارة معينة يؤدي إلى نتائج غير التي نصل إليها في حضارة أخرى.

من كل ما سبق يبين لنا أن دائرة النظام العام ليست ثابتة لا تتغير محتوياتها ولا تتبدل، وإنما هي متغيرة، ففكرة النظام العام هي فكرة نسبية

متطورة، إذ هي تختلف باختلاف الفكرة السائدة في كل بيئة وفي كل عصر. فكثير من ضروب التعامل التي كانت تعتبر صحيحة في الماضي بل وإلى عهد قريب، أصبحت اليوم مخالفة للنظام العام في ظل التنظيمات الحديثة التي تدخّل فيها الشارع بنصوص آمرة لا تجوز مخالفتها. والرقّ الذي كان مباحا من قبل أصبح اليوم مخالفا للنظام العام. والتأمين على الحياة الذي كان مستهجنا لمخالفته للآداب أصبح اليوم مقبولا. وكذلك الحال بالنسبة إلى الوساطة في الزواج.

ومن الطبيعي أن تكون فكرة النظام العام متغيرة بحسب المكان والزمان، لأنها تقوم على اعتبار مصالح الجماعة الأساسية، سياسية كانت هذه المصالح أم اجتماعية أم اقتصادية أم أخلاقية، ومصالح الجماعة تتأثر بظروفها الخاصة، التي هي دائما متغيرة. وهكذا فما يخالف النظام العام في بلد معين قد لا يخالفه في بلد آخر، فتتعدد الزوجات يقع مخالفا للنظام العام في البلاد الأوربية، ومن ثم يقع باطلا كل اتفاق يستهدف هذا التعدد. ولكن تعدد الزوجات يعتبر مسموحا به في المغرب مثلا وفي غيره من البلاد الإسلامية بالنسبة إلى المسلمين وذلك وفق الأنظمة القانونية المعمول بها، ويقع باطلا كل اتفاق يستهدف تقييد حرية الرجل المسلم في السير وفق هذا النظام. وهكذا نلاحظ أن معنى النظام العام يختلف من جماعة إلى أخرى ومن زمن إلى آخر، ويتحدد في ضوء نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وعلى الخصوص في ضوء الفلسفة التي تعتنقها هذه الجماعة.

وعلى أي حال فإن عدم انضباط فكرة النظام العام كمعيار للتفرقة بين القواعد التي لها مساس به وتلك التي لا صلة لها به، وعدم ثبات هذه الفكرة، لا يعني انعدام كل فائدة لها، ذلك أن القضاء يتخذ منها أساسا للبحث الذي يقوم به في كل حال على حدة، ولمعرفة ما إذا كان الأمر يتعلق بالنظام العام أو لا يتعلق به، وله في ذلك سلطة واسعة في التقدير. وهو يحكّم في هذا التقدير المفاهيم والمثل السائدة في الجماعة.

ثالثاً : حسن الآداب

يُقصد بحسن الآداب قواعد الأخلاق الحميدة التي تدين بها الجماعة في بيئة معينة وفي وقت معلوم. وقد عرّفها الأستاذ السنهوري[8] بقوله : «الآداب في أمة معينة وفي جيل معين هي مجموعة من القواعد وجد الناس أنفسهم ملزمين باتباعها طبقا لناموس أدبي يسود علاقاتهم الاجتماعية. وهذا الناموس الأدبي هو وليد المعتقدات الموروثة والعادات المتأصلة وما جرى به العرف وتواضع عليه الناس، وللدين أثر كبير في تكييفه».

وتجدر الإشارة إلى أنه كلما اقترب الدين من الحضارة، ارتفع المعيار الخلقي، وزاد التشدد فيه. ومن هنا نرى أن العوامل التي تكيف الناموس الأدبي كثيرة ومتنوعة. فالعادات والعرف والدين والتقاليد، ميزان إنساني يزن الحسن والقبيح، ونوع من الإلهام البشري يميز بين الخير والشر، كل هذه العوامل مجتمعة توجد الناموس الأدبي الذي يخضع الناس له، ولو لم يأمرهم القانون بذلك.

إن المقصود بالأخلاق مجموعة المبادئ والأفكار التي تدور حول معنى الخير ومعنى الشر، أي هي نظرية الخير والشر. كما يقصد بها المجموعة التي تحكم أفعال الإنسان وتقومها على أساس ما تنطوي عليه من خير أو شر فتحض على فعل الخير وتنهى عن ارتكاب الشر.

وإن الحكم على فعل من الافعال بأنه خير أو شر لا يمكن أن يقوم إلا على حقيقة ما يقصد به، أي لا يمكن أن يؤسس إلاَّ على النوايا والأفكار. ولذا فإن الأخلاق تتجه بأوامرها ونواهيها على الخصوص إلى هذه الناحية، أي إلى ما يسمى بالنشاط الداخلي للإنسان، وهدفها أن تجعل من كل فرد إنسانا فاضلا مفعم النفس يحب الخير عازفا عن الشر.

والأخلاق إذ تتناول سلوك الأفراد بالتنظيم، فإن أحكامها تمتد إلى كل صور النشاط الإنساني، داخليا كان أو خارجيا، مما يعني أن قواعد الأخلاق تعمل في

النطاق الذي يعمل فيه القانون بالإضافة إلى ما لها من مجال عمل تنفرد به، هو النشاط الداخلي أو الباطني.

ولكن الأخلاق في تناولها لسلوك الأفراد، تعول فيما تحكم به على هذا السلوك تعويلا كبيرا على البواعث إلى هذا السلوك أو القصد منه، أي أنها لا تتناول السلوك إلا باعتباره مظهرا للنوايا والأفكار.

وإذا كان الحكم الخلقي مرتبطا، وفي كل الأحوال بالحال الذهنية أو النفسية للفرد، وما دامت هذه الحال من الأمور التي يمكن أن يقام الدليل الملموس عليها، أي ما دامت حقيقة النوايا والأفكار لا يمكن أن تعرف معرفة أكيدة بالوسائل البشرية، فلم يكن من الممكن أن يفرض هذا الحكم بجزاء يتمثل في رد فعل خارجي ومادي، تقوم به الجماعة ضد مخالف الأخلاق، أي لم يكن من الممكن أن يفرض حكم الأخلاق فيما يحسه مخالف هذه القواعد من تأنيب الضمير، وما يقابله السلوك غير الحقيقي من نفور الجماعة واستنكارها.

وإذا كان القانون يتجه مباشرة إلى تنظيم العلاقات الاجتماعية، بوضعه الأحكام للأفعال والمواقف، فإنه لا يُعنى بالنوايا والأفكار إلا باعتبارها تابعة لهذه الأفعال والمواقف، بل إنه لا يتناول بالتنظيم كل ما يعتبر من الأفعال والمواقف من نشاط الإنسان، وإنما يختار من هذه الأفعال ما تبدو الحاجة إلى ضرورة التزامه من كل الأفراد تحقيقا للنظام، وما تحس الجماعة بأن لها من إمكانيات ما يعينها على فرضه بالقسر إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

وتجدر الإشارة إلى أن كثيرا من صور النشاط الظاهر للأفراد يدخل في مجال كل من القانون والأخلاق في نفس الوقت، وغالبا ما يكون حكمهما فيه واحدا، فيكون الفعل أو السلوك مأمورا به أو منهيا عنه في كل من قواعد الأخلاق وقواعد القانون. ولكن يبقى للأخلاق بعد ذلك مجالها الخاص في حكم الأفكار والعواطف التي ليس لها مظهر خارجي، كما يبقى للأخلاق مجالها الخاص أيضا

في المجال السلوكي الثانوي الأهمية الذي لا يقتضي تحقيق النظام في العلاقات الاجتماعية امتداد حكم القانون إليه.

ويرى الفيلسوف الألماني «كانت»[9] أن الامتثال للقاعدة القانونية إنما هو وليد ذلك الإكراه المحسوس الذي يعرضنا له الإخلال بها، فهو ليس واجبا يفرضه الضمير، إننا نمتثل لحكم القاعدة القانونية لا لأن ضميرنا يوحي إلينا بوجوب الامتثال لها، وإنما مخافة بطش السلطة العامة. على عكس الحال بالنسبة للقاعدة الأخلاقية، فهي لا تنبعث من سلطة آمرة خارجة تملك وسائل إكراه مادية. إن المرء لا يطيع القاعدة الأخلاقية تحت تأثير سلطة خارجية أو مخافة إكراهها إياه على الامتثال لها، وإنما احتراما لذلك الأمر الذي ينبعث من الضمير مجردا عن أي اعتبار آخر. إن "كانت" لا يرى للقاعدة الأخلاقية مصدرا غير ذلك الهاتف الذي ينبعث من الضمير ويتردد صداه في أعماق أنفسنا آمرا بالخير وناهيا عن الشر. إن إرادتنا ولا شيء غيرها هي التي تفرز لنا قواعدنا الأخلاقية، وبذلك يجعل «كانت» من الإكراه الاجتماعي معيار التفريق الأساسي بين القانون والأخلاق. والحق أن الإكراه الاجتماعي الذي تختص به القاعدة القانونية هو الذي يُظْهِر في ذاته فيصل التمييز بينها وبين القاعدة الأخلاقية، وإنما هو أثر من آثار هذا التفريق. إن الإكراه الاجتماعي يلتصق بالقاعدة القانونية دون القاعدة الأخلاقية نتيجة لكون الأولى قاعدة حياة اجتماعية بينما الثانية حياة فردية. إن الإكراه الاجتماعي ليس بضابط للتفريق بين القانون والأخلاق كما يصوره «كانت» بل هو ليس ركنا طبيعيا في القاعدة القانونية، وإنما هو أثر من آثار طبيعتها كقاعدة حياة اجتماعية. ذلك بأن هذه القاعدة لا تعتمد في حيويتها اعتمادا كليا على الإكراه المادي، وإنما تبدأ أصلا بالاعتماد على اتباع الأفراد لها برضاهم فلا يأتي ذلك الإكراه إلا في المرتبة الثانية وعند الاقتضاء.

وتقرب النظريات الحديثة بين القانون والأخلاق حتى تكاد أن تقضي على كل فرق بينهما. فمن حيث الغرض ترى أن الأخلاق نوعان : مطلق ونسبي.

فالمطلق هو الذي يعبر عن المثل الأعلى لخير الإنسانية عامة، والنسبي يسعى إلى تحقيق الخير العام في ظروف معينة من الزمان والمكان. وكذلك القانون، فيه المطلق الذي يعبر عن المثل الأعلى للعدالة وخير الإنسانية (القانون الطبيعي) وفيه النسبي (القانون الوضعي) وهو لا يقتصر غرضه – كما ترى النظرية التقليدية – على استقرار النظام والعدالة، بل يهدف أيضا إلى تحقيق الخير العام. فإذا كانت قواعد الأخلاق المطلقة بعيدة عن قواعد القانون الوضعي، فإن الأولى تسعى دائما إلى الاتصال بالثانية والاندماج فيها عن طريق القانون الطبيعي. ومن حيث دائرة كل منهما تسلم النظرية الحديثة بأن القانون لا دخل له بالعبادات والأخلاق الفردية، ولكنها ترى أنه يشترك معها في توخي الخير العام للمجتمع، وأنه لا ينفض يده عن الأعمال الباطنة، بل هو يراعيها ويجعل لها أثرا في تقدير الأعمال الظاهرة، فهو مثلا يقيم وزنا لحسن النية والعمد وسبق الإصرار ونية التملك وقصد الوفاء إلخ... وإذا كان لا يتدخل في النوايا التي تبقى كامنة في النفس ولا يظهر لها أثرٌ في الخارج فما ذلك إلا لأن هذه النوايا لا تصطدم بنشاط الآخرين، وبالتالي لا تقتضي من القانون تنظيما لها. والقانون لا ينفرد بدائرة خاصة به، بل كل ما يأمر به أو ينهي عنه تأخذ به الأخلاق أو تنهى عنه. ومن حيث الجزاء تسلّم النظرية الحديثة بأن القاعدة القانونية تتميز عن القاعدة الخلقية بأن لها جزاء ماديا محسوسا، ولكنها ترى أن هذا الجزاء لا يتعارض مع طبيعة القاعدة الخلقية ولا يمكن اعتباره حدا فاصلا بين القانون والأخلاق، إذ إن القاعدة القانونية هي قبل كل شيء قاعدة خلقية رأى المجتمع في إحدى مراحل تطوره أن احترامها ضروري لتحقيق الخير العام، ففرض احترامها وكفله بالقوة المادية.

وكل اتفاق يرد على أمر يتنافى مع الأخلاق الحميدة، يقع باطلا، لمخالفته لحسن الآداب، كالاتفاق على أن تعمل فتاة في منزل معدّ للعهارة، والاتفاق على شهادة الزور، حتى ولو لم تكن أمام محكمة، والاتفاق على القمار.

وتتصل الآداب اتصالا كبيرا بالنظام العام، بل هي في الحقيقة جزء منه يقتصر على الناحية الخلقية في الجماعة. فقد عرفنا أن المقصود بالنظام العام هي تلك القواعد التي يقصد بها تحقيق مصلحة عامة، سواء أكانت هذه المصلحة سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية أم أخلاقية. وما يمس المصلحة الأخلاقية في الدولة هو ما يطلق عليه حسن الآداب.

وإذا كانت الآداب تتصل اتصالاً كبيراً بالنظام العام، بل هي في الحقيقة جزء منه، يقتصر على الناحية الخلقية في الجماعة، فقد عرفنا أن المقصود بالنظام العام هي تلك القواعد التي يقصد بها تحقيق مصلحة عامة، سواء أكانت هذه المصلحة سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية أم أخلاقية. وما يمس المصلحة الأخلاقية في الدولة هو ما يطلق عليه حسن الآداب.

وإذا كانت الآداب تدخل في الحقيقة في رحاب النظام العام، إلا أننا قد توارثنا من قديمٍ الفصل بينهما، وقد كان لدى الأقدمين سبب لهذا الفصل. إذ لم تكن نتائج بطلان الاتفاق الذي يقع مخالفا للنظام العام وذاك الذي يقع مخالفا للآداب واحدة في الحالتين عندهم. فالقاعدة العامة في بطلان الاتفاق هي اعتباره كأن لم يكن، وبالتالي إرجاع الطرفين إلى الحالة التي كانا عليها قبل إبرامه. والأثر المترتب على ذلك هو أنه إذا كان أحد الطرفين قد دفع للآخر مبلغا من النقود تنفيذا لهذا الاتفاق، حُق له أن يسترده منه. وكان بعض الفقهاء القدامى يُعْمِلون هذا الأثر في البطلان المترتب على مخالفة حسن الآداب، فما كانوا يجيزون للرجل الذي وهب خليلته بعض المال، لكي يصل منها إلى معاشرتها، أن يسترد ما أعطاها إياه، والحكمة التي أدت بالأقدمين إلى تقرير هذا المذهب هي أنهم لم يريدوا بالنقاش الذي يدور حول تنفيذ الاتفاق المخالف لحسن الآداب أن يتناهى إلى سمع القاضي فيدنسه. وقد وُجدت التفرقة السابقة بين النظام العام وحسن الآداب فيما يتعلق بالأثر المترتب على البطلان الناتج عن مخالفة الاتفاق لكل منهما، وجدت هذه التفرقة صدى قويا ظل رنينه يؤثر في القضاء الفرنسي

حتى الآن، وإن بدأ يخفق سريعا، وتأثر كثير من الفقهاء بالتفرقة التي قال بها الأقدمون، إلا أن القوانين الحديثة ومنها قانون الالتزامات والعقود المغربي لا تأخذ بهذه التفرقة، وتسوي في أثر البطلان بين الاتفاق الذي يخالف النظام العام وذلك الذي يخالف حسن الآداب[10].

وتجدر الإشارة إلى أن معيار الآداب أو الناموس الأدبي ليس معيارا ذاتيا يرجع فيه كل شخص لنفسه ولتقديره الذاتي، بل هو معيار اجتماعي يرجع فيه الشخص لما تواضع عليه الناس. وهو في ذات الوقت معيار غير ثابت، يتطور تبعا لتطور الفكرة الأدبية في حضارة معينة. فهناك أمور كانت تعتبر مخالفة للآداب فيما مضى، كالتأمين على الحياة والوساطة في الزواج، أصبحت الآن ينظر إليها نظرا آخر. وهناك بالعكس أمور أصبحت الآن مخالفة للآداب، كالاسترقاق وإدخال المهرّبات في بلاد أجنبية، وكانت من قبل غير ذلك. ونرى من ذلك أن النظام العام وحسن الآداب هما الباب الذي تدخل منها العوامل الاجتماعية والاقتصادية والخلقية، فتؤثر في القانون وروابطه، وتجعله يتمشى مع التطورات الاجتماعية والاقتصادية والخلقية في الجيل والبيئة. وتتسع دائرة النظام العام والآداب أو تضيق تبعا لهذه التطورات، وطريقة فهم الناس لنظم عصرهم، وما تواضعوا عليه من الآداب، وتبعا لتقدم العلوم الاجتماعية. كل هذا يُترك للقاضي، يفسره التفسير الملائم لروح عصره، فالقاضي يكاد إذن أن يكون مشرّعا في هذه الدائرة المرنة، بل هو مشرع يتقيد بآداب عصره ونظم أمته الأساسية ومصالحها العامة. ونحن في العصور الحاضرة نشهد تغلب النزعة الاشتراكية واتساع دائرة النظام العام من ناحية، ونشهد من ناحية أخرى، تأثر القانون المضطرد بالعوامل الخلقية، حتى صح أن يسمى هذا العصر بعصر تغلغل الروح الاشتراكية والروح الخلقية في القانون (socialisation et normalisation du droit) [11].

كما هو الشأن بالنسبة إلى القواعد القانونية المتعلقة بالنظام العام، لا نستطيع أن نحصر القواعد القانونية المتعلقة بحسن الآداب، ولم يكن هناك مفر

من أن نترك حرية التقدير للقاضي، الذي يجب عليه أن يقرر بمناسبة كل حالة تعرض عليه، ما إذا كان محل الالتزام أو سببه حسن الآداب أو لا يخالفه. وعلى القاضي ألا يهتدي في ذلك بما يراه هو متفقا مع الأخلاق الحميدة، بل يجب أن يهتدي بالإحساس العام في الجماعة، دون اعتداد برأيه الشخصي، إن خالف ذلك الإحساس العام.

رابعاً : مدى تعلق فروع القانون المختلفة بالنظام العام

سبقت الإشارة إلى أنه يستحيل علينا حصر القواعد القانونية المتعلقة بالنظام العام، وأنه ليس بالإمكان أن نضع بيانا بتلك القواعد، حتى إذا ما عُرض الأمر على القاضي بصدد قاعدة معينة، كان له أن يستشير الأمر هكذا، فليس أقل من أن نستعرض الفروع المختلفة للقانون، لنرسم الخطوط العريضة التي تحكم الموضوع بالنسبة إلى كل فرع منها، ونتناول أولا القانون العام، ثم نعقب بالقانون الخاص.

1) تطبيقات النظام العام في نطاق القانون العام

ينظم القانون العام روابط الأفراد بالهيئات العامة، وروابط الهيئات العامة بعضها ببعض، وهذا التنظيم ينظر فيه إلى المصلحة العامة، فلا يجوز للأفراد أن يتفقوا على ما يتعارض مع هذه المصلحة تحقيقا لمصالحهم الفردية.

ففي القانون الدستوري يعتبر من النظام العام كل ما يتصل بالحقوق التي نظمها هذا القانون والحريات العامة التي كفلها كحرية الترشيح والانتخاب، والحرية الشخصية، وحرية الإقامة، وحرية العمل والتجارة . فمثلا لا يجوز لمرشح أن ينزل عن ترشيحه لمرشح آخر بمقابل أو بغير مقابل، كما لا يجوز لناخب أن يتفق مع مرشح على إعطائه صوته، وكل اتفاق من هذا القبيل باطل، كما إذا تعهدت امرأة لخليلها السابق ألا تتزوج أصلا. وإذا تعهد شخص بأن يتزوج من فتاة أو امرأة معينة، فهو غير مقيد بتعهده، ويجوز له العدول عن هذه الخطبة أو

عن هذا التعهد، ولا يكون مسؤولا بمقتضى العقد، وإن جاز له أن يلتزم بالعمل غير المشروع لفسخه الخطبة في وقت غير لائق أو لارتكابه خطأ. ويكون باطلا كل اتفاق يقيد من حرية الشخص في اعتناق الدين الذي يختاره، وكل اتفاق يقيد الشخص بعقيدة معينة أو بمذهب معين من مذاهب التفكير. ولكل عامل الحق في الانضمام إلى النقابة التي يختارها، وهو حر كذلك في ألا ينضم إلى نقابة ما، ولكل شخص الحرية الكاملة في اختيار العمل الذي يتخذه حرفة له، وفي القيام بما يشاء من أنوا ع التجارة، ولا يجوز أن يحرم شخص من هذه الحرية ولو رضي بهذا الحرمان.

وفي القانون الإداري يعتبر من النظام العام كل ما يتصل بالوظيفة وتنظيم المرافق العامة وغير ذلك من المسائل التي ينظمها هذا القانون. فيحرم على الموظف مثلا أن يبيع وظيفته أو أن ينزل عنها لآخر، على أن الوظيفة ذاتها شيء لا يجوز التعامل فيه، فلا يصح أن يكون محلا لتصرف ما. كذلك لا يجوز للموظف أن يتعهد لشخص آخر بأن يستقيل من وظيفته، سواء رمى من وراء هذه الاستقالة إلى تحقيق رغبة لدى هذا الشخص، أو قصد أن يترك له وظيفته خالية حتى يتمكن من الحصول عليها. واتفاق الوسيط مع شخص على جُعل يأخذه الوسيط إذا مكّن هذا الشخص من الحصول على وظيفة أو على رتبة أو على وسام أو على امتياز من الحكومة أو مقاولة يرسو العطاء عليه فيها أو نحو ذلك يكون اتفاقا باطلا لمخالفته للنظام العام. وإذا فرض قانون ضريبة وجب دفعها دون زيادة أو نقص. فإذا اتفق البائع والمشتري على ذكر ثمن في عقد البيع أقل من الثمن الحقيقي حتى تؤخذ رسوم التسجيل على الثمن المذكور في العقد، ففي مثل هذه الحالة تكون العبرة بالثمن الحقيقي لا بالثمن الصوري المكتوب.

وفي القانون المالي تعتبر القوانين التي تفرض الضرائب أو تنظم النقد أو تحدد سعر العملة من النظام العام. فكل اتفاق خاص ينطوي على مساس بالقواعد التي تقررها هذه القوانين يقع باطلا. فمثلا إذا اتفق على أن يتحمل الضريبة

شخص لا يلتزم بها قانونا فإن هذا الاتفاق المؤجر والمستأجر على أن يتولى هذا الأخير دفع الضريبة المفروضة على العين المؤجرة، فإن المؤجر يبقى مع ذلك ملزما بأداء هذه الضريبة إن لم يقم المستأجر بدفعها.

وفي القانون الجنائي يكون باطلا كل اتفاق ينطوي على مخالفة لقواعد هذا القانون، لأن هذه القواعد تتعلق بالنظام العام. فيُعدّ باطلا الاتفاق على ارتكاب جريمة أو الاتفاق على عدم ارتكاب جريمة لقاء مبلغ من المال. ويعد باطلا أيضا الاتفاق الذي يلتزم بمقتضاه شخص بأن يتحمل عن آخر ما قد عسى أن يتعرض له من مسؤولية جنائية، والاتفاق الذي يلتزم بمقتضاه شخص بأن يدفع الغرامات التي يحكم بها جنائيا على شخص آخر. ولا يجوز بمقتضى اتفاق خاص أن تخلق جريمة ليست موجودة في القانون.

2) تطبيقات النظام العام في نطاق القانون الخاص

تتعلق قواعد القانون الخاص إما بالأحوال الشخصية أو بالمعاملات المالية. فالقواعد التي تنظم الأحوال الشخصية تتصل، كقاعدة عامة، بالنظام العام، فلا يجوز للأفراد تعديلها باتفاقات فيما بينهم، من ذلك مثلا الحالة المدنية للشخص وأهليته وعلاقته بأسرته. فلا يجوز تعديل الحالة المدنية باتفاق خاص، كأن يتفق شخص مع آخر على تعديل جنسيته أو تغيير اسمه أو التنازل عن بنوته لأبيه أو الصلح على شيء من ذلك. ولا يستطيع شخص أن ينزل على أهليته أو يزيد فيها أو ينقص منها باتفاق خاص، كما لا يجوز للولي أو للوصي أو المقدم أن يزيد فيها أو ينقص منها باتفاق خاص، كما لا يجوز للولي أو الوصي أو المقدم أن يزيد أو ينقص من حدود ولايته. ولا يجوز الاتفاق ما بين الزوجين على تعديل ما للزوج من حقوق على زوجته في الطاعة والأمانة الزوجية، أو تعديل ما للزوجة من حقوق على زوجها من النفقة والرعاية. ولا يجوز للزوج المسلم أن ينزل عن حقه

في الطلاق. كما لا يجوز للأب أن يقيد نفسه باتفاق يحدد طريقة تربية الأولاد أو يلزمه مقدما باختيار دين معين لهم كأن يكون الأولاد على دين أمهم مثلا.

ومن روابط المعاملات المالية ما يحقق مصلحة عامة فيعتبر من النظام العام. ومن ذلك الأسس التي يقوم عليها النظام الاقتصادي في البلاد، فهي تارة تفسح المجال للنشاط الفردي وطورا تحد من هذا النشاط لحماية الجانب الضعيف. ومن ذلك أيضا الأحكام التي تكفل حماية الغير حسن النية.

أغلبية قواعد الأحوال العينية أو المعاملات المالية لا تتعلق بالنظام العام، لأنها قواعد مكملة لإرادة العاقدين، ومن ثم يجوز الاتفاق على ما يخالف أحكامها. غير أن هناك طائفة لا يستهان بها من قواعد المعاملات المالية تتعلق بالنظام العام، ويكون الأمر كذلك كلما مست القاعدة القانونية مصلحة أساسية للمجتمع. ومثال القواعد التي تنظم المعاملات والتي تعتبر متعلقة بالنظام العام تلك التي تنظم شهر التصرفات العقارية، ومثال القواعد السابقة كذلك تلك التي تحتم أن يكون رضى الفرد بكل تصرف يجريه رضى حرا خالصا، حتى لا يلزم باحترام أمر أجبر على التعهد به أو أخذ منه العهد به وهو مخدوم في أمره. ومثال هذه القواعد كذلك تلك التي تكفل حماية الطرف الضعيف في العقد، وتعين حدّاً أقصى لسعر الفائدة الاتفاقية.

وتحقق نظم التقاضي في مجموعها مصلحة عامة، وكثير من هذه النظم لا تجوز معارضته باتفاقات فردية، فتحديد اختصاص المحاكم – فيما عدا الاختصاص المحلي – يعتبر من النظام العام، ولا يجوز للخصوم أن يتفقوا على اختصاص محكمة تكون غير مختصة بالنسبة إلى ولايتها أو بالنسبة إلى اختصاصها النوعي، فيرفعوا قضية من اختصاص المحكمة العسكرية إلى المحكمة العادية، أو قضية من اختصاص المحاكم الابتدائية إلى حاكم الجماعة والمقاطعة.

خامساً : تطبيقات الآداب

يقع باطلا كل اتفاق يخالف الآداب، فكل اتفاق على إيجاد علاقات جنسية غير مشروعة باطل لمخالفته الآداب، كذلك يكون باطلا كل تعهد يلتزم بمقتضاه شخص أن يؤجر شخصا آخر في مقابل إيجاد علاقات جنسية معه، أو في مقابل استمرار هذه العلاقات، أو العودة إليها إذا كانت قد انقطعت. وكل اتفاق يتعلق باستغلال بيوت العهارة يعتبر باطلا لمخالفته للآداب، ولو كانت هذه البيوت قد حصلت على ترخيص إداري. فبيع بيت يدار للعهارة، وإيجاره، وشراء مفروشات له، واستئجار أشخاص ليقوموا بالخدمة فيه، وإنشاء شركة لاستغلاله، وإقراض مال للإعانة على إدارته، أو رهان عقود باطلة لمخالفته للآداب. ويكون باطلا كذلك كل اتفاق خاص بمقامرة أو رهان لمخالفته للآداب. ويعد باطلا بيع بيت يُدار للمقامرة وإيجاره وكل ما يقع عليه من العقود بقصد استغلاله للمقامرة.

من كل ما سبق يتضح لنا أن أكثر قواعد القانون العام تتصل بحكم طبيعتها بالنظام العام، وبالتالي تعتبر قواعد آمرة لا يجوز الاتفاق على استبعاد أحكامها بإرادة الأفراد. كما أن القواعد القانونية المتصلة بالنظام العام في نطاق القانون الخاص تتزايد باستمرار نتيجة تغلغل المذاهب الاشتراكية في حنايا المجتمع الحديث. وهذا ما جعل الشارع يتدخل على نطاق واسع في تنظيم مجموعة من العقود بمقتضى قواعد آمرة تتعلق بالنظام العام، كما فعل في عقد العمل، وعقد الإيجار، والتسعير الجبري للسلع، وقد ترتب على ذلك أن أصبحت القواعد التي تتعلق بالنظام العام في ازدياد مستمر.

الهــوامــش

1) الأستاد جابيو Japiot، أورده في الرسالة المقدمة إلى جامعة ديجون Dijon الفرنسية – صفحة 302.
أؤبري

2) أوبري وَ رو – الطبعة الخامسة، صفحة 177، فقرة 36.

3) ديمولومب 24، فقرة 281.

4) ماسون، النظام العام – باريس – 1899.

5) كابيتان – المدخل لدراسة القانون – طبعة رابعة – فقرة 24، صفحة 60.

6) عبد الله الجليلي – الشرط المستحيل والمخالف للنظام العام أو الآداب – صفحة 63-77.

7) فريي سومبير – قوانين النظام العام – صفحة 163 وما بعدها.

8) الوسيط – الجزء الأول – فقرة 228.

9) أورد هذا القول محمد طه بدوري – القاعدة القانونية – صفحة 50 إلى 54.

10) عبد الفتاح عبد الباقي – مصادر الالتزام – فقرة 135– صفحة 231-233.

11) السنهوري – الوسيط – الجزء الأول – (صفحة 399-401).

الطّباعة العربيّة في أوروبّا

نشأتها وإصداراتها وخلفيّاتها

أحمد رمزي

لا يمكن الحديث عن هذا الموضوع، وفي هذا المقام،إلاّ مختصراً، لأنه طويل عريض، وتتخلّله أحداث سياسية وحساسيّات عقَدية. وسأكتفي بالحديث عن محطّاته الكبرى، وسأغفل عمداً انتقال الطباعة من أوروبّا إلى العالم الإسلامي تجنباً للخوض في موضوع آخر له بيئته وظروفه الخاصّة.

أُبادر إلى القول بأن الطباعة العربيّة في أوروبّا شقّت طريقها بعُسر شديد، إذ كان الڤاتيكان لا يرى في الطباعة إلاّ ما يخدم مصالح الكنيسة، هذا إلى تزاحم الصراعات السياسية القائمة بين البلدان الأوروبّية التي كانت تهادن الكنيسة أحياناً وتتجاهلها أحياناً أخرى. لذلك سيكون بالضرورة الحديث عن الطباعة العربية مواكباً للحديث عن الأحداث السياسية والدينية التي كانت تعصف بالقارّة الأوروبية.

* * *

ازدهرت الحضارة الإسلامية حتى نهايةِ العصر الوسيط، ثم تراجعت فكرياً وسياسياً وجغرافياً، وأخذت الحضارة الأَوروبية تفيق من مرقدها وتبحث

عن أصولها ابتداءً من القرن الثاني عشر للميلاد، ثم ظهرت معالمها اللاّفتة للانتباه في القرن الخامس عشر الممهّد لعصر النهضة الأوروبية.

أهمّ حدث تاريخي غيّر مجرى الفكر في بداية عصر النهضة الأوروبيّة هو اختراع «يوهانس گوتَنْبِرْغ» Johannes Gutenberg للمطبعة في سنة 1455، أي قبل سقوط غرناطة بسبع وثلاثين سنة. وقبل أن أعود إلى هذا الموضوع بعد قليل، اسمحوا لي أن أذكّر بأحداث طرأت في القرن الخامس عشر :

1 – ففي سنة 1453 فتح الأتراك القسطنطينية بقيادة السلطان محمد الثاني، الملقّب بالفاتح، وانتهت بذلك الأمبراطورية البيزنطية بعد ألف عام من ظهورها. وكان لهذا الحدث الأثر العميق في أوروبا المسيحية، فدقّت أجراس الخوف من موسكو شرقاً إلى باريس غرباً.

– وفي سنة 1455 أخرج «يوهانس گوتَنْبِرْغ» Johannes Gutenberg إنجيلاً مطبوعاً بالحروف المعدنية المنقوشة على الفولاذ بعد أن جرّب الحروف الخشبية.

وفي سنة 1473 طُبع باللاّتينية الكتاب الخامس من «القانون في الطبّ» لابن سينا، وهو من ترجمة شيخ المترجمين «جيرار دو كْريمون» Gérard de Crémone.

وفي سنة 1492 انهارت مملكة غرناطة وانتهى الوجود الإسلامي في الأندلس.

وفي سنة 1494 قام العالم الإيطالي «ألْدو مانوسْيو» Aldo Manuzio بإنشاء مطبعة في مدينة ڤينيسْيا بإيطاليا، طبع فيها الآثار الكلاسيكية اليونانية واللاّتينية ومؤلّفات «دانْتي» Dante، صاحب «الكوميديا الإلاهية» «وبيطْرارك» الذي يعدّ من المهيّئين لعصر النهضة الأوربية، وقد كان ألدو هذا أول من صنع الحروف المائلة Italiques. وكان مترجماً وبارعاً في النحو اللاّتيني.

لا شكّ أن اختراع المطبعة يعدّ من الفتوحات العلْمية الكبرى، إذ مكّنت من إخراج الكتاب ودفعه إلى الجمهور بأعداد كثيرة خالية من الأغلاط التي كانت تأتي على أيدي الورّاقين والنسّاخين، ذلك أن الحروف المطبعية المصفّفة مرة أولى بإتقان تضمن الجودة في كل ما سيُطبع فيما بعد سواء بمئات الكُتب أو بالآلاف.

كانت قد ظهرت في إيطاليا صناعة الكاغد سنة 1226، ثم ظهرت في مدن أخرى أوروبية بعد أن كان الكاغد يُجلب من سمرقند وبغداد ودمشق وفاس وشاطبة، بل صارت أوروبا تصنع الكاغد وتصدّره إلى المدن الإسلامية العريقة في صناعته. ولولا الكاغد لما استطاع گوتنبرغ أن يطبع النسخة الأولى من الإنجيل، ولما استطاعت الطباعة أن تزدهر في أوروبا بعد.

في هذا القرن الخامس عشر، كانت المكتبات الخاصة والجامعية عامرة بما ترجم من قبل من العلوم العربية إلى اللاّتينية والعِبرية، في الطب والفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها، لكن تنقصها الكتب العربية لأن مستوى تعلّم اللغة العربية آنذاك كان ضعيفاً.

ثم سعى العلماء الأوروبيون المتخصّصون في اللاّتينية والعِبرية والسريانية والكلدانية، وهي لغات ما زالت آنذاك شائعة بين مسيحيّي المشرق، أقول سعَوا إلى تعلّم اللغة العربية وطباعة نصوصها انطلاقاً من النصوص الأصلية أو مترجمة من اللاّتينية. وكانت المخطوطات العربية ترِد على أوروبا بوساطة السفارات المعتمدة في القسطنطينية أو الأساتذة المهتمّين بالعربية أو على يد سماسرة متجوّلين.

وكانت أوروبّا في ذلك العهد تقف من الإسلام موقف العداء والحذر، تغذّيه ذكريات الحروب الصليبية، ويؤجّجه ما كان باقياً من الحضورالإسلامي في

الأندلس، ثم جاء سقوط القسطنطينية ليُعدّ من قِبل المسيحيّين ضربةً عنيفة. إلاّ أن هذا الموقف من الإسلام كان ممزوجاً بشيء من الانبهار لقدرات المسلمين السابقة أيام تفوّقهم، والباقية المتجلّية فيما خلّفوه من مؤلّفات في العلوم ومن إبداعات في الآثار العمرانية.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الطباعة ظهرت أولاً في الصّين، ثم في الأندلس كما جاء في ترجمة أبي بكر القلوسي في كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» لابن الخطيب، لكن حتى لو قبلْنا بهذه الأقوال فإنّنا لا نتوفّر على أدلّة قطعية. ثم إن الطباعة لم تبرُز طوال القرون التي سادت فيها الحضارة الإسلامية بتفوّقها في العلوم والابتكارات الآلية وبقيت تصدر فيها الكُتب على أيدي الورّاقين والنسّاخين كما نعلم.

ويُرجّح أن أوّل كتاب نشر كان في الأندلس بعد سقوط غرناطة. فقد رأى أسقف هذه المدينة المفقودة فرناندو دي طلاڤيرا Fernando De Talavera أن تنصير الموريسكيّين واجب ولا يمكن أن يتمّ إلاّ إذا عرف الرهبان ورجال الكنيسة العاملون في غرناطة اللغة العربية. لذلك نشر الراهب الإسباني بيدرو دي الكالا Pedro De Alcala أول كتاب في إسبانيا طبع بالقشتالية والعربية سنة 1505 بالحروف الخشبية، لتدريب المنصِّرين الإسبان على اللغة العربية وتمكينهم من مجادلة الموريسكيّين وإقناعهم «بصحّة المسيحيّة وفساد ملّتهم الإسلامية». ثم صدر في سنة 1566 كتاب «العقيدة النصرانية» مطبوعاً باللغتين العربية والقشتالية، وهو من تأليف رئيس أساقفة بَلَنْسِية مارتين بيريس دي أيالا Martin Perez De Ayala. وتوالت الكتب هكذا إلى أن قرّر الملك الإسباني فيليبي الثالث Felipe III إخراج الموريسكيّين من الأندلس نهائياً في سنة 1609. وقد سجّل نفْيَ الموريسكيّين شاهدُ عيان هو أحمد بن قاسم الحجري الهارب من الأندلس، وذلك في كتابه «ناصرالدين على القوم الكافرين» الذي

قام بتحقيقه وترجمته إلى الإنجليزية الأستاذ قاسم السامرائي، الأستاذ في قسم الدراسات الشرقية وكلية العقيدة سابقاً بجامعة لَيْدن بهولندا.

كان الڤاتيكان يرى ضرورة ضمّ المسيحيّين جميعاً إلى الكنيسة البابوية، أي جعلَ الموارنة، والأرثودوكس، والنساطرة، واليعاقبة، والأقباط وسواهم من الأقلّيات المسيحية المشرقية تحت وصاية الڤاتيكان خوفاً من تأثرهم بالإسلام بعد سقوط القسطنطينية، ومن انضمامهم إلى العقيدة البروتيستانتية. لذلك أنشأ الڤاتيكان مطبعة الكلية اليسوعية في روما بأمر من البابا بيوس الرابع، وأصدر منها في سنة 1566 أول كتاب بالعربية في إيطاليا هو كتاب «اعتقاد الأمانة الأرثودوكسية، أمانة روما» وهو من تأليف إليانو Eliano اليهودي المتنصِّر، ثم أُنشئت في روما للغرض نفسه مطبعة ميديتْشي Medici بعد توحيد الكنيستين الڤاتيكانية والمارونية. وأمر البابا گريگوريوس الثالث عشر Grégoire XIII بتأسيس الكلّية المارونية في روما لتعليم المنصِّرين الأوروبّيين اللغات الشرقية، وتعليم نصارى المشرق اللغات الأوروبية خصوصاً منهم الموارنة. وقد لعب المارونيّون دوراً خطيراً في هذه الحركة بقيادة اثنين من رهْبانهم هما جبرائيل الصهيوني Gabriel Sionite ويوحنّا الحصروني Jean Hesronite.

كان الڤاتيكان ينظر إلى الحرف العربي بحذر شديد، وكان يسعى إلى احتكاره ليستعمله في مطابعه لأغراض تنصيرية، لكنه سينتكس من جرّاء أحداث تراكمت ضدّه في وقت واحد أهمّها :

1) «صكوك الغُفران» التي قرّر البابا ليون العاشر (يوحنّا ميديتْشي) بيعها لمن يطلب الغفران من أبناء الكنيسة الكاثوليكية. وكلّف البابا رجال الكنيسة بتنفيذ هذا القرار كلما آتاهم أحد من ملّتهم واعترف بذنوبه طلباً للغفران. وقصد البابا من هذه المبادرة البابوية جمع المال الكافي لبناء كاثدرائية القدّيس بطرس بالڤاتيكان.

2) رأت نخبة من المسيحيّين أن هذه المسألة تُعدّ شططاً وخروجاً عن روح الديانة المسيحية، ومن هنا نشأت حركة «الإصلاح» مستهدفة الرجوع إلى الأصول ومناهضة الكنيسة الرسمية، وكان على رأس هذه الحركة المتخصّص الألماني في اللاّهوت والفلسفة مارتان لوتير Martin Luther الذي أعلن معارضته لصكوك الغفران، وانتقد الكنيسة بشدّة في بيان عنوانه : «إلى النّبلاء المسيحيّين الألمان»، جاء فيه أنه لا يخضع إلاّ لما جاء في النصوص المقدّسة. ثم أخذ يترجم الإنجيل إلى الألمانية الدارجة لتقريب تعاليم الإنجيل من عامّة الشعب الألماني. وجاء ردّ فعل الكنيسة شديداً، إذ أعلنت طرد لوتير من المسيحية وعدّته مارقاً.

أخذت حركة «الإصلاح» تتقوّى وتعبّر جهاراً عن رفضها للبابا والكنيسة الكاثوليكية. ويتزعّم حركة «الإصلاح» هذه رجال لهم دراية بالعلوم الدينية والفلسفية، وكثير منهم كانوا يعدّون من النخبة. فحاولت الكنيسة الكاثوليكية متابعتهم فلجأوا إلى شمال أوروبا واستقرّوا في هولاندا وألمانيا والبلاد السكندناڤية.

بل إن مبادىء لوتير وصلت إلى روما حيث نشبت اضطرابات مات فيها الناس وأحرقت المساكن.

تفسّر هذه الأحداث التطوّر الفكري الذي حصل في أوروبّا فيما بعد. ففي جنوب أوروبّا بقيت الغلبة للفكر الكاثوليكي التقليدي الذي يَعُدّ البابا نائباً للمسيح عيسى بن مريم، يتيح له منصبه حقّ التكفير والغفران، قاعداً في قمّة نظام هرمي يتمثّل في الإكليروس، ويصدرالفتاوى، وله السلطة العليا في كل ما يهمّ حاضر ومستقبل الكاثوليكية ورجالها وأتباعها.

وفي شمال أوروبا، لجأ كثير من الإصلاحيّين التابعين للمذهب البروتيسطانتي. هؤلاء لا يتّفقون مع الكاثوليكية في عبادتها لمريم العذراء، ولا يقولون بعصمة البابا ولا بالإكليروس التابع له، ولا بزخرف القدّاسات

الكاثوليكية. فالبروتيستانتية أقرب إلى البساطة والفطرة، لكن في صرامة في العمل والفكر، ورهبانهم يتزوّجون ويلدون، وشعائرهم الدينية تؤدّى في معابد بسيطة.

لكن الكاثوليكية والبروتستانتية، رغم تضادّهما، تشتركان في أمريْن هما اكتساح مواقع التأثير ما أمكن، ونشرعقديتيْهما في أوروبّا وفي ديار الإسلام.

إن العداء للإسلام متجذّر في جنوب أوروبّا، إذ فيه أسّست محاكم التفتيش ضدّ المسلمين في الأندلس وصِقلّية، وبقي هذا الجنوب الأوروبّي حذراً من طباعة القرآن الكريم. والڤاتيكان سخّرالحرف العربي لطبع التعاليم المسيحية، فأصدر كتب العبادات، والأناجيل الموجّهة إلى المسيحيّين العرب في المشرق، مستعيناً بالمَوارنة الوافدين من لبنان خاصّة، ومن أشهر الأسَر المارونية التي أعانت الكنيسة في خطّتها أسرة آل السمعاني الذين تقلّدوا مناصب دينية عالية في روما. لقد كان هؤلاء يُتقنون اللاّتينية والعربية واللغات الشرقية القديمة، وكانوا صلة وصل بين الڤاتيكان وبين المسيحيّين المشرقيّين. ومن المصادفات الغريبة أن هذه السياسة أدّت إلى انتشار الحرف العربي المطبعي رغم أنه استخدم لأغراض مسيحية صرفة، وسيضاف إلى هذه المفارقة ما طرأ من تقلّبات سياسية حصلت في أوروبا لا أساس دينياً لها، بل سياسياً صرفاً.

ذلك أن تزايد أطماع الملك شارل الخامس (Charle Quint) الذي يحكم ألمانيا وإسبانيا وهولندا وأطرافاً من أمريكا اللاّتينية، جعلت الملك الفرنسي فرانسوا الأول François I° ! يتحالف مع السلطان العثماني سليمان القانوني الذي احتلّت جيوشه البلقان ودخلت مدينة بيلگراد، واندفعت شمالاً إلى مدينة ڤيينا لمحاصرتها في سنة 1529 دون أن تُفلح في احتلالها. لقد كانت الدولة العثمانية وقتئذ أكبر قوّة عسكرية في البرّ والبحر، وكان تحالُف فرنسا مع العثمانيّين يرمي إلى تطويق أطماع شارل الخامس الذي لقّب نفسه رئيساً للأمبراطورية المقدّسة، وكان هدفه إخضاع أوروبّا كلِّها.

فتحت فرنسا سفارتها في إسطنبول تتويجاً لتحالفها مع الباب العالي، وتغيّرت نسبياً المعادلة التي كانت تتحكّم من قبل في العلاقات بين الإسلام والمسيحية، لاسيما بعد أن ظهرت في الڤاتيكان علامات الضعف من جرّاء حركة الإصلاحيّين البروتيستانت من جهة، وجمود الفكر الكاثوليكي من جهة أخرى.

هذه الأحداث السياسية والدينية حاصرت الحرف العربي مدة طويلة، ولم يستطع المثقّفون الأوروبّيون الإقدام على اصطناع الحروف العربية رغم اقتناعهم بضرورة نشْراللغة العربية وعلومها، في وقت يرون فيه الإسلام يعود مرّة أخرى إلى أوروبّا بعد سقوط القسطنطينية والبلقان في أيدي المسلمين. وهكذا حيل بين الحرف العربي وبين وصوله إلى المطابع. أما الحرف اللاّتيني فقد بقي حرّاً طليقاً، أُنشئت له المطابع في مدن أوروبا وأخذت تطبع باللاّتينية كل ما لا يتعارض مع التعاليم المسيحية.

أرسل الملك الفرنسي فرانسوا الأول السيد لافوري La Foret سفيراً إلى القسطنطينية ومعه أستاذ اللغات الشرقية غليوم پوستيل Guillaume Postel المشهور بدعوته إلى دراسة العربية للإحاطة بعلومها التي تعدّ جزءاً هامّاً في التراث الإنساني، وكان پوستيل يدرّس العربية واليونانية والعِبرية في الكوليج دو فرانس Collège de France الذي أنشأه الملك فرانسوا الأول في سنة 1538، وبقي إلى الآن مفتوحاً لجمهور المتقّفين يصغوْن فيه إلى دروس أكبرالعلماء الفرنسيّين. وأصدر پوستيل كتاباً في النحو العربي بالحروف العربية جاء في مقدّمته أنه لا يمكن لمن يريد اكتساب المعرفة أن يجهل اللغة العربية. وختم كتابه هذا بسورة «الفاتحة» مع ترجمتها اللاّتينية. وهكذا انفتحت أمام العربية وحرفها آفاق جديدة بعد الحصارالذي ضربته الكنيسة على الطباعة العربية طوال سنين، إذ لم يُنشر بالعربية منذ مائة عام سوى ثلاثة مؤلّفات، بينما صدر باللاّتينية، في مدينة ڤينيشيا وحدها أربعون كتاباً من مؤلّفات ابن سينا، وكتابين اثنين بالعِبرية

لابن سينا أيضاً وابن رُشد، وبعض الترجمات لـ «جيرار دو كريمون» Gérard de Crémone، أكبر تراجمة طليطلة في القرن الثاني عشر.

وفي هذا النصف الأول من القرن السادس عشر كانت المخطوطات العربية نادرة في أوروبّا، وكانت مكتبة «بَـلْوَا» بفرنسا، وهي من أكبر المكتبات وقتئذ، تملك ستّ مخطوطات فقط، منها أربعة مصاحف. أما مكتبة الڤاتيكان فلم تغْتن بالمخطوطات العربية إلاّ في النصف الثاني من القرن السادس عشر. وكان لابدّ لمن يريد قراءة هذه المخطوطات أن يكون متقدّماً في اللغة العربية ومتخصّصاً في علومها كالفلك والحساب والجغرافيا وعلوم أخري نبغ فيها المسلمون وألّفوا. وفي هذا القرن صدر كتاب «وصف إفريقيا» باللغة الإيطالية لمؤلّفه الحسن بن محمد الوزّان الزياتي المعروف بـ «لِيون الإفريقي» الذي تنصّر أثناء مقامه في روما قريباً من البابا ليون العاشر، وفي صحبة البِطانة البابوية من كرادلة وعلماء في اللاّهوت والفلسفة. طُبع وصف إفريقا بالإيطالية كما أسلفنا في سنة 1550 بعد أن تمّ تأليفه في سنة 1526.

وكان الحسن بن محمّد الوزّان يدرّس العربية في روما، وألّف معجماً ثلاثياً عربياً عِبرياً – لاتينياً أهداه لصديقه طبيب البابا بولس الثالث الذي خلف ليون العاشر، لكن هذا المعجم لم يطبع. وغادر الوزّان روما في سنة 1550 قاصداً تونس حيث استقرّ نهائياً.

وجاءت سنة 1578 التي هُزم فيها الجيش البرتغالي ومات قائده الملك سيباستيان في معركة وادي المخازن. كان لهذا النصرالمغربي وقع شديد على أوروبّا المسيحية. وكان الجيش العثماني في الوقت نفسه يتوغّل في جورجيا، بينما كان البروتيستان يثبتون ركائز عقيدتهم في مجمعهم المنعقد في مدينة ويتنبرك الألمانية Wuntberg. اجتمعت هذه الأحداث لتغضبت البابا كريگوريوس الثالث عشر فأمر بإتلاف كل ما لايتّفق مع العقيدة الكاثوليكية من كتابة ونشر. ثم

إنه أنشأ مطبعة في الڤاتيكان ووضعها بين أيدي قساوسة أوفياء منهم فردناند دي ميديتْشي المتأصّل من أسرة عريقة في فينيشيا. وكلف البابا فرنسياً مشهوراً بالنقش على المعدن هو روبير كرانجون Robert Granjon بصناعة حروفها، وهكذا ظهر في الطباعة الأوروبية الحرف العربي الميديتْشي، وبقي سرّاً محفوظاً ليُستعمل فيما يُقرّه الڤاتيكان وحده.

توفي البابا گريگوريوس الثالث عشر وخلفه البابا سيكْسْت الخامس SixteV وتبعه في سياسته، وظهرت في أول عهده الأناجيل باللغة العربية التي تتميّز بعبارة مطبوعة على الكتب هي : «مطبوعة بمدينة روما بطبع گاران دوقا»، وگاران دوقا تعني Grand Duc، أي (الدوق الأكبر)، وهو لقب يمنح لبعض النّبلاء. وهذه الأناجيل العربية توجّه إلى المسيحيّين العرب في المشرق.

وطبعت الأناجيل مرة أخرى بالعربية في سنة 1590 بمطابع ميديتْشي وأخرج منها 1500 نسخة، تلتها طبعة ثالثة في سنة 1591 بالعربية واللاّتينية في 3500 نسخة ما زالت توجد نسخ منها بالمكتبة الوطنية الفرنسية.

ثم فكّر الڤاتيكان في طبع الكتب التي تمكّن من تعليم اللغة العربية للرهْبان لأغراض تنصيرية. ففي سنة 1592، أي بعد 100 سنة من سقوط غرناطة، نشرت مطبعة ميديتْشي «كافية ابن الحاجب». ثم طبعت في السنة نفسها كتاب الآجرّومية لابن آجروم الصنهاجي المتوفّى في فاس سنة 1323 ميلادية، وقد صُدّر الكتاب بعنوان باللاّتينية للتعريف به.

وبعد أن استقرّ الحكم المسيحي في صقلّية طلب الملك روجرالثاني ملك صقلية من الشريف الإدريسي في سنة 1592 أن يصنع له خريطة للكرة الأرضية مصنوعة من الفضّة ففعل، ورسم على هذا البلدان بمدنها وأسمائها، ثم أكمل عمله بتأليف كتابه : «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» الذي سُمّي أيضاً بـ «كتاب الرّوجَري» نسبة إلى روجر الثاني. وطُبع هذا الكتاب بحروف گرانجون

كغيره من الكتب السابقة. وكان أبو عبد اللَّه محمد الشريف الإدريسي السبتي قد درس في قرطبة، ثم جال في بلدان البحر المتوسّط، بل وصل إلى انكلترا. إنه جغرافي وخرائطي وشاعر وعشّاب.

ثم قامت مطبعة ميديتْشي بطبع ثلاثة أجزاء من كتاب «القانون في الطبّ لابن سينا» و«كتاب النجاة» الذي هو جزء من كتاب «الشفاء»لابن سينا، وكان ذلك في سنة 1593. والعنوان العربي الكامل الذي تحمله مجموعة ابن سينا هذه هو : «كتاب القانون في الطب للشيخ أبي علي ابن سينا مع بعض تآليفه، وهي علْم المنطق وعلم الطبيعي وعلْم الكلام». واستعملت المطبعة حروف گرانجون التي وُفّقت بجمالها في إخراج هذه الكتب.

وفي سنة 1594، أي بعد مائة سنة وسنتين من سقوط غرناطة، طبعت المطبعة الميديتشية في روما «كتاب تحرير أصول إقليدس» الذي ترجمه من اليونانية إلى العربية العالِم الفارسي نصير الدين الطوسي، الذي كان فلكياً لدى وزير من وزراء تَيمورلَنْك بن جَنْكيسْ خان بن هولاكو. ونذكر هنا أن ابن خلدون والطوسي كانا من العلماء المسلمين القلائل الذين خلّى سبيلهما تيمورلنك. حضر نصيرالدين الطوسي سقوط بغداد على أيدي المغول، وترجم عدّة كُتب في الرياضيات من اليونانية إلى العربية. وأذكر هنا أن «كتاب تحرير أصول إقليدس» طبع طبعة حجرية في فاس بأمر من السلطان مولاي الحسن الأول في سنة 1293 هـ/1893م.

هذه الكتب العلْمية العربية طُبعت كلها بحروف روبير گرانجون الصائغ والنقّاش الفرنسي الذي صنع الحروف العربية في ثلاثة أحجام : الحجم الكبيراستُعمل في عناوين الكتب. والحجم المتوسّط في أسماء الأبواب والفصول والحجم الصغير في المتن.

وتوجد هذه الحروف في متحف المطبعة الوطنية بباريس، وعددها 283 حرفاً من الفولاذ في الحجم الصغير، و356 حرفاً في الحجم الكبير، و353 في الحجم المتوسّط. هذا وقد توقّفت المطبعة المديتشية عن العمل في سنة 1595، آخرالقرن السادس عشر.

في هذه السنة ظهرت في هولندا حروف عربية صنعها فرانسيس رافْلانْگ (Francis Rapheleng) الذي كان مديراً لمطبعة ليدن (Leyden) وأستاذاً للعِبرية في الجامعة. كان رافْلانْگ يتقن الآرامية، والسريانية والفارسية، وأخذ يتعلّم العربية. وتقول السيدة بلانيا المشرفة قديماً على القسم العربي للمكتبة الوطنية الفرنسية إنه كان يتدرّب على العربية بدأبه على قراءة القرآن وجغرافية الإدريسي. ثم إن هولندا تحرّرت من حكم شارْل الخامس وصارت جمهورية يعيش أهلها في بيئة تتميّز بالتفتّح والتسامح والإقبال على العلوم. وتأسّست جامعة ليدَن في سنة 1575 وكان الطلبة يُقبلون عليها من الداخل والخارج. وكانت علاقات هولندا بالمغرب وطيدة. وبما أن البروتستان الهولنديّين تحرّروا من سيطرة الكنيسة البابوية، فلا شيء كان يمنعهم من بيع السلاح للمسلمين، بينما بقي الكاثوليك في أوروبّا مقيّدين بأمر البابا ألاّ يبيعوا السلاح للمسلمين الأعداء. ولم يُطبع بالعربية شيء يُذكر في حياة رافلانگ. لكن حروفه بقيت في هولندا تنتظر من يستعلمها ويقدر على تمويل إصدار الكُتب المطبوعة بها.

وفي ألمانيا ظهر بطرس كيرستَنْ (Peter Kirsten)، وهو من أسرة نبيلة تهتم بعلوم زمانها. واصطنع كيرستَنْ حروفاً عربية مشكولة طَبع بها في سنة 1609 «الكتاب الثاني لقانون ابن سينا» مشفوعاً بمعجم للأعشاب الطبّية، ثم طبع الآجرّومية في سنة 1610. وأصبح كيرستَنْ شيخ الأساتذة الألمان المستعربين. كان يرى أن الحضارة الإسلامية تمكّن من فهم الكون في تماسكه وتناغم أطرافه

وتساكن مخلوقاته، وكان يطمح إلى طبع المزيد من الكُتب العربية لوْلا أن أوروبّا صارت مسرحاً لحروب وصراعات سياسية ودينية لا تُعين على نشرالعلوم وتنشيط الكراسي الجامعية. لقد توالت الأحداث فزال الحكم الإسباني من هولندا في سنة 1609، ونُفّذ إخراج الموريسكيّين من الأندلس بأمر من فيليبي الثالث، واغتيل ملك فرنسا هَنْري الرابع Henri IV الذي شبّ على العقيدة البروتستانتية وصار زعيمها في بلد تجذّرت فيه الكاثوليكية وترسّخت فيه ذكريات الحروب الصليبية، واندلعت حرب الثلاثين سنة في عام 1618 انطلاقاً من ألمانيا بين البروتيستان والكاثوليك. وكان لكل طائفة أعوان في الداخل والخارج. في هذه البيئة بقي كيرستَنْ أستاذاً للطّب في جامعة أوبسالا Upsala بالسويد، وانتهى إنتاجه المطبعي.

ثم ظهر في هولندا أكبر مستعربي زمانه. إنه طوماس إرْبينيوس Thomas Erpenius المتوفّى سنة 1624. درس هذا الرجل في جامعة ليدَنْ واهتم باللغة العربية، ثم رحل إلى جلّ المدن الأوروبية. والتقى بمسلمين ويهود في ڤينيشْيا بإيطاليا، ثم أصبح المترجمَ الرسمي من العربية وإليها في هولندا. وألف أوّل كتاب في النحو موجّهٍ للأوروبّيين باللغتين العربية واللاّتينية. وطُبع الكتاب بحروف رافلانْگ المذكورة سلفاً. وكان لكتاب النحو هذا تأثير كبير على الأوساط المثقّفة. ثم إن البروتستان الهولنديّين أخذوا يطبعون الكتب المقدّسة المسيحية، وأثار هذا العمل حفيظة الڤاتيكان الذي أصبح يرى ما كان يخشاه من قيام البروتستان بمزاحمته في طبع الكُتب العربية، واتّصالهم المباشر بالإمبراطورية العثمانية، وبلاد شمال إفريقيا والمغرب خاصة.

تعلّم إربينيوس العربية في جامعة باريس على يد طبيب الملك هنري الرابع، ثم على يد إسحاق كازوبون Isaac Casaubon الذي مكّنه من الانتفاع بكتبه التي كانت تزخر بها مكتبته. والتقى في باريس بعالم مصري قبطي يُدعى يوسف بن أبي دقن، وأصبح من أصدقائه المقرّبين فأخذ يتخاطب معه بالعربية

ويُكاتبُه بها. وقرأ «الآجرومية» و«الكافية» و«العوامل المائة» المنسوب لعبد القادر بن عبد الرحمن الجرجاني، وهو كتاب في اللغة، ثم التقى بأحمد بن قاسم الحجري الأندلسي، صاحب كتاب «ناصر الدين على القوم الكافرين»، وكان أحمد بن قاسم يشتغل بالتجارة، فعاشره ليتخاطب معه باللغة العربية وحدها. وكانت الصحبة بين الرجلين سبباً في معرفة إربينيوس بحقيقة الإسلام قرآناً وسنّة. وعيّن إربينيوس أستاذاً للغة العربية في جامعة ليدَن، وبقي في منصبه هذا إلى أن مات وعمره أربعون سنة.

أما مؤلّفات هذا المستعرب الهولندي الكبير ومطبوعاته فهي كثيرة أُلخّصها فيما يلي :

– تحقيق ونشر مائتي مثل من الأمثلة العربية مجهولة المؤلّف مرفوقة بترجمتها اللاّتينية سنة 1615.

– كتاب في النحو العربي يعدّ أوّل مؤلّف يُعرض فيه النحو العربي بمنهجية خاصّة تروق الأوربّيين. بقي هذا الكتاب طوال قرنيْن مرجعاً أساسياً لتدريس النحو في أوروبّا، وطُبع ستّ مرات.

– نشر «سورة يوسف» بالعربيّة المشكولة مع ترجمة لاتينية.

– نشر النص العربي المشكول للآجرّومية. وكانت الآجرّومية قد نشرت مرّات، لكن بدون شكل.

– نشر «المائة عامل» في اللغة للجرجاني البصري.

– نشر «أمثال لقمان» بالعربية مع تعليقات عليها باللاّتينية.

– نشرالتوراة والأناجيل بعد ترجمتها إلي العربية، قصد إرسالها إلى القسطنطينية وتوزيعها على المسيحيّين. وهنا يظهر مرة أخرى التنافس على مسيحيّي المشرق بين هولندا البروتستانتية وبين الڤاتيكان.

كــان أربينيــوس يُشــرف على المــراســلات التي كــانت تتمّ بين هولندا والسلطان السعدي مولاي زيدان. وفي سنة 1622 أرسلت هولندا السيد ألبيرت رْويل Albert Ruyl لاعـتـمـاده سـفـيـراً لدى السلطان مـرفـوقـاً بأنجب تلامـذة أربينيوس، وهو جاك گوليوس Jacques Golius. واستُقبل السفير الهولندي بحفاوة في القصر بمراكش، وفي أثناء هذا الاستقبال، أهدى السفير إلى السلطان نسخة عربية من الإنجيل الذي طبعه إربينيوس !

وتوثّقت العلاقة بين المغرب وبين هولندا إلى حدّ أن القراصنة الهولنديّين كانوا يلجؤون إلى المراسي المغربية، ثم إن الأمير الهولندي موريتس عرض عن المغرب وعلى الباب العالي في سنة 1615 مشروع حِلف عسكري يضمّ الدول الثلاث للقيام باسترداد الأندلس من الإسبان. ولم يتحقّق هذا الحلف لانشغال العثمانيّين بحرب البلقان والمغرب بالفِتن الداخلية. ومن المصادفات العجيبة أن تاريخ يومنا هذا يوافق مضيّ أربعة قرون على بداية العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وهولندا، وتقام في هذه الساعة التي نجتمع فيها هنا حفلة رسمية في مدينة لاهاي لتخليد الذكرى، يمثّل فيها المغرب صاحبة السموّ الملكي للاّ مريم شقيقة جلالة الملك محمد السادس ملك المغرب.

يُعدّ إيربينيوس أكثرالمستعربين تأثيراً بكتابه في النحو، إذْ بقي كتابه هذا فريداً إلى أن ظهر في القرن الثامن عشر المستعرب الفرنسي سيلڤستر دي ساسي (Sylvestre De Sacy)، ونشر في سنة 1810 بالعربية في جزأين كتاباً في النحو العربي مصحوباً بعلْم العروض، سمّاه «التحْفة السنية في علْم اللغة العربية»، أعاد نشره المعهد العربي بباريس.

وأقف هنا في هذا الجزء الأول من ظهور الطباعة العربية في أوروبّا وأكتفي بسرد المؤلّفات العربية التي طبعت في القارّة الأوروبّية إلى نهاية القرن السابع عشر لئلاّ أغفلها في القسم الثاني من هذا الحديث الذي أنوي الكتابة فيه فيما بعد إن شاء اللّـه.

– عاد جاك گوليوس من سفارة بلده إلى هولندا ومُنح كرسي اللغة العربية في جامعة ليدَن ونشر «لأمية العجم» للطغرائي، و «كتاب عجائب المقدور في أخبار تيمور» لابن عربشاه سنة 1636. وأعاد نشر «كتاب النحو العربي» وأمثال لقمان الذين طبعهما أستاذه أربينيوس، و«كتاب محمد ابن كثير الفرغاني في الحركات السماوية».

– نشر يوحنّا فابريسيوس تلميذ گوليوس، المقامة الأولى من مقامات الحريري وقصيدتيْن لأبي العلاء المعرّي، وابن الفارض سنة 1638.

– في سنة 1645 في عهد الوزير مازاران في فرنسا ظهرت طبعة الإنجيل المتعدّدة اللغات وهي اللغات السبع: العربية والعِبْرية والسامرية والكلْدانية واليونانية والسريانية واللاّتينية.

– وفي إنكلترا نشر إدوارْد بوكوك Edward Pocock وهو من كبار المستعربين الأوروبّين في القرن السابع عشر كتاب «حي بن يقْضان» لابن طفيْل سنة 1671.

ثم استمرّ فيما بعد تحقيق الكُتب العربية ونشرها، فطبع أبراهام هينكلمان القرآن الكريم كاملاً في سنة 1694. وطبعت مقامات الحريري في سنة 1731. ومعلّقة كعب ابن زُهيْر في سنة 1748. مشفوعة بمعلّقة امرىء القيْس. وطبع رايسكَه رسالة ابن زيدون في سنة 1755. وطبعت البردة للبوصيري في سنة 1762، وأشعار للمتنبّي في سنة 1765، وكتاب الجذري والحصبة للرازي في سنة 1766، ونوابغ الكَلِم للزّمخْشري في سنة 1772، ومقصورة ابن دُريْد في سنة 1773، والصِّحاح للجوهري سنة 1776، وطبعت الملكة كاثرينة الكبرى، ملكة رو،سيا القرآن الكريم سنة 1787، وتاريخ ابن الفدى سنة 1791 الخ...

وستنطلق بعد هذا سلسلة إخراج الكُتب العربية مطبوعة في أوروبّا، لا سيما في ليدَن بمكتبة «بريل» Brill وألمانيا، وذلك على يد مستشرقين كبار ألِفت

آذاننا أسماءهم، أذكر منهم مثالاً لاَحصراً : آربري، أماري، آمدروز، براون، بروكلْمان، تورْبكّه، جِبْ، گولدزيهر، دارينبورگ، دوزي، دوسْلان، ويسْتنفلد، مارْگوليوثْ، مولّرْ، ألْدو مْييلي، كارلو نالّينو، كْراكشْكوڤْسكي، شاخْت، فْلايشر، فْليش، بْلاشير، دوساسي، وغيرهم كثير، فيهم المشارك في علوم مختلفة، وفيهم المتخصّص في الطبّ أو الفلسفة أو الآداب واللغة أو الفلَك أو الجغرافيا الخ ...

هذا وكان القرن الثامن عشر زمان الأفكار الحرّة الممهّدة للثورة الفرنسية ، وبدأ تراجع سيطرة الكنيسة المسيحيّة على الفكر وإنتاجه، وصارت الجامعات الأوروبية تزخر بكراسي اللغة العربية، وتزايدَ عدد الكُتب العربية التي أخذت طريقها إلى المكتبات الأوربّية، وفتحت مكتبة الإسكوريال أبوابها للمثقّفين والباحثين بعد أن كان الكتاب العربي في إسبانيا المسيحيّة مادة محظورة. ثم جاء القرن التاسع عشر متميّزاً بتحقيق كُتب التراث العربي تحقيقاً علْمياً دقيقاً أظهر فيه المستشرقون الأوروبّيون الصبر والدقّة وطول النفس، وحلّ الاستشراق محلّ الاستعراب. وتقدّمت أوروبّا في العلوم والتقنيات والصناعات المختلفة، وانتشرت دور النشر بمطابعها، وانهارت رقابة الڤاتيكان على الطباعة، وتطوّرالفكر في كل المجالات فضلاً عن ظهور علوم أخرى إنسانية وتكنولوجية، وازدهرالفكرالسياسي والمؤسّسات القانونية والديموقراطية، إلى جانب المؤسّسات العسكرية والاستراتيجية، وأنشئت الأكاديميات، وتأسّست الدولة الوطنية وحلّت محلّ الأمبراطوريات، وانتشر التعليم وظهرت كتب القصّة والمسرح والفكر في مختلف مجالاته، وظهرت الصحافة من يوميات وأسبوعيات وشهريات وحوليات، واتّسعت أوروبّا حضارياً إلى أمريكا وما وراء البحار، بقيت البلاد غير الأوروبية متخلّفة اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً، فظهرت في أوروبّا الأطماع الرامية إلى استعمار هذه البلدان المتخلّفة والتي تمثّل أسواقاً لترويج البضاعات ومجالاً للنفوذ السياسي والعسكري والاستراتيجي.

وفي كل هذا كان للمطبعة دور في نشر الأفكار وتمجيد الاستعمار قبل غَزْو الديار!

هذا موجز لقصّة ولادة الطباعة العربية في أوروبّا وتطوّرها.

أما ظهور المطبعة في العالم العربي والعالم الإسلامي فكان في مدينة حَلَب السورية سنة 1706، أي بعد مضيّ 251 سنة من اختراع گوتنبرگ. وأوّل كتاب صدر من هذه المطبعة الحَلَبيّة هو كتيّب للمزامير المسيحيّة.

المصادر

- جوزي بالانْيا : الطباعة العربية في الغرب، دار النشر لاروس 1984.
- شْنُورّر : المكتبة العربية، هال، ألمانيا 1811، مقتطفات.
- معجم روبير لأسماء الأعلام 1994.
- ندوة تاريخ الطباعة العربية، أكتوبر 1995، أبو ضبي.
- داهل : تاريخ الكتاب، دار النشر بْوانتا 1967.

قراءة في نصوص موسيقية غميسة لأحمد بن الطيب السرخسي

عبد العزيز بن عبد الجليل

مدخل

ولد أبو العباس أحمد بن محمد بن مروان بن الطيب السرخسي بمدينة سرخس الواقعة بخراسان شمال شرق إيران بين مرو والمشهد عند الحدود المتاخمة لروسيا.

رحل إلى بغداد وهو فتى، وبها نشأ وتعلم، ثم اتصل بالفيلسوف الكندي فكان من أعظم تلامذته[1] «عليه قرأ ومنه أخذ، وكان متفننا في علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب، حسن المعرفة جيد القريحة، بليغ اللسان»[2] «كما كان أوحد في علم النحو والشعر. سمع الحديث وروى شيئا منه»[3] وفي هذا الصدد نقلت عنه رواية أكثر من حديث رفع سندها إلى أنس بن مالك وغيره مما يدل على ضلوعه في علم الحديث[4].

لم يذكر الذين عنوا بترجمة السرخسي تاريخ ولادته، على أن الشهادة له بأنه كان «يعتبر من أعظم تلاميذ الكندي» تدل على أنه لازمه للدراسة فترة طويلة من الزمن. فإذا أخذنا بالاعتبار تاريخ وفاة الكندي – وهو في الأرجح 252 هـ – ترجح لدينا أن يكون أول اتصاله به قد تم بين 235 و240 هـ، ثم إذا أخذنا

بالاعتبار – مرة أخرى – أن يكون السرخسي قد بلغ من العمر إحدى وستين سنة عندما انتهى من تأليف «كتاب اللهو والملاهي» للخليفة المعتضد (279-289)[5] ترجح لدينا القول بأنه ولد حوالي 220 هـ.

ظهر السرخسي في عصر كانت فيه الموسيقى على درجة كبيرة من الازدهار سواء في مجال الممارسة العملية أم على مستوى التأليف والتنظير. فقد برز في هذه الفترة الفيلسوف العربي الكندي صاحب الرسائل الشهيرة في الموسيقى، ثم تلاه ثلة من أفذاذ العلماء اشتهر من بينهم في ميدان التنظير الموسيقي المفضل بن سلَمة (ت 291) صاحب «كتاب العود والملاهي» وثابت بن قرة الحراني صاحب كتاب «في الموسيقى» وابن خرْداذَبه (ت 300) صاحب «كتاب اللهو والملاهي»، ويحيى بن المنجّم (ت 300) مؤلف «رسالة في النغم»، وغير هؤلاء كثير ممن عنوا بذكر أخبار الغناء والمغنين كحماد بن إسحاق الموصلي المتوفى سنة 287 هـ.

وما فتئ أن لمع نجم السرخسي ببغداد فأصبح طبيبا وفيلسوفا معدودا في التاريخ والأدب والعلوم والفنون، وحجة في النحو والبلاغة، فقربه الخليفة المعتمد (256-279/870-892) وأوكل إليه تأديب أخيه الموفق الذي سيقلد الخلافة بعد وفاته تحت اسم «المعتضد بالله» (279-289/892-902).

وقد قرب المعتضد السرخسي، واتخذه من خاصة ندمائه ومجالسيه لظرفه وملاحة نوادره فكان يودعه أسراره ويستشيره في أمور المملكة، ثم ولاه الإشراف على الحسبة ببغداد.

مصنفاته الموسيقية

بالرجوع إلى المصادر التي عنيت بترجمة السرخسي نخلص إلي أنه ألف ما يربو على ثلاثين كتابا ورسالة في مختلف العلوم والفنون. وقد نوه ابن النديم

بموهبته في هذا المجال فقال : مليح التصنيف والتأليف[6] كما أشاد القفطي بتصانيفه فقال : إنها حلوة العبارة جيدة الاختصار[7].

وقد أحصي ما ألفه في الموسيقى والغناء فبلغ ما لا يقل عن سبعة كتب هي :

1 – المدخل إلى علم الموسيقى. ذكره ابن النديم[8] والقِفطي[9] وابن أبي أصيبعة[10].

2 – كتاب الموسيقى الكبير. نوّه به ابن النديم فقال إنه مؤلف من مقالتين، وإنه لم يعمل مثله حسنا وجلالة[11] وذكره القفطي[12] وابن أبي أصيبعة[13] وحاجي خليفة[14].

3 – كتاب الموسيقى الصغير. جاء ذ كره في المصادر السابقة.

4 – كتاب اللهو والملاهي في الغناء والمغنين والمنادمة والمجالسة وأنوا ع الأخبار والملح. هكذا سماه ابن النديم، أما ابن أبي أصيبعة فيسميه : كتاب اللهو والملاهي ونزهة المفكر الساهي في الغناء والمغنين والمنادمة والمجالسة وأنوا ع الأخبار والملح، ثم يضيف أن مؤلفه يقول في كتابه هذا إ نه صنفه للخليفة وقد مر له من العمر إحدى وستون سنة[15].

5 – كتاب الدلالة على أسرار الغناء. اختص بذكره ابن النديم[16] وابن أبي أصيبعة[17]، وشك فارْمَر في نسبته إلى السرخسي مرجحا أن يكون لأبى العباس نجل الخليفة المهدي ومضيفا أنه أول كتاب عربي ألف في الغناء[18].

6 – كتاب القيان : تفرد بذكره ابن أبي أصيبعة.

7 – وقد أسند ابن أبي أصيبعة للسرخسي كتابا آخر سماه «كتاب الجلساء والمجالسة». وهو – عند حاجي خليفة – «رسالة المجالسة والجلساء». كتبها السرخسي في جواب معاصره ثابت بن قُرّة (211-288) فيما سأل عنه.

وفي سياق التراسل نقف ضمن مؤلفات ثابت بن قرة على رسالة وجهها إلى بعض إخوانه في جواب ما سأله عنه من أمورِ الموسيقى. فهل كان السرخسي هو الأخ المعني في هذه الرسالة ؟ وهل كانت رسالته «الجلساء والمجالسة» هي ذاتها جوابه على رسالة ثابت ابن قرة ؟

ونسجل هنا أن المسعودى لم يشر البتّة إلى أي كتاب من كتب السرخسي، وإنما كان قصارى ما ذكره أن «له مصنفات حسانا في أنوا ع من الفلسفة وفنون من الأخبار»[19] وأن له رسالة في البحار والمياه والجبال[20].

نهاية مأساوية

كانت نهاية السرخسي مأساوية، ذلك أنه بالرغم من حظوته لدى المعتضد فقد أوقعت به وشاية ماكرة نسج خيوطها بدهاء وزيره القائم بن عبد الله وغلامه بَدْر، وانتهت بإلقاء القبض عليه وتسليمه إليهما ليودعاه المطامير في عام 283هـ/896 م[21]. وكان سبب ذلك أن الخليفة «أفضى إليه بسر يتعلق بوزيره القاسم وغلامه بدر فأفشاه وأذاعه بحيلة من القاسم عليه مشهورة»[22].

ويكتنف الغموض المصير الذي آلت إليه أملاك السرخسي ـ وضمنها مصنفاته ـ بعد اعتقاله. فأما ابن النديم فيذكر أن وزير المعتضد وغلامه «استصفيا ماله»[23]، وأما المسعودى فيسوق الخبر بشيء من التفصيل إذ يقول : وجه (المعتضد) إلى دار السرخسي من قبض على جميع ماله، وقرر جواريه على المال حتى استخرجه فكان جملة ماحصل من العين والورق وثمن الآلات خمسين ومائة ألف دينار[24].

وقد تنازع الناس في كيفية قتل السرخسي والسبب الذي من أجله كان قَتلُ المعتمد إياه[25]. ونقف في فهرست ابن النديم على ما يفيد أن الفرصة واتت

السرخسي للإفلات من السجن في المطامير، غير أنه آثر الإقامة في موضعه راجيا السلامة - إذ كان الغالب عليه علمه لا عقله - فلم يشفع له مكوثه في السجن وامتناعه عن الفرار عند الوزير القاسم، بل إنه أثبت اسمه في لائحة المعتقلين المرشحين للقتل، ثم قدمها للمعتضد، فوقعها، وأنفذ فيه القتل[26] في محرم سنة 286 هـ[27] بعد ثلاث سنوات مرت على اعتقاله.

ومن المؤسف حقا أن تكون سائر مصنفات السرخسي تعرضت للضياع سواء منها ما ألفه في الموسيقى والغناء أم في غيرها من العلوم والفنون.

ولقد ذهب الباحث المعاصر غطاس عبد الملك إلى القول بأن كتب السرخسي أحرقت بأمر من المعتضد، غير أننا بالرجوع إلى كلام ابن النديم لا نجد ما يدل على تعرض مؤلفات هذا العالم للإحراق، وبذلك يبقى ما ساقه غطاس مجرد وهم منشؤه تأويل خاطئ لكلام ابن النديم.[28]

والواقع أنه ما كان لنا أن نرتاب فيما زعمه الدكتور غطاس لولا أن الحسن الكاتب أورد في ثنايا كتابه «كمال أدب الغناء» بعضا من أقوال السرخسي التي لا ريب أنه أخذها من مؤلفاته الموسيقية والفلسفية في سياق الاستشهاد بها على صحة آرائه، أو لمقارعة آراء غيره.

يقول الحسن الكاتب في هذا الصدد : كل باب في هذا الكتاب لا يخلو أن يكون إما مأخوذا كله أو بعضه من أقاويل الناس أو مخترعا مبتدأ به إما كله أو بعضه أيضا. فسبيل الصنف الأول (أي المأخوذ) أن يطلب من معادنه لتتقصى هناك معرفته، وتلك المواضع في كتب قوم معروفين متفرقة وكاملة وناقصة، منهم الكندي، وثابت بن قرة، وأحمد بن الطيب، وأبو نصر الفارابي. وهؤلاء متفلسفو أهل هذه الصناعة ومن يرجع إليه فيها من المحدثين خاصة وعليهم أكثر اعتمادنا... فأما ما يوجد فيه صناعة الموسيقى كاملة فكتب الكندي والفارابي وابن الطيب[29] فإذا أدركنا أن الحسن الكاتب هذا عاش في فترة متأخرة عن

زمان السرخسي بما لا يقل عن قرن كامل تأكد لدينا أن المعتضد لم يمد يده إلى مؤلفات السرخسي بالمصادرة، فإن هو فعل فإنه لم يأمر البتة بإحراقها، ومن ثم يبقى أمر ضياعها مرتبطا بعوادي الدهر وتقلبات الأحداث التي طوحت بغير قليل من المؤلفات التراثية في شتى صنوف المعرفة وفنون الصناعات.

ثقافته الموسيقية

تكشف عناوين المصنفات الموسيقية للسرخسي عن ازدواجية ثقافته الموسيقية. ونريد بذلك أن بعض هذه المصنفات تُعنى بالنظرية الموسيقية على غرار ما صنفه الكندي من رسائل، فيما تنم كتب أخرى عن عنايته بجانب الممارسة العملية للموسيقى والغناء. فمن نماذج كتبه الأولى «المدخل إلى علم الموسيقى»، و«كتاب الموسيقى الكبير» و«كتاب الموسيقى الصغير» ومن نماذج الثانية «كتاب القيان» و«كتاب اللهو والملاهي في الغناء والمغنين»، وهما كتابان يذكّران بمصنفات أعلام الغناء العربي من قبيل كتاب القيان لإسحاق الموصلي، وكتاب الأغاني ليونس الكاتب[30] وما شابههما من الكتب التي تحكي أخبار القيان والمغنين وتصف مجالس اللهو وتعنى بذكر الأصوات وتجنيسها ونسبتها إلى طرائقها النغمية والإيقاعية. ومن هنا فنحن لا نستبعد أن يكون السرخسي إلى جانب معرفته بالنظرية الموسيقية قد مارس الغناء، يدل على ذلك أنه كان لفترة شارفت عقدا ونصف عقد من السنين نديما للمعتضد قبل توليه الخلافة وبعدها، بل إننا لَنرجّح أن يكون قد علمه الغناء والتلحين حتى أصبح من الخلفاء الذين بلغوا في التلحين شأوا بعيدا فنسب إليه الأصفهاني أربعة أصوات ضمن ما نسبه لخلفاء بني أمية وبني العباس[31] كما يدل على ذلك خبر ساقه الأصفهاني في كتابه فحواه أن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كان يراسل المعتضد بواسطة أحمد بن الطيب وثابت بن قرة، فأرسل إليه مرة صوتا جامعا للنغم العشر في شعر دُرَيْد بن الصمّة، وهو :

يا ليتني فها جذع   أخب فيها وادع

فذكر النغم وتفصيل مجاريها ومعانيها حتى فهم ذلك[32].

لقد عاش السرخسي في فترة عرفت حركة نشيطة في مجال نقل التراث اليوناني. وقد تميزت هذه الفترة بإضافات الدارسين العرب المتفلسفين إلى التراث المنقول، كان من آثارها إغناء الجوانب النظرية وتطعيمها بمستجدات مبتكرة. ومن بين العلماء الذين اشتغلوا بنقل التراث اليوناني وشرحه قُسْطا بن لوقا (ت حوالي 923)، وثابت بن قُرّة الحرّاني المتوفى عام 901/288 م، ومحمد بن زكريا الرازي (ت 923 م).

وقد استفاد السرخسي من هؤلاء وخاصة ثابت بن قرة رفيقه في حاشية المعتضد، مثلما أفاد من تتلمذه على الكندي حتى غدا من أوثق تلاميذه صلة به على الإطلاق.

وبقدر ما تغمر نفوسنا الحسرة لضياع مؤلفات السرخسي في الموسيقى والغناء - وعددها كما رأينا لا يقل عن السبع - بقدر ما تتبدد خيوط هذه الحسرة كلما طالَعَنا الحسَن الكاتب بنص من نصوص آثاره الضائعة.

ونلم شتات النصوص التي بثها الحسن الكاتب في ثنايا كتابه فتتشكل بين أيدينا حصيلة تقيم كراسة تربو صفحاتها على الخمس[33].

تتوزع أقاويل السرخسي ستة أبواب من كتاب الحسن الكاتب بيانها كالآتي :

- الباب الأول، وموضوعه الطرب.
- الباب الخامس، في فضل الغناء القديم
- الباب السابع، في فضل الصناعة.
- الباب السابع عشر، في الحروف المصوتة.

– الباب الثالث والعشرون، وموضوعه المواضيع المعينة في الألحان.

– الباب الثاني والأربعون، وعنوانه فائت الكتاب.

منهج السرخسي

من الصعب تحديد معالم منهج يتحكم في سائر النصوص التي تتضمنها هذه الدراسة، وذلك راجع بالأساس إلى فقدان أيّ ترابط بينها مما يجعل كل واحد منها مستقلا بموضوع خاص لا صلة له بالذي قبله أو بالذي بعده.

ومع ذلك فإن المقبل على قراءة هذه النصوص سرعان ما تأخذ بلبه متانة أسلوب الكاتب ويأسره وضوح عبارته وحلاوة جرسها.

وقد رأينا ـ قبلا ـ كيف أن القفطي أشاد بتصانيف السرخسي فنعتها بأنها حلوة العبارة، كما نعتها بأنها جيدة الاختصار. وهذه ـ أيضا ـ من مميزات تصانيفه التي اعتمد فيها التركيز والإيجاز، فهو إن عارض رأيا قارع الحجة بما يدحضها في لغة هادئة لا تشنّجَ فيها ولا تحامل،وهو إن عرض لشرح قضية جانب الإطناب وجافى الاستطراد وحشو الكلام.

وبالرغم من السمة الفلسفية التي تطبع كلا مه وتكسو خطابه فان أسلوبه يظل بعيدا عن الغموض والتعقيد،ولايراكم المصطلحات العلمية حتى لا ينبهم على القارئ.

مصادر السرخسي

باستثناء النص الرابع الذي ورد فيه قول إسحاق الموصلي : ليتنا نؤدي ما أخذنا كما علمنا، فإن باقي النصوص الثمانية لا تسعفنا في الوقوف على المصادر التي يحتمل أن يكون السرخسي قد استفاد منها.

وقد أورد السرخسي عبارة إسحاق في سياق التنويه به لتمسكه بالغناء القديم والرد على من ذهب فيه من معاصريه مذهب التحريك والزيادة حتى خرج به عن حقه. على أننا نقف في ثنايا النص السادس بصدد كلامه عن الحروف المصوتة وغير المصوتة على إشارته– مرة أخرى–إلى إسحاق الموصلي وذلك في سياق الرد عليه فيما ذهب إليه من اعتبار النغم اللحنية هي ذاتها حركات الإعراب الثلاث إذا مدت.

تبقى الإشارة إلى أنه يمكن الوقوف على ما قاله الموصلي بالحرف من خلال الكلام الذي وطأ به الحسن الكاتب لإيراد رأي السرخسي في الموضوع.

أقاويل السرخسي كما جاءت في

«كتاب كمال أدب الغناء» للحسن الكاتب

الباب الأول في موضوع الطرب[34]

النص الأول

قال أحمد بن الطيب السرخسي : ليس دليل الفهم في السامع أن يطرب أو يتطارب، بل ربما كان سرعة الطرب أدل على جهل السامع بما سمع وقلة معرفته، يبين ذلك من أنك ترى من لا يحسن الغناء ولا الشعر ولا النحو ولا العروض إذا سمع شيئا في الغناء، وان كان في غاية الخروج والنفور والخطإ بعد أن يقال إنه غناء فهو يطرب عليه. وإذا سمع ذلك من تبصر النحو ولا تبصر الغناء نقص من طربه بمقدار ما فيه من لحن الغناء، وإذا سمع ذلك الغناء بعينه من تبصر الشعر والنحو والعروض والغناء لم يطرب أصلا، بل يكون ذلك الغناء

عنده بمنزلة القذف الذي لا يشتهى استماعه أصلا. فأقلّ الناس علما بالغناء أسرعهم طربا على كل مسموع، وأكثر الناس علما وأشدهم تقدما في معرفته أبعدهم طربا عليه وأقلهم رضى بما يسمع منه. وهذه القوة في الإنسان قوة شريفة، وأخلق بها أن تكون معدومة في كثير من الناس، وإنما تخص الإنسان التام التمييز.

النص الثاني(35)

إنا نحتاج في تمام إدراك شرف هذه الصناعة إلى قوة حس السمع وقوة التمييز، فإن الذي يطرب البهائم وجهال الناس من حسن الأصوات هو يطرب علية الناس أيضا، والذي يطرب علماء الناس من تمييز حسن التأليف وهندام النظام ومعرفة الخروج والمتباين والمتنافر هو لهم دون جهال الناس والبهائم، ولذلك ترى أوفر الناس علما بهذه الصناعة أفقرهم من المطربين فيها وأجهل الناس بها أيسرهم من يطربه لأن العالم يحتاج أن يجتمع له أسباب الطرب حتى يطرب بالتمام، وإلا نغصه عليه النقصان ومنعه الخلل من التذاذ.،والجاهل لا يؤلمه ما يعرض من الخلوّ والنقصان، فإذا يحتاج في وقوع الطرب الحقيقي إلى ألطف الحس وقرب المعرفة بالصواب لتكون المعرفة بالصواب مع حسن الصواب ملازمين، وهذا يقع بسلامة الطباع ودربة السماع والمواظبة على تعرف أدلته وبراهينه من المهرة به.

النص الثالث(36)

ليس صناعة الغناء من الصناعات التي إذا طلبها الإنسان أمكنه معرفتها، وإن عني به معلم حاذق في تفهيمه إياها وأكثر استماعه لها من المتقدمين فيها،لأنها تحتاج إلى قوة في النفس قابلة لها وطبع سلس القياد فيه وسرعة لقن

بما يمر منها ولطف تحصيل لغامض أجزائها ونسب مقاديرها في أوضاع نغمها وشدودها[37] وأزمنة إيقاعها. وليس يغني التعليم فيها دون الطبع ولا الطبع دون التعليم. فإذا اجتمعت لمن رامها طبيعة محمودة وقوة قابلة ومعلم حاذق ومران دائم وفراغ متصل وشهوة تامة فقلّ ما يكدي[38].

فإن نقص من هذه الأسباب شيء دخل عليه من النقص بقدره، وإذا اجتمعت في المغني هذه الخصال من الحذق والإحسان واجتمع للسامع مثل ذلك من الفهم كان الطرب تاما، ويخلص السامع إلى الروح فتظهر حينئذ الأريحية وتبدو قوة النفس المميزة، فتتشكل بأشكال المعرفة وتلبس خلع التصرف مع الغناء وتجري في ميدان السرور العلمي وتأنف من الرذائل حمية وتستجلب الفضائل ترفّعاً إليها وتشرفاً بها، وإن كانت قبل تنسب إلى جبن تشجعت، أو إلى بخل جادت، أو إلى خوف استهانت فذلت عندها المخاوف وصغرت لديها الأهوال وأخذت لها لبس الفضائل زهدا، وقوة الأمن سرورا فلججت في بحر الطرب وركضت في ميدان السرور.

الباب الخامس : في فضل الغناء القديم

النص الرابع[39]

قد جعل أهل هذا العصر تحريك الغناء المسمط وتشذيره وتحسينه طريقا إلى نفس ما قوي من الألحان وإخراجه عن حقه، وذلك أنهم عجزوا عن أدائه على حقه ـ وتلك مفسدة للمتعلم ـ لأن هذه الألحان التي قد استعملوا فيها التحريك لا تكاد تصح لهم، لأن اللحن الواحد قد حركه جماعة على ضروب مختلفة، كلما سمع الإنسان منها ضربا نسي غيره، ولم تقبل نفسه الكل، وكثرت فيها الدعاوى. وقد كان إسحاق الموصلي – على تقدمه وفضله – يقول : ليتنا نؤدي ما أخذنا كما علمنا. فهذا ما يقوله إسحاق، فما ظنك بغيره !

وأهل هذا المذهب قد اقتصروا على ما يصوغون بزعمهم ويحركون في حسابهم ويحدثون بمنزلة الحديث من الفاكهة، فلا تلبث أغانيهم إلا يسيرا حتى تفنى كفناء الفاكهة، ثم يحدثون سواها، فلا يزالون كل سنة يتركون ما كانوا أحدثوه في العام الذي قبله. ولسنا نجد أَخْذَ أغانيهم ولا نَسَبها الى أحد منهم، وإنما مثلهم فيما يحدثون في كل عام وينسونه في العام المقبل مثل القرد والجراد، فإنه يقال في أمثال العجم : إن قِرداً تفرغ لصيد الجراد، وكان كلما صاد واحدة صبر ساعة وقعد عليها، فإذا رأى أخرى وثب فأخذها وطارت الأولى، فطال زمانه ولم يحصل إلا على التي أخذها آخرا. وكذلك هؤلاء : إنما يحصل لهم من غنائهم غناء السنة التي هم فيها ويذهب الباقي هدرا إلا ما عني بحفظه من جهة الأشعار التي قيلت في ملوك العصر، فإنها تبقى لهذه الجهة وتحفظ، فإن وجد ما سواه فنَزْر يسير.

الباب السابع في فضل الصناعة[40]

النص الخامس :

لم تزل هذه الصناعة ـ إذا طلبت حق الطلب وتبع كل محمول فيها حتى يحاط بمعرفته ـ تتقدم سائر التعاليم عند الفلاسفة بالشرف، فإنهم كانوا يرون أن علم العدد وعلم الهندسة وعلم النجوم دون علم اللحون في الشرف. إلا أنه لما تعلق باسم هذه الصناعة دون معناها سقاط العوام فادّعوا منها ما لا يحسنون واكتسبوا بها من قوم لا يفهمون وضعها ذلك عند مَن عَدِم التحصيل. فأما المحصلون فإنهم لم يروا أن يلزموا من أصاب عتب من أخطأ ولا من علم نقص من جهل، بل وفوا الصناعة حقها وعرفوا لها قدرها ونظروا إلى علمها بعين التعظيم والتكرمة وقصدوا من صنعها بالبر والمواساة.

الباب السابع عشر في الحروف المصوتة

النص السادس[41]

قال ابن الطيب : فيجب من هذا أن تكون الحروف السواكن غير الألف والواو والياء وما يمتزج منهن، ولو كان كذلك لكان اللحن متخلخلا تسد خلله الحروف التي لا نغم فيها، فإنه ليس حروف الشعر كلها متحركة، ولا ما يتحرك منها تمتد حركته، ومن ذلك «اللام والنون والميم» يوقف عليها بمدة. فإن ذكر أنه ليست فيهن نغمة أكذبه العود، لأن لكل واحدة منها موضعا من الدساتين[42]، وكذلك غيرها من الحروف السواكن. وذكر أن الألف والواو والياء يمتزج منها ثلاثة أصوات فتصير ستة، وتختلف بالمد وبالقصر فتصير اثنتي عشرة نغمة، وإنما المد والقصر لطول الزمان في النغمة وقصره، وليس في امتداد الشيء وقصوره ما أخرج من نغمة إلى نغمة. ولو كان ذلك لتولّد منه أكثر من اثنتي عشرة نغمة بحسب مراتب المد والقصر. ولا يشك من له علم بهذا الفن من الغناء في أن ما كان على جزأين مستويين فالجزء الثاني مثل الأول في نغمه مثلا بمثل، لتكرر كل نغمة سبقت في الجزء الأول في مكانها من الجزء الثاني بالسواء. وقد نجد الشعر يلبس اللحن فينقاد صاحب اللحن فيه بحركات حروف الشعر فيكون موضع من الجزء الأول «ألفا» تقوم مقامها من الجزء الثاني «واو» أو «ياء» من غير تغيير النغم. ولو كانت النغم الألف والواو والياء لكررت في الجزء الثاني كما كان في الجزء الأول، فالألف والواو والياء حروف الأصوات التي تلزمها النغم، لأنها في كل حال لا تخلو من مراتب الرقة والغلظ اللازمة للأصوات، وهي التي تُسمّى الشدة واللين، فالنغمة مدة مسموعة بوقفة واحدة، وأذا كان كذلك لم يكن ما تبع الحروف حرفا كما ظن إسحاق، ولكن الصحيح أن النغمة لا تنفك من حركة، فحيث يكون الحرف تكون الحركة، وحيث تكون حركة الحرف تكون نغمة، والحرف لا ينفك من حركة وسكون، وليس إذا لم تنفك الصفة من موصوفها ولا التابع من متبوعه أن يكون التابع هو المتبوع والصفة هي الموصوف. فقد بان ما النغمة.

الباب الثالث والعشرون في المواضيع المعينة في الألحان

النص السابع[43]

... فأما ما قاله الكندي وابن الطيب وغيرهما فقالوا : إن النشيد ما ابتدئ في أول أبيات شعره أو في أقسام كلامه، إذا لم يكن شعرا، بكلمات غير منغمة. والاستهلال هو ما ابتدئ في أوله بكلمة غير منغمة.

الباب الثاني والأربعون في فائت الكتاب

النص الثامن[44]

ليس يمكن أن يؤتى بالبرهان على جميع ما في هذه الصناعة، لأن البرهان ليس يقتحم سائر الصناعات ولا يتهيأ فيها. أما صناعة الأرثْماطيقى فإن دليلها العدد، يعني الحساب، وصناعة الهندسة دليلها البرهان إلى الاعتبار والإقناع. وصناعة الموسيقى دليلها الاعتبار والبرهان والتشبيه والإقناع بالأولى والأحرى.

النص التاسع[45]

فإن المبدأ الذي يذكر أن رجلا من المتقدمين خرج به إلى وجدان النسبة التي بين الأجسام القارعة والمقروعة، إنما ذ كر أنه مر بسوق الصفارين[46] أو الحدادين، فسمع أصواتا أحس بأنها منا سبة ومشابهة لصوت كان يعرفه، فتأملها فوجدها مؤتلفة، فلما تتبع تلك المقروعات والقوارع وجدها في التناسب على مثل ما أحس عليه تلك الأصوات، فلما انصرف ناسب بين أجسام كثيرة نسبا مختلفة، ثم طلب بحسن السمع : في أي تلك النسب تجد تلك الأصوات المؤتلفة، حتى ظهر له ذلك، فأدرك ما أراد بالنسبة والعبرة والحس.

تحليل النصوص

النص الأول

يناقش السرخسي في هذا النص مسألة الطرب الذي يحصل للسامع من سماع الغناء. وهو يربط طرب السامع بمدى فهمه للأثر المسموع، ومن ثم فعنده أن الطرب أو تصنع الطرب لا يشكل دليلا على فهم السامع، بل ربما كانت سرعته دليلا على جهله لما سمع وبرهانا على قلة فهمه له.

وقد أورد الحسن الكاتب نص السرخسي في سياق معارضته لما قاله إسحاق الموصلي يوم سئل : من أحسن الناس غناء ؟ فأجاب : من سقاني أربعة أرطال. وكان يعني المغني عقيداً مولى صالح بن الرشيد بعد أن سمعه يغني، فجعل يستعيده ويشرب حتى والى بين أربعة أرطال[47].

وما كان لإسحاق أن يمدح غناء عقيد لو أنه كان في حالة صحو، غير أن الشرب أطربه فأنطقه بذلك، لاسيما وقد سأله المأمون يوما عن رأيه في نفس المغني، فأقبل عليه يسمعه وهو يغني وغيره يضرب عليه .فلما انتهى سأله : في أي طريقة هذا الصوت الذي غنيت ؟ فقال : في الرمل. ثم سأل الضارب : في أي طريقة ضربت أنت ؟ قال: في الهزج الثقيل. فالتفت إسحاق إلى الخليفة وقال : ما عسيت أن أقول في صوت (أغنية) يغني مغنيه رملا ويضرب ضاربه هزجا، وليس هو صحيحا في إيقاعه الذي ضرب عليه[48].

ونعود إلى السرخسي فنجد أنه يصنف السامعين في مراتب ثلاث :

1 – سامع جاهل بالغناء والشعر والنحو والعروض، فهذا سريع الطرب على ما يسمع وإن كان ذلك الغناء خارجا عن الوزن نافر اللحن بالغ الخطإ. وإنما حسبه أن يقال له : إنك تسمع غناء فيطرب عليه.

2 – سامع متبصر في النحو والشعر والعروض، غير أنه جاهل بالغناء فهذا ينقص طربه بمقدار ما يقوى جانب الغناء ويرجح اللحن في الصوت المغنى.

3 – سامع متبصر في الشعر والنحو والعروض والغناء، فإذا سمع الصوت عينه لم يأخذه الطرب أصلا.

و يخلص السرخسي إلى النتيجة التالية، وهي أن أقل الناس علما بالغناء أسرعهم طربا على كل أثر مسموع، وأن أكثر الناس علما بالغناء وأشدهم تقدما في معرفة قواعده وضوابطه أقلهم رضى بما يسمعون. وهذه قوة شريفة يختص بها من الناس من كان تام التمييز.

النص الثاني :

يحتاج المرء لإدراك شرف صناعة الغناء إلى أمرين اثنين :

الأول : حسن السمع، ومعناه رهافة الذوق.

الثاني : قوة التمييز، ومعناه معرفة علم الغناء.

وعند السرخسي أن علية الناس وأدراهم بالغناء يتساوون مع البهائم وجهال الناس في أنهم يطربون من حسن الأصوات، غير أنهم يختصون ـ دون الآخرين ـ بتمييز حسن التأليف، ومعرفة هندام النظام، وإدراك مواقع الخروج والتباين والتنافر في العمل المسموع. ويشهد على ذلك أن العارف يحتاج إلى اجتماع أسباب الطرب حتى يحصل له تمامه، فإذا شاب العمل المسموع نقص أو عراه خلل نغص ذلك عليه الطرب ومنعه التلذذ. أما الجاهل فلا يؤلمه ما يعرض للعمل من نقص أو خلل.

ولا مناص من أجل حصول الطرب الحق من توفر الذوق السليم، والمعرفة بالصواب، فهذان شرطان متلازمان، غير أنهما لا يقعان إلا بسلامة الطباع ودربة السماع والمواظبة على أخذ أدلته وبراهينه من مهرة العلم.

النص الثالث :

يتحدث السرخسي في هذا النص عن تعلم صناعة الغناء فيقرر أن توفر المعلم الحاذق في تفهيم أصوله، والمواظبة على سماعه من المتقدمين فيه لا يجديان الراغب في تحصيل صناعته شيئا ما لم تتوفر لديه قوة الرغبة في التعلم، والاستعداد النفسي، والطبع السلس، وسرعة الإدراك، وعمق الفهم لما غمض من أجزاء الصناعة ونسب مقاديرها في مواقع النغم وكمال توافق نغمتي الأبعاد الوسطى والكبار.

وفي رأيه أن اجتماع الطبع والتعلم ـ وبعبارة أخرى، الموهبة والعلم ـ ضروري للمتعلم، وليس يغنيه أحدهما عن الآخر. ويعني ذلك أن من رام صناعة الغناء متى اجتمعت له القابلية والطبيعة إلى جانب المعلم الحاذق والمتمرن الدائم والتفرغ المتصل قويت حظوظ تحصيله لصناعة الغناء، فإن نقص واحد من هذه الأسباب دخل النقص في التعلم بمقدار ذلك السبب، وإن اكتملت وصاحبها تمام الفهم عند السامع كان ذلك أدعى لحصول طربه التام فيخلص إلى الروح، وتظهر أريحيته، وتبدو عنده قوة النفس المميزة فتتقمص هذه النفس الشكل الذي يتلاءم ومستوى السامع لما يسمع، وتسبح في عالم السرور العلمي، وتتنزه عن الرذائل بما اكتسبته من حمية وتستجلب الفضائل توقاً إليها، وتستبدل الجبن شجاعة، والبخل جوداً، وتهون عندها المخاوف، وتصغر لديها الأهوال، وتزدهي بارتداء لباس الفضيلة، وتتقوى بمسرات الأمن، فتسبح في بحر الطرب، وتركض في ميدان السرور.

هذه هي النصوص الواردة في باب الطرب، وقد رأينا كيف جاءت متعاقبة وفق نسق منطقي ومتكامل، بحيث يفضي أولها إلى ثانيها، وثانيها إلى ثالثها. فالسرخسي في النص الأول وهو يعرض للطرب الحاصل للسامعين يصنف هؤلاء في ثلاث مراتب تتفاوت فيها درجات تجاوبهم مع الأثر الموسيقي الواحد ويعلل ذلك التفاوت بمدى معرفتهم لمقومات العمل الموسيقي وهي عنده : الشعر

والعروض والنحو والغناء. فالمعرفة - إذن - شرط تفاعل السامع مع الأثر المسموع لحصول الطرب، ودرجاتها معايير لمدى ذلك التفاوت.

فإذا خلص من ذلك انتقل بالقارئ في النص الثاني إلى أن الطرب - متى حصل - لا يفي وحده بحاجتنا إلى إدراك شرف الغناء، ثم انتقل به في النص الثالث لبيان ما يحتاج إليه الراغب في تعلم صناعة الغناء.

وتعكس أقاويل السرخسي بخصوص موضوع الطرب بعضا من نظريات فلاسفة اليونان، شأنه في ذلك شأن فلاسفة الإسلام الذين عنوا بنقل التراث الفكري اليوناني. ولنا أن نتلمس بعض ملامح هذه النظريات من خلال استعراضه لمقومات العمل الموسيقي (الشعر والعروض والنحو والغناء)، فإن أصداءها مما يتردد في ثنايا أقاويل فلاسفة اليونان بخصوص العناصر المكونة للعمل الموسيقي.

النص الرا بع :

أخذ الحسن الكاتب هذا النص من أحد مؤلفات السرخسي في الموسيقى. وقد أورده في سياق التدليل على فضل الغناء القديم، فوطأ له بمدخل ذكر فيه «أن بعض الناس يسترذل الغناء القديم الجيد، فإذا سمعه لوى شدقه وقال : هذا عمل مشط الحديد، ورحم الله آدم، ورحم الله أبا قابوس، وهذه أساطير الأولين»، كناية عن استهجانه لما يسمع، حتى لكأن الغناء القديم من قبيل مشط الحديد، أو مما يدخل في أساطير الأولين، أو مما يرجع إلى عهد آدم عليه السلام، أو مما كان مدّاحو النعمان بن المنذرِ يتغنون به في العهود البائدة.

في هذا النص يتحدث السرخسي عن الغناء القديم فيذكر أنه كان من النوع المسمط، وهو الغناء الثقيل... غير أن المغنّين من أهل زمانه أخذوا

يؤدّونه على نحو مغاير لما كان عليه أصلا، متوسلين بأساليب التحسين من قبيل هز حركته الإيقاعية وتشذير جمله اللحنية بتقطيعها إلى حروف قصار وبذلك نقصوا ما قوي من ألحانه وأخرجوه عن حقه.

وقد أرجع السرخسي سلوك هؤلاء المغنين إلي عجزهم عن أداء الغناء القديم مسمطا وعلى وجهه الحق، ثم كان أسوأ ما صنعوه أنهم أخذوا يعلّمون للمتعلمين فجاء ت ألحانه منحرفة عن أصلها بسبب ما استعملوا فيها من التحريك وزاد في الطين بلّة أن اللحن الواحد حرّكه جماعة على ضروب مختلفة فتعددت وتشعبت صور غنائه حتى أنسى بعضها بعضا، وبذلك غدا الغناء القديم موضعا لادعاءات المغنين.

وقد عبّر السرخسي عن تأسيه لما أصاب الغناء القديم فردد ما قاله يوما إسحاق الموصلي - على تقدمه وفضله في الغناء - «ليتنا نؤدي ما أخذنا كما علمنا».

وقد ختم السرخسي هذا النص بما يفيد أن أغلب الغناء القديم كان عرضة لصنوف التغيير بما أحدثه أهل زمانه فيه من التشذير والتحريك ولم يكد يسلم من هذا الغناء الذي ذهب هدرا سوى ما عُني بحفظه من جهة الأشعار التي قيلت في ملوك العصر، فإنها تبقى لهذه الجهة وتحفظ. أما ماكان شعره في غير مدح الملوك فقد مسه التغيير، وإن وُجِد شيء منه فنزرٌ يسير.

ولعل ما ذكره السرخسي ها هنا أن يكون ذا صلة بما سيشير إليه الفارابي بخصوص ظاهرة تدنّي الغناء على عهده. فقد قال : «ولما كان ما يستعمل من الألحان في زماننا هذا وفي بلداننا هذه هي التي كادت أن ترذل عند أهل الخير وما كان يعتقد في جملتها إنما يعتقد على حالها التي بها تستعمل عند الجمهور في زماننا هذا[49].

النص الخامس :

تحدث السرخسي في هذا النص عن موقع علم الموسيقى من بين علوم التعاليم، أي العلوم النظرية، فذكر أنه عند الفلاسفة يحتل منها موقع الصدارة متى طلبت صناعته حق الطلب وحملت معارفه على وجه التأويل الصحيح حتى يحاط بها إحاطة تامة.

وإذا كان سقاط العوام قد تعلقوا بهذه الصناعة دون إدراك معناها فادّعوا منها ما لا يحسنون معرفته، واتخذوها سبيلا للاسترزاق عند قوم لا يفهمون، فإن ذلك لم يضع من قدرها عند العارفين أبدا، وما كان لهؤلاء أن يؤاخذوا المصيب بذنب المخطئ، ولا العالم بنقص الجاهل، ولكنهم وفوا الصناعة حقها وعرفوا لها قدرها، ونظروا إلى علمها بعين التعظيم وقصدوا من صنعها بالبر والمواساة.

ولا ريب أن مثل هذا القول ينم عن التأثر بأقوال فلاسفة اليونان. وبالفعل فقد أورد الحسن الكاتب ـ بعده ـ أقوالاً لذي القَرنَيْن ونيقوماخس وأرطوخس وغير هؤلاء وهي كلها تسير في سياق تأكيد موقع علماء الموسيقى في المجتمع اليوناني، كما لم يخف السرخسي نفسه أثر الترجمة في كتاباته عندما قال : «لم تزل هذه الصناعة... تتقدم سائر التعاليم عند الفلاسفة بالشرف».

النص السادس :

يتردد الحديث عن الحروف المصوتة في كثير من المؤلفات التي عنيت بالتنظير للموسيقى العربية ولاسيما منها مؤلفات الكندي والفارابي والحسن الكاتب وابن الطحّان مثلما يتردد في المؤلفات التي عنيت بعلم التجويد والقراءات.

وقد لخص الحسن الكاتب ما تفرق في كتب من سبقه، فذهب مذهب الفارابي في تقسيم المصوتات الطويلة إلى ثلاثة هي : الألف، والواو، والياء التي

تقع أبدا في أواخر الكلام ممتدة في اللحن.[50] وهذه هي المعروفة عند علماء اللغة وأصحاب القراءات بالحروف الجوفية لخروجها من الجوف، أو بحروف المد واللين لأنها تخرج بامتداد ولين من غير كلفة على اللسان لاتساع مخرجها[51].

ثم توالد عن امتزاج هذه الحروف في حال امتدادها تسعة حروف أخرى بحسب أصناف الإمالات الحادثة بالامتزاج، كإمالة الألف نحو الياء، والياء نحو الواو.. فارتفع عددها إلى اثني عشر حرفا مصوتا. فإذا أضيف إلى هذه الحروف حروف الغُنّة ـ وهي اللام والميم والنون السواكن ـ ارتفع عدد الحروف القابلة للمد في الغناء إلى خمسة عشر حرفا هي «جملة ما يُحتاج إليه في الألحان أشد الحاجة عند امتداد اللحن»[52]، وهي أيضا «مجموع الحروف التي تساوق النغم وتقترن بها ولا تنفك منها نغمة إنسانية، وتستعمل استعمالا سلسا، وتبين بيانا غير مستكره، وتحس حسا غير مستبشع»[53].

وقد سلك ابن الطحان المصري ـ وهو من موسيقيّي القرن الخامس الهجري ـ مسلك الفارابي أيضا، فعقَد في كتابه بابا تحت عنوان «الحروف النواطق والخُرس» أوشك أن ينقل فيه بالحرف ما ذكره في فصل الحروف المصوتة وغير المصوتة[54].

كان هذا ما أجمع عليه منظرو الموسيقى العربية بخصوص الحروف المصوتة وغير المصوتة كما بيّنا. غير أن إسحاق الموصلي انفرد بتصنيف مغاير لهذه الحروف، فانطلق من اعتبار «النغم هي الحركات الثلاث إذا مُدت». ويعني ذلك أن حركات الإعراب الثلاث ـ وهي الفتحة والضمة والكسرة ـ تتحول إلى حروف مصوتة إذا مدت فتكون الضمة إذا مدت (واوا) ساكنة، والفتحة إذا مدت (ألفا) ساكنة، والكسرة إذا مدت (ياء) ساكنة. فإذا مُزجت هذه الحروف بالإمالة تولد عنها تسعة حروف أخرى مصوتة فتصبح «عدة النغم اثنتي عشرة على حسب الحركات».

ويعقّب الحسن الكاتب على ما ذهب إليه إسحاق معارضا، ثم يسوق رأي أحمد بن الطيب السرخسي، من خلال نص طويل اجتزأه من أحد مؤلفاته في الموسيقى للرد على إسحاق والتدليل على مجافاته للصواب في هذا الموضوع.

ومن خلال استقراء هذا النص يبدو السرخسي ضليعا في الموضوع، خبيرا بجوانبه اللغوية والموسيقية، فهو يستعرض أقوال الموصلي ويحللها فقرة فقرة ليخلص إلى النتائج التالية :

يقول إسحاق : إن النغم حركات الإعراب الثلاث إذا مُدّت ـ وهي الفتحة والضمة والكسرة ـ ويقول أيضا : إن الحروف إذا مدت كانت ألفاً أو واواً أو ياء سواكناً. وهو يريد أن التصويتات التي تقترن مع النغم لا تخرج عن حركات الإعراب الثلاث. وهذا كلام باطل، ولو صح لتحول كل حرف متحرك متى مُدّ بالألف أو الواو أو الياء إلى نغمة.

ليست سائر حروف الشعر الملحن متحركة، فإن حروف اللام والنون والميم يوقف عليها ساكنة، ومع ذلك ففيهن نغمة.

لا صلة للمد والقصر إلا بمدى طول زمان النغمة أو قصره، وليس في امتداد الحرف ولا في قصوره ما أخرج من نغمة إلى نغمة أخرى، ولو صح لتعددت صور النغم بتعدد مراتب المد والقصر ومداها.

إن الألف والواو والياء هي حروف الأصوات التي تلزمها النغم، فعَبْرها تندرج مراتب الرقة والغلظ اللازمة للأصوات، وهي ما يسمى «الشدة واللين».

إن النغمة هي مجموع حركة وسكون، فهي لاتنفك من حركة، فحيث يكون الحرف تكون الحركة، وحيث تكون حركة الحرف تكون نغمة، وبالتالي فإن الحرف لا ينفك من حركة وسكون.

النص السابع :

من القضايا التي عني منظرو الموسيقى العربية بطرحها وشرحها موضوع العناصر التي تقوم عليها البنية الفنية للصوت والتي تحدد الخطوات التي تشكل قالبه الفني.

ونريد ب «الصوت» هنا المقطوعة الشعرية الملحنة، وهو المصطلح الذي تواضع عليه أصحاب صناعة الغناء في الحجاز والشام والعراق، وأقام عليه أبو الفرج الأصفهاني «كتاب الأغاني» لجمع الأصوات المائة المختارة.

وقد استمر تداول مصطلح الصوت قائما في شبه الجزيرة العربية وشاع تداوله في مصر أيام حكم الفاطميين بها بدليل وروده في كتاب ابن الطحان المصري المتوفى بالقاهرة عام 449 هـ.

يتمحور النص الذي بين أيدينا والذي نسبه الحسن الكاتب للسرخسي وأستاذه الكندي حول «النشيد» و«الاستهلال»، وهما من أقسام اللحن الذي يشكل ـ إلى جانب الإيقاع والشعر ـ العناصر المكونة للصوت المغنى، ويشكل النشيد والاستهلال بدورهما ـ إلى جانب البسيط والعمل ـ الأقسام اللحنية الأربعة التي عليها يقوم عنصر اللحن في الصوت ؛ وحيث أن هذه الأقسام تتباين في سياقاتها النغمية فقد أسموها طرائق، فقيل : طريقة النشيد، وطريقة الاستهلال، وهكذا... يأتي النص في سياق كلام الحسن الكاتب عن «المواضع المعينة في الألحان»[55]. وهي ذاتها ما أ سماه ابن الطحان «ملح الغناء»[56]. وكلتا التسميتين تؤشران إلى الوظيفة التحسينية التي تضفى على اللحن الموسيقي للصوت. وفي ما يلي النص كما جاء في كتاب الحسن الكاتب، يقول الكندي وابن الطيب : إن النشيد ما ابتدئ في أول أبيات شعره، أو في أقسام كلامه اذا لم يكن شعرا بكلمات غير منغمة، والاستهلال هو ما ابتدئ في أوله بكلمة غير منغمة[57].

ومن أجل فهم هذه العبارة ووضعها في سياقها التاريخي كان لابد ـ في البدء ـ من الرجوع إلى رسائل الكندي، غير أن ذلك لم يفدنا في الوقوف عليها أو على ما يقاربها لفظا ولا معنى ومن ثم يرد احتمال أن يكون الحسن الكاتب قد نقل هذه العبارة من أحد مؤلفات السرخسي ضمن ما دونه من إملاءات أستاذه، ومن ثم ـ أيضا ـ لم نجد بدا من تقصي ما ذهب إليه المنظرون الذين تناولوا نفس الموضوع بعد عهد الكندي والسرخسي، ونقصد هنا على التوالي الفارابي ثم الحسن الكاتب وابن الطحان، وهذان من منظري القرن الخامس هـ، وذلك لمعرفة مواقع الاستهلال والنشيد من الصوت ثم ما أصبحا عليه في عهودهم.

ونبدأ بالفارابي باعتبار أنه أقرب زمانا إلى السرخسي، فنجده يقول عن الاستهلال : «جزء صغير من أول القول يجعل مقدمة للحن، وهو يأتي مملوء باللحن على مجرى العادة»[58].

أما ابن الطحان فالاستهلال عنده «ما يمهد به للصوت. ويراد به التنبيه على الغناء وأنه مقدمته»[59].

وتوحي عبارة «التنبيه على الغناء» بما يفيد أن جزء الاستهلال غير منغم وذلك ما يعنيه ـ أيضا ـ تعريف معاصره الحسن الكاتب : «والاستهلال يكون جزء من البيت، وهو أن يؤتى به غير منغم، بل يكون مرسلا»[60].

ومن تحليل التعريفات السابقة نستطيع استخلاص ما يلي :

يحتل الاستهلال موقعه من أول الصوت، غير أنه عند السرخسي (كلمة)، وعند الفارابي (جزء) صغير من أول القول، وفي كليهما معا ما يفيد أن الاستهلال خارج عن «الصوت»، بينما هو عند الحسن الكاتب جزء من البيت الأول من الصوت.

وظيفة الاستهلال هي التنبيه على الغناء والتمهيد له. ويعني ذلك أنه كان يؤدى مرسلا وخاليا من التنغيم، وبذلك فهو أشبه بما يصطلح عليه في الغناء الأوبرالي بالغناء الإلقائي récitatif. ولا يشذُّ عن هذا المعنى غير الفارابي الذي يذكر أنه يأتي مملوءً باللحن.

وننتقل إلى النشيد فنجد الفارابي يعرّفه كالآتي : «جزء أعظم من الاستهلال يتخذ مقدمة للحن ويحتل إنشاد المصراع الأول من البيت الأول أو البيت كاملا»[61].

وفيما يحتل «النشيد» عند الفارابي موقع المقدمة من «الصوت» سواء شغل صدر البيت الأول أو شغل صدره وعجزه معا فإننا نلاحظ تنوع مواقعه عند غيره من المنظرين. وهكذا فهو ـ عند الكندي والسرخسي ـ في أول أبيات الشعر تارة، وفي أقسام الكلام إذا لم يكن شعرا تارة أخرى.

أما عند الحسن الكاتب «فالنشيد يكون من البيتين في واحد ومن الأربعة في اثنين إما متواليين وإما غير متواليين». وأما ابن الطحان فمواقع النشيد عنده أكثر تنوعا، ولنا في الجدول التالي ما يساعدنا على تحديدها :

ومن خلال المقارنة بين ما ذكره الكندي والسرخسي من جهة وبين ما أتى به الفارابي والحسن الكاتب وابن الطحان من جهة أخرى يتبين أن «النشيد» كان على عهد الأولين في منتصف القرن الثالث الهجري على حالتين :

ما ابتدئ في أول الصوت إذا كان شعرا.

ما جاء في أقسام الكلام إذا لم يكن شعرا. والكلمات في هذه الحالة منغمة. والى هذه الطريقة أومأ ابن الطحان عندما قال : «أما القدماء فكان مذهبهم أن يغنوا من «النشيد» ما يكون من عشرة أبيات وأقل وأكثر. وكل هذه الأشعار الطوال خالية من المحاسن قليلة النغم. وتقسيم الشعر فيها».

نوع الصوت	البنية الشعرية	موقع النشيد
المصراع	بيتان	لحنا صدر البيتين الأول والثاني
المبايت	أربعة أبيات	لحنا البيتين الأول والثاني
المزدوج	أربعة أبيات	لحنا البيتين الأول والثاني
المسهم	بيت واحد مقسم إلى ثلاثة أجزاء	لحن الجزء الأوسط
المعكوس	بيت واحد	لحن المصراع الثاني إلى آخره ومنصرفه حتى انقضاء فاصلته

وشبيه بهذا المعنى ما ذكره الحسن الكاتب في إشارة إلى ما كانت عليه طريقة القدماء : «فأما ما زاد على ذلك (أي الأربعة أبيات) فلا يستعمله إلا أصحاب القصائد. فأما النشيد في خمسة أبيات وما زاد فإنه يسمى (النصب) عند الطنبوريين. وحكى أبو الفرج... أنه لا يعرف إلا في الطنبور»[63].

ولنا أن نخلص ـ بعد هذا ـ إلى أن «النشيد» كان في القرن الثالث من الناحية الموسيقية البحت يحتمل صيغتين اثنتين : إحداهما منغمة، والثانية غير منغمة، ثم أصبح في القرن الخامس قسما منغما من أقسام اللحن الموسيقي الذي تشاد عليه بنية الصوت، مثلما أصبح ـ والى جانبه الاستهلال ـ مما اعتاد المغنون الابتداء به في أول المجلس[64].

النصان الثامن والتاسع :

عرض الحسن الكاتب في الباب الثاني والأربعين من كتابه لبيان حدوث الألحان من الحلوق الإنسانية والآلات المصنوعة، وكذا حدوث الصناعات العملية من صناعة الموسيقى وأسباب ذلك الحدوث[65] معتمدا ـ بصفة خاصة ـ على ما ذكره الفارابي في «كتاب الموسيقى الكبير»[66]. وقد ذيل هذا الباب بنصين استمدهما من بعض مؤلفات السرخسي، وذلك في سياق الاحتجاج بما ذهب إليه الفلاسفة والحكماء في كتبهم الموضوعة من آراء حول موقع البرهان العقلي من صناعة الموسيقى، وأول من استخرج نسب الأصوات.

في النص الثامن يتحدث السرخسي عن موقع البرهان في التدليل على ما في الصناعات العلمية كالموسيقى والأرِثْماطيقى والهندسة وكذا تفاوت أهميته من صناعة إلى أخرى.

ومن المعلوم أن البرهان هو أحد أصناف المخاطبات الخمس التي تندرج في ما أسماه الفلاسفة صناعة التحليل في علم المنطق. وهو يقوم على مبدإ الاستنتاج اليقيني للأشياء ويحتل أعلى مراتب الثقة والتثبت متقدما على الأصناف الأخرى وهي الجدل الذي يوافق الظن، والخطابة التي تعتمد صناعة الإقناع، والأقاويل السفسطائية المغلطة، والتحليل الذي يعتمد الشعرية.

وقد ألمح الفارابي إلى أن «صناعة الموسيقى النظرية بعض مبادئها علوم متعارفة بالطبع، وبعضها تبرهن في صنائع أخرى، وبعضها حاصلة عن التجربة»[67]. ومحصل هذا الكلام أن البرهان اليقيني ـ عند السرخسي ـ لا يكفي ـ وحده ـ لإقامة الدليل على صحة النظريات التي تحكم قواعد صناعة الموسيقى ولا يقتحم سائر أمورها، إذ من أجل أن ينفذ الناظر فيها إلى كنهها لا مناص من أن يركب أدوات التحليل الأخرى، وهي الاعتبار والتشبيه والإقناع باعتبار أنها منافذ إلى التخييل والأقاويل والخطابة، ثم لابد له ـ بعد ذلك ـ من أن يمتلك

القدرة على الإحساس بما يهتدي إلى إدراكه عن طريق العلم، وأن يكون مرتاض السمع لاستيعاب ما ينتهي إليه من النغم والألحان. ذلك أن الموسيقى ـ قبل كل شيء ـ صناعة عملية تخاطب الحس وتحرك الانفعالات بدوافع من الفطر الغريزية، فإن فات العالم أن يحس فاته ـ أيضا ـ أن يقتحم سائر مكنونات الصناعة مهما أسهب في بيان عللها والبرهنة على كمالها.

ويبدو السرخسي – هنا – وقد التقى مع أستاذه الكندي، أو كأنما اطلع على بعض مقولاته في الموضوع ذاته حينما ذكر «أن كثيرا ممن ينسب إلى البراعة في علم صناعة الموسيقى النظرية من القدماء لم يكونوا مرتاضي الأسماع في جميع ما هو طبيعي للإنسان من النغم والألحان».

وقد مثل الكندي لهؤلاء بالفيلسوف اليوناني بَطْليموس صاحب التعاليم الذي قال في كتابه في الموسيقى : «إنه لا يحس بكثير من ملائمات الغناء (يعني الاتفاقات العظمى) وأنه إذا أراد امتحانها أمر الموسيقي الحاذق المرتاض بامتحانه له»، كما مثل لأولئك بالفيلسوف ثامسطيوس شارح كتب أرسطو في المنطق أحد أجلّة أصحاب أرسطوطاليس، ومن المتبحرين في مذهبه، فنقل من كلامه ما نصه : «إني أعلم مما تعاطيت من التعاليم (وضمنها علم الموسيقى) أن النغمة المفروضة موافقة للتي تسمى الوسطى، ولا أحسّ باتفاقهما لقلة ارتياضي بهذا الفن».

وفي شيء من الاستغراب يعقّب الكندي على كلام الفيلسوفين اليونانيين فيقول : المفروضة (أي نغمة القرار) هي نغمة مطلق البَمّ في العود، والوسطى هي نغمة سبّابة المثنى (أي جواب القرار)، واتفاقهما هو أعظم الاتفاقات، وقل أنسان ألا وهو يحس باتفاقهما. وقد خبر ثامسطيوس أنه لا يحس باتفاقهما، وأنه قد علم بالعلم النظري اتفاقهما، ولم يكن ذلك مما ينقصه في العلم النظري. ويختم الكندي استغرابه بما ذكره أرسطوطاليس في كتابه (أنالوطيقا الثانية) :

«صاحب الموسيقى النظري ربما لم يكن عنده معرفة كثير مما في علمه عن طريق الحس وإن كان قد عرفه في علمه»[68].

وقد خص الفارابي ـ في مرحلة زمانية لاحقة ـ هذا الموضوع بفقرات بثها في مدخل كتابه «الموسيقى الكبير» فذكر أن الصناعات النظرية فيها أمور يلزم من قصدُه أن يصير من أهل تلك الصناعات أن تحصل له معرفتها بالفعل وأشياء ليس يلزمه ضرورة أن تكون معرفتها حاصلة عنده بالفعل، ولكن تكون له قوة مستفادة بما قد علمه منها على استنباطها متى شاء.

وعنده أن حصول المعرفة يقتضي الناظر في صناعة علم الموسيقى أن يحضرها في ذهنه، وأن يكررها، أما إذا لم تحصل عنده المعرفة فأقل ما يلزمه هو أن يستنبطها.

وهكذا يقرر الفارابي أنه ليس يلزم صاحب العلم النظري في الموسيقى أن يكون ممن يزاول أعمالها حتى يحصل له إما هيئة صيغة الألحان أو أدائها[69] كما لا يلزمه أن يتولى استعمال آلات الموسيقى بيديه، بل يكفيه أن يتولاه له غيره فيسمعه هو ويميزه[70]. ولا ينقص ذلك علمه[71].

ولابد ـ هنا ـ من التنبيه إلى أن الفارابي أورد في كتابه عبارة الكندي برمتها غير أنه لم يُحل القارئ عليه[72].

وننتقل إلى النص التاسع فنشير إلى أن معتقدات الناس قد تعددت منذ القديم حول مبدإ ظهور الموسيقى، فكان منهم من نسبها الى جماعة من الفلاسفة أو بعض ملوك الفُرس، ومنهم من ذكر غير ذلك.

ويتناول السرخسي في هذا النص موضوع مبدإ وجدان النسبة بين الأجسام القارعة والمقروعة ـ وهي ما أسماه الفارابي فيما بعد الأجسام غير طبيعية وعنى به الآلات الموسيقية المصنوعة ـ فيسوق ما تداول بعض الناس حكايته حول مبدإ هذه النسبة وملابسات حدوثها.

ويحيلنا كلام السرخسي ـ إلى حد ما ـ على ما أُثِر عن الخليل بن أحمد الفراهيدي حول اهتدائه إلى ابتكار أولى ضوابط علم العروض عندما طرق سمعه دقات الصفارين في سوق النّحاس، فكان ذلك بداية الطريق إلى وضع هذا العلم.

وتكمن أهمية نص السرخسي في أنه يكشف عن مراحل تشكل النظرية العلمية. فمن خلال تحليله يتبين أن أولى خطوة في سبيل إدراك النسبة التي بين الأجسام القارعة والمقروعة هي السماع المجرد للأصوات الصادرة عن عمل الصفارين والحدادين ؛ فإذا استقرت هذه الأصوات في مسمع السامع أحس بأنها مناسبة ومشابهة لصوت كان يعرفه، فكان هذا الاحساس ثاني خطوة في طريق الإدراك. وتأتي الخطوة الثالثة ـ بعدها ـ متمثلة في تأمل السامع في ما يسمع، وهذه عملية فكرية سوف تفضي إلى إدراك أن الأصوات المسموعة مؤتلفة في ما بينها.

وتتوالى ـ بعد ذلك ـ حلقات التأمل والاستنتاج بحيث يفضي بعضها إلى بعض في تناسق وتسلسل منطقيين. وهكذا ينتقل المرء من فضاء الأصوات المسموعة إلى الأدوات التي تصدر عنها هذه الأصوات، فيدرك أن بينها من الائتلاف مثل ما أحس عليه الأصوات المسموعة، ثم ينتقل إلى أجراء المناسبة بين آلات كثيرة على نسب مختلفة بغية تمحيص الرأي والوصول إلى حكم تدعمه الشواهد المتعددة، فإذا اطمأن إلى هذا الحكم طلب بحسن السمع معرفة النسبة التي تحد تلك الأصوات المؤتلفة حتى ظهر له ذلك فأدرك ما أراد بالنسبة والعبرة والحس. وهكذا يتبين أن الطريق إلى إدراك علم صناعة الموسيقى تمر عبر الحس، والتشبيه، والمناسبة، فضلا عن البرهان.

هوامش

1) المسعودى : مروج الذهب. دار الأندلس، ج 1، ص. 133ـ134.

2) ابن النديم : الفهرست، ص. 365.

3) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج. 2، ق.1، دار الفكر، ص.191.

4) نفس المرجع.

5) ابن أبي أصيبعة : المرجع السابق، ص 151.

6) ابن النديم : المرجع السابق.

7) القفطي : أخبار الحكماء. تح. ليرت. لا يبسك. 1903 ص. 78.

8) ابن النديم : المرجع السابق، ص 262.

9) القفطي : المرجع السابق.

10) ابن أبي أصيبعة : المرجع السابق.

11) ابن النديم : المرجع السابق.

12) القفطي : نفس المرجع

13) المرجع السابق.

14) حاجّي خليفة : كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون. إستنبول. 1941ـ1943. ج 5، ص. 161.

15) المرجع السابق.

16) الفهرست، ص 213.

17) نفس المرجع، ص. 214.

18) جورج فارْمَرْ : مصادر الموسيقى العربية. تعريب حسين نصار. ص. 24.

19) المسعودي : المرجع السابق. ج 1، ص. 171.

20) نفس المرجع، ص .143.

21) ابن أبي أصيبعة : المرجع السابق.

22) ابن النديم : نفس المرجع .

23) نفس المرجع.

24) المسعودي : المرجع السابق : ج 4، ص. 170.

25) نفس المرجع.

26) ابن النديم : المرجع السابق.

27) ابن أبي أصيبعة : المرجع السابق.

28) حاشية رقم 4 من «كتاب كمال أدب الغناء» للحسن بن أحمد الكاتب، ص. 20.

29) الحسن بن أحمد الكاتب : «كتاب كمال أدب الغناء». تح. غطاس عبد الملك خشبة. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر. القاهرة. 1395 هـ 1975 مز الباب الثالث والأربعون. الإرشاد، ص. 146.

31) نفس المرجع : ج 9، ص 345، ج 10، ص. 41 و42 ط. مصر.

32) نفس المرجع : ج 9، ص59 و60.

33) الحسن الكاتب : المرجع السابق، ص. 19-29/21-64/32/30 و82/65 و143/83.

34) المرجع السابق، ص.19 و20.

35) المرجع السابق، ص. 20.

36) المرجع السابق، ص. 21.

37) الشدود: جمع شد، وهو الاتفاق القوي بين نغمتين في أحد الأبعاد الوسطى والكبار.

38) يكدي : يتأخر عن العطاء.

39) الحسن الكاتب : المرجع السابق، ص.29 و30.

40) المرجع السابق، ص. 32.

41) في الرد على إسحاق الموصلي.

42) يعني نغمة في الدساتين.

43) الحسن الكاتب : ص.82 و83.

44) الحسن الكاتب : ص.143.

45) الحسن الكاتب : ص.143.

46) في الكتاب : الصفادين، وهو خطأ.

47) الأصفهاني : الأغاني، ج 18 ص.69 و70 ط. مصر 1993.

48) الأصفهاني : الأغاني، ج 5، ص 277. مصر 1992.

49) الفارابي :كتاب الأغاني الكبير. المقالة الثانية من الفن الثالث. غايات الألحان ومدخلها في الإنسانية. ص. 1157.

50) الحسن الكاتب : المرجع السابق. ص.63 و64.

51) إبراهيم المارغني : النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في أصل مقرإ الإمام نافع في شرح منظومة ابن بري. مط. التونسية 1354هـ 1935 مص 204ـ206.

52) الحسن الكاتب المرجع السابق. ص.63.

53) الفارابي: الموسيقى الكبير. ص. 1072-1075.

54) ابن الطحان : حاوي الفنون وسلوة المحزون، إصدار إيكهارد نوباور، ألمانيا الاتحادية، المقالة الأولى، الباب الثاني والعشرون، ص.48 و49.

55) الحسن الكاتب : الباب الثالث والعشرون. ص.78 و79.

56) ابن الطحان : المرجع السابق. الباب السادس والعشرون، ص55.

57) الحسن الكاتب : ص.82 و83.

58) الفارابي: المرجع السابق، ص. 1162.

59) ابن الطحان : المرجع السابق ص.55

60) الحسن الكاتب، ص. 82.

61) الفارابي: المرجع السابق ص .1162.

62) ابن الطحان : حاوي الفنون ص. 60.

63) الحسن الكاتب المرجع السابق، ص.83.

64) الحسن الكاتب المرجع السابق، ص. 126.

معجم المصطلحات الموسيقية

الواردة في النصوص

ـ الألف ـ

– الأجسام القارعة والمقروعة : يراد بها الآلات الموسيقية الصناعية، وتسمى أيضا الأجسام الصناعية في مقابل الأجسام الطبيعية التي يراد بها الحلوق الإنسانية.

– أزمنة الإيقاع : أدوار الإيقاع. والدور هو تسلسل النقرات في أزمنة متوالية متساوية. وأقل ما يكون الدور في الإيقاع من نقرتين.

– الألحان : جمع لحن، وهو صوت بترجيع، قوامه مجموعة من النغم المؤتلفة.

– الأصوات : الحلوق الانسانية.

– الأصوات المؤتلفة : التي يتحقق بينها التوافق النغمي.

– أقسام الكلام : القدر من الشعر الذي يقابل الجزء اللحني الذي يكسوه.

– الاستهلال : أحد العناصر اللحنية التي يتشكل منها قالب الصوت، ويأتي في مقدمته كتمهيد له.

– الأشعار : ثالث العناصر المكونة للصوت بعد اللحن والإيقاع

ـ التاء ـ

– التأليف : صياغة الألحان الموسيقية والمشاكلة بينها وبين الشعر والإيقاع وفق الضوابط المتوا ضع عليها.

– التحريك : أداء الصوت على ضروب شتى بهدف تحسينه وتحريك كوامن الطرب في السامع.

– التحسين : تحلية الغناء بوسائل تستملح بها الألحان وتصير أفضل وأكمل.

– التشذير : إحدى الوسائل التي يلتجئ أليها المغنون المحدثون من أجل تحسين الغناء. وهو تقطيع اللحن إلى شذرات، وهي حروف قصار لينة تبدأ بملالة.

ـ الجيم ـ

– الجزء : القدر من اللحن الذي يكسو قسم الكلام.

ـ الحـاء ـ

– الحركة : المصوتات القصيرة. وتختص بالحروف غير الممتدة، وهي تشكل مع السكون الحرف.

– حروف الأصوات : تسمى أيضا المصوتات الطويلة، وهي الحروف التي تلزمــهــا النغم، وهي أطراف ثلاثة: الألف، والواو، واليــاء. ومن امــتــزاج هذه الأطراف مع بعضها تتولد تسعة حروف أخر فيصير عدد المصوتات اثني عشر حرفا.

– الحروف السواكن : نوعان :

1 – حروف يوقف عليها بمدة من النغم، وهي اللام، والميم والنون.

2 – حروف لا تمتد مع النغم كحرف التاء.

ـ الدال ـ

– الدساتين : جمع دستان: مواضع عفق الأصابع على الوتر، وهي حدود النغم، وبها تعرف أمكنتها من الأوتار. وعدد الدساتين بعدد أوتار العود الأربعة: البم والمثلث وا لمثنى والزير، وعدد مواقع النغم في الدستان الواحد أربعة بعدد أصابع اليد، أي السبابة والوسطى والبنصر والخنصر.

ـ الطـاء ـ

– الطرب : الحـال النفسـيـة التي يكون عليـهـا المـرء من الإحسـاس بعد سماعه للغناء.

– وتختلف درجات الطرب بين الناس باختلاف معرفتهم بالموسيقى ومدى تجاوبهم معها.

ـ اللام ـ

– اللين : مرتبة الغلظة اللازمة للأصوات

ـ الميم ـ

– المد : إِطالة الزمان في النغمة.

ـ النون ـ

– النغم : جمع نغمة. وهي مدة مسموعة بوقفة واحدة. وهي لا تنفك من حركة، فحيث يكون الحرف تكون الحركة، وحيث تكون حركة الحرف تكون نغمة.

– النسبة : العلاقة بين الأصوات أو الإيقاعات أو الآلات.

– النشيد : أحد مكونات قالب الصوت المغنى. وتختلف مواقعه من الصوت بحسب عدد الأبيات الشعرية.

ـ الصاد ـ

– الصوت : المقطوعة الشعرية المغناة. والأصوات هي الأغاني. وتعتبر محور «كتاب الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني.

– صناعة الغناء : صناعة الموسيقى عموما.

ـ الغين ـ

– الغناء : الأداء الصوتي للأثر الموسيقي في مقابل العزف الآلي. ويراد به أيضا مطلق الحركة الموسيقية.

– الغناء المحدث : ما أضافه المغنون المحدثون إلى الأصوات القديمة من وسائل التحسين والتحلية. وكان إبراهيم بن المهدي رأس المغنين المحدثين.

– الغناء المسمط : الغناء الثقيل المنظوم على ضرب الأصل فيه خاليا من التحريك والتلوين.

– الغناء القديم : الأصوات التي كان المغنون يغنونها على عهد الراشدين وبني أمية والصدر الأول من عهد العباسيين وهي التي جمعها الأصفهاني في كتابه وكان إسحاق الموصلي أكثر المغنين تمسكا بالغناء القديم.

ـ القاف ـ

– القصر : تقصير الزمان في النغمة.

ـ السين ـ

– السكون : الشطر الثاني من الحرف، وبه تكتمل بنيته.

ـ الشين ـ

– الشدة : مرتبة الرقة اللازمة للأصوات.

– الشدود : جمع شد، وهو الاتفاق القوي والكامل بين نغمتين. ويكون في أحد الأبعاد الوسطى كالبعدين الرابع والخامس والأبعاد الكبار كالذي بالكل وضعفه وتسمى الكبار الاتفاقات العظمى.

المصادر والمراجع

1) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء. دار الفكر.

2) ابن الطحان. أبو الحسين محمد بن الحسن: حاوي الفنون وسلوة المحزون. إصدار أيكهارد نوبوير. نشر معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية. مط شتراوس ـ هيرشبرج ـ ألمانيا الاتحادية. سلسلة عيون التراث. مج. 1990-1410.52.

3) ابن النديم : الفهرست.

4) الأصفهاني. أبو الفرج : كتاب الأغاني. ج 1 ط. بيروت. 5 و 9 و10. ط. الهيئة المصرية العامة ـ القاهرة.

5) حاجي خليفة : كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون. استانبول 1941-1942.

6) الحسن الكاتب : كتاب كمال أدب الغناء. تحقيق غطاس عبد الملك خشبة. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1975.

7) الكندي. يعقوب بن إسحاق : هيئة العالم بالصناعة النظرية.

8) المارغني. الشيخ إبراهيم: النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في أصل مقرا الإمام نافع في شرح منظومة ابن بري. مط. التونسية 1935.

9) المسعودي : مروج الذهب. ج 1.

10) الفارابي : كتاب الموسيقى الكبير. تحقيق غطاس عبد الملك.

11) جورج فارْمَرْ .هـ. ج. : تاريخ الموسيقى العربية. تعريب د. حسين نصار.

12) القِفطي : تاريخ الحكماء. تحقيق ليرت ـ لايبسك. 1903.

ملخّصات الأبحاث باللغات الأجنبية
مترجمة إلى العربية

إيف پوليكان

شركاء متحدون وعازمون على محاربة العمى

تشير إحصائيات منظمة الصحة العالمية إلى أن عدد المصابين بالعاهات البصرية في العالم يبلغ 167 مليون شخص، منهم 90 في المائة في الدول الفقيرة. لذلك تضع المنظمة محاربة مشكل العمى ضمن أولوياتها، وتسعى منذ عدة سنوات إلى احتواء هذه الوضعية، مدعومة في ذلك بالجمعية الدولية للوقاية من العمى (IAPB) التي تضم كافة المنظمات غير الحكومية المتخصصة في مجال التنمية.

ويأتي المشروع الطموح «رؤية : 2020 الحق في الإبصار» ليجسد هذا التوجه بسعيه إلى تقليص عدد المصابين بالعاهات البصرية القابلة للعلاج أو التقويم مثل سادة العين (cataracte) والرمد الحبيبي (trachome) وكلابية الذنب (onchocercose) وغيرها.

وتنصب جهود هذه المنظمات غير الحكومية على تشخيص الأمراض البصرية وصياغة الخطط الكفيلة بالحد من انتشارها. ولبلوغ هذا المرمى، تقوم حسب الحاجة بتنفيذ برامج طبية وجراحية، كما تتولى إنشاء وإصلاح مراكز مختصة وتمدها بما يلزم من تجهيزات وأدوات. وغالبا ما تنجز هذه المشاريع تحت إشراف السلطات الصحية المحلية في إطار اتفاقيات تربط المنظمة المعنية بالبرامج الوطنية لمحاربة العمى في البلدان المستفيدة.

وضمانا لاستمرارية هذا المجهود على المدى البعيد، تحاول الهيئات المختصة بتعاون مع الجامعات والمدارس المتخصصة تكوين الأطر المحلية في مختلف تخصصات طب العيون الذي يعرف نقصا كبيرا في الموارد البشرية في معظم هذه البلدان.

إدواردو دي أرانطيس إي أوليڤيرا

في ذكرى زلزال لشبونة (1755)

تعرضت مدينة لشبونة في فاتح نونبر 1755 لزلزال مدمّر لم يسبق له مثيل من حيث الخسائر والمدى. فقد امتدت هزاته الارتدادية إلى المغرب جنوبا والجزر البريطانية واسكندنافيا غربا. ونظرا لتزامن وقوعه مع اكتظاظ الكنائس بالناس بمناسبة عيد القديسين، وما أسفر عنه من حرائق وفيضانات جارفة اجتاحت المدينة، فقد فاقت الخسائر المادية والبشرية كل التصورات. فإن كانت شهرة البرتغال مرتبطة بالاكتشافات الجغرافية الكبرى، فقد ظل اسم عاصمتها مقترنا بهذا الزلزال.

راميريز ڤاسْكيز

المهندس المعماري في خدمة الآخرين

منذ قرون مضت، أكد فيتروف (Vitruve) على ضرورة إلمام المهندس المعماري بفنه وبيئة عصره. وقد اعتبر أكتافيو باث (Octavio Paz) العمارة شهادة تاريخية تعكس الثقافة التي نشأت فيها بشكل ملموس. فالمنظر الطبيعي (Paysage)، على سبيل المثال هو الإطار الدائم المحيط بحياة الإنسان. فهو لا يتحكم في طبيعة العمارة فحسب بل يحدد مميزاتها الخاصة أيضا. ومن ثمة، فالوسط والبيئة هما اللذان يسمان العمارة بخصائصها الشكلية ويضفيان عليها مسحة محلية.

من جهة أخرى، فإن التواصل بطابعه الشاسع والمتجدد يجعل المهندس يؤثر على التقدم التقني وأنماط العيش الجديدة مما ينتج عنه تشابه في المظاهر الشكلية والمواد التشكيلية المؤثثة للفضاءات التي يبدعها الفن المعماري اليوم.

وبذلك فإن اعتماد المنهج العلمي في العمارة يتسم بنزوعه نحو العالمية رغم أن كل ثقافة توظف تقنياتها الخاصة حسب حاجياتها.

إن المعماري ملزم باحترام الخصائص الشكلية لنوع العمارة التي يمثلها، غير أن ذلك لا يعني بالضرورة أن يستكين إلى طرق تعبيرية بالية. فطعم الحياة يكمن في التغيير والتجديد؛ وكلما تأقلمنا مع مختلف مراحل الحياة، استوعبنا جوهر التحول والتعبير عنه بالشكل اللائق. وبالتالي، فكل عصر يتطلب نمطا جديدا من الفضاءات المعمارية.

ففي سعي المهندس المعماري إلى تعميق معرفته ببلده وثقافته عبر مشاركة الناس في تطلعهم إلى حياة أفضل والاطلاع الواسع على العلوم والتكنولوجيا وترجمة ذلك في عمله بشكل مبسط وبتواضع المهووس بخدمة الآخرين، فهو إنما يروم بذلك الصدق إلى التعبير الجمالي.

عبد العزيز شَهْبر

أثار زلزال لشبونة على المغرب

تعرض المغرب في نونبر 1755 لزلزال مدمر وصفته المصادر التاريخية المغربية بـ «الزلزال الأعظم»، إذ تراوحت قوته بين 8,5 و9,4 درجات. وقد تناوله المؤرخون المغاربة مثل ابن الطيب القادري في كتابه "نشر المتاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني" والضعيف الرباطي، إضافة إلى بعض الأجانب وعلى رأسهم الأب غارديان (Padre Guardian)، الذي كان مشرفا على إحدى البعثات التبشيرية الإسبانية بمكناس.

رغم الاختلافات الطفيفة على توقيت الزلزال ومسائل أخرى ثانوية، فقد أجمعت أكثر هذه النصوص على هول هذه الكارثة الطبيعية التي ضربت العاصمة البرتغالية وامتدت آثارها إلى مدن أخرى مغربية. وارتفعت مياه البحر واجتاحت السيول الطوفانية كلا من تطوان وطنجة وأصيلة والعرائش وآسفي على الساحل الأطلسي، وعم الدمار فاس ومكناس ومراكش في الداخل.

وقد انشغلت جميع هذه النصوص بالتغيرات المناخية التي صاحبت الزلزال، غير أن البعد الديني طغى على الكتابات المغربية. فقد أورد كل من ابن الطيب القادري والضعيف الرباطي ذلك الارتباط الوثيق بين الطوفان والفناء في الحقل الديني واعتبرا هذا الزلزال عقابا إلهيا للنصارى لاسيما أن عدد الضحايا المغاربة كان قليلا بالقياس إلى «إهلاك مدن من بلاد النصارى» بكاملها مثل لشبونة، «... وذلك من فضل الله ولطفه ورحمته بالمومنين».



Publications de l'Académie du Royaume du Maroc

ACADÉMIA

Revue de l’Académie du Royaume du Maroc

N° 22 - 2005

ACADÉMIE DU ROYAUME DU MAROC

Charia Imam Malik, Km 11, B.P. 5062
code postal 10.100
Rabat, Maroc

Téléphone : 037 75.51.13 / 75.51.24
037 75.51.35 / 75.51.89
Fax : 037 75.51.01

Dépôt légal : 29/1982

ISBN : 0851-1381

PHOTOCOMPOSITION : ACADEMIE DU ROYAUME DU MAROC
TIRAGE : IMP. EL MAARIF AL JADIDA - RABAT

2005

LES MEMBRES
DE L'ACADEMIE DU ROYAUME DU MAROC

Henry Kissinger : U.S.A.
Maurice Druon : France
Neil Armstrong : U.S.A.
Abdellatif Benabdeljelil : Maroc
Abdelkrim Ghallab : Maroc
Otto de Habsbourg : Autriche
Abdelwahab Benmansour : Maroc
Mohamed Habib Belkhodja : Tunisie
Mohamed Bencharifa : Maroc
Ahmed Lakhdar-Ghazal : Maroc
Abdullah Omar Nassef : Arabie Saoudite
Abdelaziz Benabdallah : Maroc
Abdelhadi Tazi : Maroc
Fuat Sezgin : Turquie
Abdellatif Berbich : Maroc
Mohamed Larbi Al-Khattabi : Maroc
Mahdi Elmandjra : Maroc
Ahmed Dhubaïb : Arabie Saoudite
Mohamed Allal Sinaceur : Maroc
Ahmed Sidqi Dajani : Palestine
Mohamed Chafik : Maroc
Lord Chalfont : Royaume-Uni de G. B.
Amadou Mahtar M'Bow : Sénégal
Abdellatif Filali : Maroc
Abou-Bakr Kadiri : Maroc
Azzeddine Laraki : Maroc

Donald S. Fredrickson : U.S.A.
Abdelhadi Boutaleb : Maroc
Idriss Khalil : Maroc
Abbas-Al-Jirari : Maroc
Pedro Ramirez-Vasquez : Mexique
Mohamed Farouk Nebhane : Maroc
Abbas Al-Kissi : Maroc
Abdellah Laroui : Maroc
Bernardin Gantin : Vatican
Abdallah Al-Fayçal : Arabie Saoudite
Nasser Eddine Al-Assad: Jordanie
Anatoly Andreï Gromyko : Russie
Georges Mathé : France
Eduardo de Arantes E. Oliveira: Portugal
Mohamed Salem Ould Addoud : Mauritanie
Pu Shouchang: Chine
Idriss Alaoui Abdellaoui: Maroc
Alfonso de la Serna: Espagne
Al-Hassan Bin Talal : Jordanie
Mohamed Kettani : Maroc
Habib El Malki : Maroc
Mario Soares : Portugal
Othmane Al-Omeir : Arabie Saoudite
Klaus Schwab : Suisse
Driss Dahak : Maroc
Ahmed Kamal Aboulmajd : Egypte

Mania Saïd Al-Oteiba : Emirats Arabes-Unis

Chakir Al-Faham : Syrie

Omar Azimane : Maroc

Ahmed Ramzi : Maroc

Abid Hussain : Inde

André Azoulay : Maroc

Sahabzada Yaqub-Khan : Pakistan

Mohammed Jaber Al-Ansari : Bahrein

Al-Houceine Ouaggag : Maroc

Rahma Bourquia : Maroc

LES MEMBRES CORRESPONDANTS

Richard B. Stone: U.S.A.

Charles Stockton: U.S.A.

LES PUBLICATIONS DE L'ACADEMIE

I . Collection "Sessions"

1- "Session inaugurale", avril 1980.

2- "La télématique", novembre 1980.

3- "Al Qods : Histoire et civilisation", mars 1981.

4- "Les crises spirituelles et intellectuelles dans le monde contemporain", novembre 1981.

5- "Eau, nutrition et démographie", 1ère partie, avril 1982.

6- "Eau, nutrition et démographie", 2ème partie, novembre 1982.

7- "Potentialités économiques et souveraineté diplomatique", avril 1983.

8- "De la déontologie de la conquête de l'espace", mars 1984.

9- "Le droit des peuples à disposer d'eux-mêmes", octobre 1984.

10- "De la conciliation entre le terme du mandat présidentiel et la continuité de la politique intérieure et étrangère dans les Etats démocratiques", avril 1985.

11- "Trait d'union entre l'Orient et l'Occident : Al-Ghazzali et Ibn-Maïmoun", novembre 1985.

12- "La piraterie au regard du droit des gens", avril 1986.

13- "Problèmes d'éthique engendrés par les nouvelles maîtrises de la procréation humaine", novembre 1986.

14- "Mesures à décider et à mettre en oeuvre en cas d'accidents nucléaires", juin 1987.

15- "Pénurie au Sud, incertitude au Nord : constat et remèdes", avril 1988.

16 - "Catastrophes naturelles et péril acridien", novembre 1988.

17- "Université, recherche et développement", juin 1989.

18- "Des similitudes indispensables entre pays voulant fonder des ensembles régionaux", décembre 1989.

19- "De la nécessité de l'homo oeconomicus pour le décollage économique de

l'Europe de l'Est", mai 1990.

20- "L'invasion du Koweit par l'Irak et le nouveau rôle de l'O.N.U.", avril 1991.

21- "Le droit d'ingérence est-il une nouvelle légalisation du colonialisme?", octobre 1991.

22- "Le patrimoine commun hispano-mauresque", avril 1992.

23- "L'Europe des Douze et les autres", novembre 1992.

24- "Le savoir et la technologie", mai 1993.

25- "Protectionnisme économique et politique d'immigration", décembre 1993.

26- "Les chefs d'Etat face au droit à l'autodétermination", avril 1994.

27- "Les pays en voie de développement entre l'exigence démocratique et la priorité économique", novembre 1994.

28- "Quel avenir pour le bassin méditerranéen et l'Union européenne?", mai 1995.

29- "Droits de l'homme et emploi, compétitivité et robotisation", avril 1996.

30- "Et si le processus de paix au Moyen-Orient devait échouer?", décembre 1996.

31- "Mondialisation et identité", mai 1997.

32- "Droits de l'homme et manipulations génétiques", novembre 1997.

33- "Pourquoi les dragons d'Asie ont-ils pris feu ?", mai 1998.

34- "Jérusalem, point de rupture ou lieu de rencontre ?", novembre 1998.

35- "La dissémination des armes nucléaires est-elle ou non un facteur de dissuasion?", mai 1999.

36- "La pensée de Hassan II : authenticité et renouveau ", avril 2000, 2 vol.

37- "La politique de l'eau et la sécurité alimentaire du Maroc à l'aube du XXI° siècle", novembre 2000, 2 vol. en français.

38- "La politique de l'eau et la sécurité alimentaire du Maroc à l'aube du XXI° siècle", version arabe, novembre 2001, 1 volume.

39- "La crise des valeurs et le rôle de la famille dans l'évolution de la société contemporaine", avril 2001.

40- “Quel avenir pour les pays en développement à la lumière des changements découlant de la mondialisation ?”, novembre 2001.

41- "Les relations internationales durant la première décennie du XXI° siècle : quelles perspectives ?", avril 2002.

42- "Les guerres lacales et régionales et leurs conséquences sur le développement, la civilisation et la paix dans le monde", décembre 2002.

43- "Le cinquantenaire de la Révolution du Roi et du Peuple", août 2003.

II . Collection "Le patrimoine"

44- "Al-Dhail wa Al-Takmilah", d'Ibn Abd Al-Malik Al-Marrakushi, Vol. VIII, 2 tomes (biographies maroco-andalouses), édition critique par M. Bencharifa, 1984.

45- "Al-Ma' Wa ma warada fi chorbihi mine al-adab", (apologétique de l'eau), de M. Choukry Al Aloussi, édition critique de M. Bahjat Al - Athari, 1985.

46- "Maâlamat Al-Malhoune", 1° et 2° parties du 1° volume, Mohamed Al-Fassi, 1986, 1987.

47- "Diwane Ibn- Fourkoune", recueil de poèmes andalous présentés et commentés par Mohamed Bencharifa, 1987.

48- "Aïn Al Hayah Fi Ilm Istinbât Al Miyah": (Source de la vie en science hydrogéologique) de A. Damanhouri, présentation et édition critique par Mohamed Bahjat Al-Athari, 1989.

49- "Maâlamat Al-Malhoune" 3° volume des "Chefs d'oeuvre d'Al-Malhoune", Mohamed Al-Fassi, 1990.

50- "Oumdat attabib fi Mârifati Annabat" (Référence du médecin en matière des plantes) d'Abou Al-Khaïr Al-Ichbili, 1er et 2ème volumes, édition critique par Mohamed Larbi AL-Khattabi, 1990.

51- "Kitab attayssir fi al-moudawat wa tadbir" (Le "Tayssir") d'Avenzoar, Abou Marwan Abdelmalik Ibn Zohr, édition critique par Mohamed Ben Abdellah Roudani, 1991.

52- "Mâalamat Al-Malhoune" 1ère partie du 2ème volume, par Mohamed Al-Fassi, 1991.

53- "Mâalamat Al-Malhoune" 2ème partie du 2ème volume, par Mohamed Al-Fassi, 1992.

54- "Boghyat wa Tawashi Al - Moussiqa Al Andaloussia", par Azeddine Bennani, 1995.

55- "Iqad Ashoumou'e” (musique andalouse), par Mohamed Al-Bou'ssami, éd. critique par Abdelaziz Benabdeljelil, 1995.

56- "Mâalamat Al-Malhoune": "Myat qassida wa qassida", par Mohamed Al-Fassi, 1997.

57- "Voyage d'Ibn Battuta", 5 volumes, édition critique par Abdelhadi Tazi, 1997.

58- "Kounnach Al Haïk", corpus des onze noubas de la musique andalouse, édition critique par Abdelmalik Bennouna, présentation par Abbas Al-Jirari, 1999.

59- "Les chants patriotiques marocains et leur rôle dans le mouvement de libération", édition critique par Abdelaziz Ben Abdeljalil, 2005.

III . Collection "Les lexiques"

60- "Lexique arabo-berbère", 1° tome, par Mohamed Chafik, 1990.

61- "Lexique arabo-berbère", 2° tome, par Mohamed Chafik, 1996.

62- "Le dialecte marocain, lieu de confluence de l'arabe et du berbère", 1999.

63- "Lexique arabo-berbère", 3° tome, par Mohamed Chafik, 2000.

IV . Collection "Les séminaires"

64- "Falsafat Attachrie Al Islami" 1° séminaire de la "Commission des valeurs spirituelles et intellectuelles" de l'Académie, 1987.

65- "Actes des séances solennelles consacrées à la réception des nouveaux membres". (1980-1986), décembre 1987.

66- "Conférences de l'Académie" (1983-1987), 1988.

67- "Caractères alphabétiques de la langue arabe et technologie", février 1989.

68- "Droit canonique, fiqh et législation", 1989.

69- "Fondements des relations internationales en Islam", 1989.

70- "Droits de l'homme en Islam", 1990.

71- "Interactions cuturelles de l'Orient et de l'Occident", 1991.

72- "Problèmes de l'usage de la langue arabe au Maroc", 1993.

73- "Le Maroc dans les études orientalistes", Marrakech, 1993.

74- "La traduction scientifique", Tanger, 1995.

75- "L'avenir de l'identité marocaine devant les défis contemporains", Tétouan, 1997.

76- "Immigration des Marocains à l'étranger", Nador 1999.

77- "Les Morisques au Maroc", 2° partie, Chaouen, 2000.

78- "Les proverbes populaires marocains : recensement et usage scientifique et pédagogique", Rabat, 2001.

79- "Culture du Sahara marocain : fondements et spécificités", Rabat, 2002.

80- "L'extrémisme et ses manfestations dans la société marocaine",Rabat, 2004.

V . La revue "ACADEMIA"

81- "ACADEMIA" est la revue de l'Académie du Royaume du Maroc. Son numéro dit *inaugural* comprend les actes de la cérémonie d'inauguration de l'Académie par Sa Majesté le Roi Hassan II, le 21 avril 1980, la réception des académiciens, les discours prononcés à cette occasion et les textes constitutifs de l'Académie.

82- "ACADEMIA", N° 1, février 1984.

83- "ACADEMIA", N° 2, février 1985.

84- "ACADEMIA", N° 3, février 1986.

85- "ACADEMIA", N° 4, novembre 1987.

86- "ACADEMIA", N° 5, décembre 1988.

87- "ACADEMIA", N° 6, décembre 1989.

88- "ACADEMIA", N° 7, décembre 1990.

89 "ACADEMIA", N° 8, décembre 1991.

90- "ACADEMIA", N° 9, décembre 1992.

91- "ACADEMIA", N° 10, septembre 1993.

92- "ACADEMIA", N° 11, décembre 1994.

93- "ACADEMIA", N° 12, 1995.

94- "ACADEMIA", N° 13, 1996.

95- "ACADEMIA", N° 14, 1997.

96- "ACADEMIA", N° 15, numéro spécial consacré aux Morisques, 1998.

97- "ACADEMIA", N° 16, 1999.

98- "ACADEMIA", N° 17, 2000.

99- "ACADEMIA", N° 18, 2001.

100- "ACADEMIA", N° 19, 2002.

101- "ACADEMIA", N° 20, 2003.

102- "ACADEMIA", N° 21, 2004.

TABLE DES MATIERES

1- COMMUNICATIONS

2- RESUMES

(Les communications en langue arabe sont reproduites *in extenso* selon la numérotation de la table des matières de la langue arabe, leurs résumés sont traduits et reproduits ci-après) :



COMMUNICATIONS

DES PARTENAIRES UNIS ET DECIDES A COMBATTRE LA CECITE

Yves Pouliquen et Dominique Negrel

Trente-sept millions d'aveugles ! Plus de 130 millions de malvoyants se réveillent chaque jour sur notre planète et se trouvent confrontés aux dures réalités d'une vie de ténèbres. Ce sont les récentes statistiques de l'Organisation Mondiale de la Santé (OMS) qui nous l'apprennent. Elles soulignent douloureusement l'importance du défi que doivent relever toutes celles et ceux pour lesquels la solidarité n'est pas un vain mot. D'autant plus que 70% de ces trop nombreuses déficiences visuelles sont évitables et que 90% des personnes qui en sont atteintes sont les citoyens des pays les plus pauvres. Il est logique que cet effort de solidarité repose sur ceux qui savent et ceux qui peuvent. Cet effort se déploie depuis quelques années déjà ; il est organisé par l'OMS, qui fait de la cécité l'une de ses priorités ; il est soutenu et fédéré par l'International Association for the Prevention of Blindness, (IAPB) qui regroupe l'ensemble des Organisations Non Gouvernementales de Développement (ONGD) qui dédient leurs ressources à la lutte contre la cécité. Elles sont nombreuses à diriger leurs actions, et ce conformément à l'initiative : « Vision 2020 : le Droit à la Vue » qui stigmatise de façon ambitieuse le projet de faire décroître notablement le nombre des déficiences visuelles évitables à l'horizon 2020. Toutes les ONG adhérant à cette initiative s'attachent donc à promouvoir les moyens susceptibles de diminuer le nombre de personnes aveugles par cataracte -soit la moitié de la statistique mondiale - et le fardeau que représentent les grandes endémies qui affectent les pays déshérités, telles le trachome, l'onchocercose, les carences alimentaires ou vitaminiques, les maladies de l'enfance, les traumatismes etc. Sachant que là comme ailleurs, les complications du diabète, du glaucome, et de certaines maladies générales s'ajoutent à la liste des causes de cécité.

Les ONG qui oeuvrent contre la cécité se donnent le plus souvent pour missions de localiser et dépister les maladies oculaires, de mettre en place les stratégies susceptibles d'en enrayer le cours en établissant des programmes médicaux, chirurgicaux là où ils se révèlent utiles. Elles proposent aussi des projets de création ou de réhabilitation de services spécialisés, dotés des équipements indispensables, des moyens de fonctionnement, de la fourniture de verres correcteurs ou des médicaments nécessaires. Ces actions sont mises en place sous la tutelle des autorités sanitaires locales, le plus souvent dans le cadre d'une convention qui relie l'ONG au Programme National de Lutte contre la Cécité (PLNC). Tels sont les buts de la plupart des ONG, mais nul ne niera que se substituer à ceux qui devraient accomplir une tâche n'est, tout compte fait, qu'une solution transitoire et palliative. Ce qui importe en fait, c'est de transmettre des savoir-faire aux jeunes générations, à des esprits ouverts et de les déposer en des mains expertes. Voilà tout l'enjeu de la formation des ophtalmologistes et des infirmiers devant acquérir des compétences en la discipline. L'extrême pénurie des ressources en personnel en Afrique est reconnue de longue date par les instances internationales. On estime qu'il faudrait au moins un ophtalmologiste pour 200 000 habitants et un infirmier spécialisé pour 100 000. Qu'en est-il vraiment ? 1 pour 500 000 pour les premiers et 1 pour 200 000 pour les seconds. Seule une politique de formation obstinée, assortie des postes budgétaires nécessaires, sera susceptible de combler ce retard, ô combien préjudiciable, au cours des décennies à venir. C'est la raison qui pousse les ONG à partager les efforts de formation avec les Universités et les Ecoles de médecine. Leur action dans ce domaine, aussi modeste soit-elle, augmente chaque année de quelques unités le nombre d'ophtalmologistes et d'infirmiers spécialisés en ophtalmologie. Cet effort renforcera la couverture sanitaire en matière de soins oculaires, resserrant ainsi les mailles du réseau qui se tisse patiemment avec le temps. Ainsi, les infirmiers spécialisés sont habilités, par le biais d'une formation ciblée, d'accomplir certains actes chirurgicaux, tels la prise en charge du trichiasis trachomateux, voire celle de la cataracte, dans le but de pallier la pénurie en ophtalmologistes et de mieux répondre à la demande des populations qui seraient, sans leurs interventions, condamnées à une cécité définitive, alors que les maladies dont ils souffrent sont évitables ou curables. Il y a lieu de se réjouir de ce que ces «non-médecins» parviennent à dispenser des soins de qualité. Espérons toutefois que dans les années à venir, la disponibilité

d'ophtalmologistes qualifiés permettra de limiter le recours à cette solution de substitution.

Le développement des ressources humaines s'inscrit donc comme l'un des moyens les plus efficaces pour pérenniser les actions soutenues par les diverses ONG. Pourtant les formations clinique et chirurgicale ne permettront pas à elles seules d'atteindre les objectifs retenus par l'initiative «Vision 2020 : le Droit à la Vue». En effet, la complexité des problèmes à résoudre pour combattre les principales maladies génératrices de cécité impose l'appropriation par certains ophtalmologistes de méthodes et d'outils appartenant au domaine de la santé publique. Et ce type de formation, mariant santé publique et santé oculaire, faisait encore défaut jusqu'à une date récente, dans les Instituts et Universités francophones.

La Division de la Formation de l'Organisation pour la Prévention de la Cécité, mobilisant son réseau de compétences, a récemment relevé le défi en comblant cette lacune. La première session d'un cours intitulé «Organisation et gestion des soins oculaires au niveau communautaire» s'est tenue du 22 novembre au 23 décembre 2004 dans les locaux de l'Institut National d'Administration Sanitaire à Rabat.

Le choix de la capitale du Royaume du Maroc n'est nullement le fruit du hasard. Il s'agit d'un choix raisonné, qui va donc bien au delà des amitiés et des liens anciens que les cadres de l'O.P.C. ont tissés avec «le cher Maroc» au cours des dernières décennies. Au carrefour des cultures et des langues, du «Sud et du Nord», le Royaume offrait, pour accueillir cette initiative, l'incomparable conjonction d'une Université dynamique et de services de santé ayant fait leurs preuves dans le domaine de la lutte contre les maladies cécitantes, tout spécialement dans celui de la lutte contre le trachome. Il devenait tout naturel que les ophtalmologistes francophones tirent les enseignements d'une pareille réussite sur les lieux mêmes de ce succès. A l'enthousiaste engagement du Ministère de la Santé du Royaume, d'autres partenaires sont venus apporter leur inestimable soutien : l'Organisation Mondiale de la Santé, le Ministère des Affaires Etrangères de la République française et l'Institut Servier. Encore fallait-il trouver un financement pour que cette entreprise de solidarité puisse voir le jour. Un financement qui assurerait la logistique, c'est à dire le transport et l'hébergement de 29 participants (originaires de 17 pays) et de 11 professeurs et 6 conférenciers. Seul un «grand mécène» pouvait répondre à

une telle initiative internationale. C'est ce que fit sans hésiter la Fondation Internationale du Lions Club (à travers son programme Sight First). La dynamique implication des Lions Clubs marocains, l'engagement de l'équipe pédagogique sous l'égide du Directeur de l'INAS, des autorités sanitaires de la Province de Kénitra, des responsables du service d'ophtalmologie B de l'Hôpital des Spécialités ont permis le bon déroulement de ce cours international.

Cette première session a, sans l'ombre d'un doute, posé des jalons balisant l'avenir afin que, dorénavant, toujours plus d'ophtalmologistes des différentes régions d'Afrique et du monde francophone se retrouvent au Maroc, afin de bénéficier d'un tel enseignement et que la cécité recule, pour quasiment disparaître, au sein des communautés dont ils ont la charge.

A l'heure où les (trop rares) partenariats “privé-public”, où les initiatives de “développement pérenne” sont recherchés sous toutes les latitudes, il est encourageant de constater que, main dans la main, services gouvernementaux, ONG et instituts de formation construisent l'avenir pour mieux défaire la cécité.

REMEMBERING THE GREAT EARTHQUAKE OF 1755

E R. de Arantes e Oliveira

The history of several great cities in the world is linked to some frightening event that left its mark printed into the memory of people, and conferred to such cities a new and forever lasting spiritual dimension.

For instance, although Paris was the main protagonist in the History of France, the memory of the French Revolution - and namely of the few months of the “Terror” -, still prevails. In Berlin, a very deep mark was left by the rise and fall of the Nazi regime, as well as, in Madrid, by the Civil War. In what concerns Lisbon, the most powerful remembrances are not those left by the great maritime discoveries, but by the earthquake of 250 years ago.

What has always been amazing to me, is the impression that such an event left in the collective memory of the Portuguese people. The souvenir of that awful morning of November 1st, 1755, still remains indeed in the deep of the Portuguese souls as if all of us were already there living such an awful day.

That morning, the weather was hotter than it usually is by that time of the year. As the 1st of November is celebrated as the All Saints day, people were attending mass in the numerous churches of the city.

The exact time at which the earthquake started seems to have been between 9h 35m and 9h 45m. An underground snore, comparable to a far away thunderstorm, was first heard which surprised and alerted most of the people.

The seism lasted for about nine minutes, and consisted of three distinct phases. During the first one, which lasted about one minute and a

half, the vibrations were essentially vertical with a frequency higher than those that immediately followed. A minute later, a more intense motion, lasting about two and a half minutes, caused more serious damages. A comparatively quiet minute followed, during which everybody must have thought that the worst was over, but an endless brutal third phase started with the duration of three minutes, still more violent than the preceding ones.

The earth trembled in an almost continuous movement during the first 24 hours after the earthquake. During the first eight days, more than 28 aftershocks were felt, 250 aftershocks during the first 6 months, and 500 until September 1756. Another important earthquake would be experienced in March 1761.

But the tremors were far from being the whole thing. Immediately after the earthquake, a fire, unavoidable because the churches were full, and thousands of candles were lighted, started, which took six long days to be extinguished.

Shortly after the earthquake, at eleven o'clock, suddenly and unexpectedly, a tsunami arrived in Lisbon. The Tagus river waters initially got down dragging the boats anchored near the harbour. Then, its level started to increase, passed over the walls of the port and invaded downtown Lisbon, penetrating 250 meters inside. According to the testimony of the captain of an English vessel, during a quarter of an hour the waters raised, for three times, more than 5 meters.

The tsunami was felt, not only along the Western coastline of Portugal, but also in the South - in what was still called the Kingdom of Algarve -, as well as in the Azores and Madeira, in the Southwest of Spain - particularly in Cadiz -, in Morocco, and even in Britain, and Netherlands. Its effects were felt also on the other side of the Atlantic Ocean, in North America and Brazil.

The earthquake caused floods in Switzerland, England, Scotland, Finland, and Sweden, while raising the waters of lakes and rivers in a rhythmic way. In Scotland, 2000 km away, the waters of Lake Lamond oscillated with extents of 60 centimetres during more than one and half hours. In the Dal river, north of Stockholm, 3000 km far from Lisbon, oscillations of the same kind were experienced. No other earthquake in

History seems to have caused such kind of phenomena at so large distances.

Three countries - Portugal, Spain and Morocco - were especially affected, but it was Portugal that suffered the most, considering that its capital city, the second largest in Southern Europe, was devastated, and that so many persons died.

The destruction of Lisbon influenced the European culture of the time. The great earthquake became a subject for theologians, philosophers and poets.

It was a subject also for scientists and engineers. For the first time in the world, a code for the construction of earthquake resisting buildings was conceived and adopted in the reconstruction of such a large city.

LA ARQUITECTURA COMO DISCIPLINA DE SERVICIO

RAMIREZ VAZQUEZ

Vitrubio, hace siglos, afírmaba que el arquitecto debe ser un profundo conocedor de su arte, del medio y de 1a vida de su época; Octavio Paz por su parte apunta que 1a arquitectura es testimonio insoslayable de 1a historia.

La arquitectura debe estar al servicio de los demás, no del autor; por ello, nunca me he preocupado por hacer una que se identifique conmigo, sino con el servicio que ha de presar al usuario directo, dentro o fuera de ella, como enriquecedora del medio ambiente y como aportación al patrimonio artístico. Respeto y reconozco el mérito de quienes saben hacer arquitectura de autor, de quienes desean y saben imprimirle un toque personal a sus realizaciones, yo ni lo deseo, ni lo sé hacer. Aún así, resulta inevitable que durante el desarrollo de los diferentes temas surjan mis ideas personales acerca de las diversas tendencias que han influido e influyen en la arquiectura mexicana contemporánea.

La arquitectura constituye un testimonio material de la çultura en que se origina. Como todo producto cultural, es testimonio material de la cultura y es posible reconocer en ella los factores locales que la determinan y de la época en que se origina. Pero-como en toda creación humana- por particulares y limitadas que sean sus excepciones es posible identificar en ella lo que es común a todos hombres, aquello inexplicable que nos une.

Sin duda, existen valores y soluciones permanentes que cnnforman paulatinamente una herencia que se conserva a través del tiempo, y que además le otorgan caractecrísticas propias a los espacios arquitectónicos de un mismo grupo humano, en una misma región y en una misma cultura. El

paisaje, por ejemplo, es marco permanente de la vida del hombre, y determina no sólo su arquítectura sino hasta su propio carácter. A lo largo de la historia las reacciones del ser humano frente a las contingencias climatológicas has sido similares; presenciamos invariablemente la creación de una arquitectura adaptada al ambiente en que se vive.La geología brinda hoy como ayer los mismos materiales de construcción, y aún cuando las nuevas técnicas permiten usos diferentes en muchos de los medios sociales, sobretodo en México, la supervivencia artesanal permite conservar las mismas formas de expresión.

En consecuencia, son las condiciones del medio 1as que imprimen a la arquitectura las características formales de contenido local. Asimismo, la comunicación -cada vez más amplia y expedita-propicia que el avance de la técnica y las nuevas formas de vida produzcan semejanzas en los resultados formales y plásticos de los espacios creados por la arquitectura actual. La aplicación del método científico tiende a hacerse universal, si bien cada cultura adopta sus propias técnicas de acuerdo a sus necesidades. Aun cuando todos los pueblos alcancen el mismo nivel técnico y científico, la arquitectura, si corresponde a los requerientos de su medio y de sus hombres, tendrá necesariamente expresión propia y -justamente por eso-valor de aportación universal.

Respetar las características formales de nuestra arquitectura no debe hacernos suponer que aspiramos a expresarnos con fórmulas arcaicas. El respeto a la tradición, y en consecuencia al país mismo, consiste en conservar tales constantes culturales mediante soluciones contemporáneas, apoyadas en técnicas modernas, para satisfacer las necesidades presentes en los espacios en que viven los Mexicanos.

Este propósito de expresión propia y auténtica no representa de manera alguna un nacionalismo exagerado y a ultranza, que resultaría incongruente con nuestra épocca. Nuestro nacionalismo debe basarse en el hecho de savernos iguales a los demás hombres, con las mismas características, con la misma capacidad de aportar, de servir y de ser ùtiles.

Cambiar es vivir, y si sabemos ser congruentes con las distintas etapas de 1a vida, saberemos comprender y expresar el sertido de la transformación. Quien es consciente de que el combio es la esencia de la vida, está preparado para incorporarse día a día a esta dinámica. El futuro llega a cada momento y sino estamos actualizados en nuestra preparación y en nuestras decisiones, resultaríamos todos los días hombres de ayer.

Que vivir sea cambiar no es una novedad ni patrimonio de los jóvenes; no es ella la que nos hace cambiar : es la vida misma, la que empiezan ellos a descubrir, y que impone hoy como siempre el cambio, y que maña les impondrá la transformación de su existencia, de modo que sólo con la experiencia y los conocimientos que adquieran ahora podrán enfrientarse y resolver después los problemas de su propia renovación. La presente etapa de la vida nos lleva a pensar y a preocuparnos más por los demás; nos afirmamos en la convicción de que sólo tendrá valor nuestra creatividad si propicia mejores y más justas formas de vivir en comunidad, en correspondencia con las transformaciones vitales derivadas de 1as demandas de una población cada vez más numerosa y consciente de su derecho a vivir mejor.

Cada época reclama un nuevo tipo de espacios arquitectónicos, de 1a elemental necesidad de albergue y protección del hombre primitivo hasta las necesidades de nuestra época, derivadas de 1as desigualdades sociales y de la explosión demográfica.

¿ Cómo debemos crear para corresponder al cambio que nos toca vivir y para que 1a creatividad contribuya al bienestar general ? Conociendo seria y profundamente a1 hombre, a los imperiosos requerimientos sociales de su época, y especialmente a los de su mundo, su región su hábitat. Buscando un amplio conocimiento de su país y de su cultura ; participando de las aspiraciones populares para vivir mejor; adquiriendo un mayor conocimiento de la ciencia y la tecnología; aplicándolo con sencillez, con humildad de servir. La nobleza de 1a arquitectura reside en 1a tarea misma que nos exige no seguir destruyendo nuestro medio vital e ignorando 1a justa exigencia del equilibrio social.

Para lograr los espacios arquitectónicos de hoy es necesario estar conscientes de que a la explosión demográfica, a la multiplicación de las carencias, debernos responder con soluciones inmediatas si no queremos afrontar una violenta crisis social. La acción profesional solo ppueda ser actual, realista, enfocada a soluciones integrales consecuentes con las etapas de desarollo económico y social que ellas mismas contribuyen a determinar. Así pues, deberá ser una acción dinámica, ambiciosa, conocedora de nuestras urgencias y consciente de nuestras posibilidades. Dentro de las amplias tareas del mundo contemporáneo corresponde a la arquitectura el papel de crear los espacios que requiere el hombre para vivir; espacios con dimensión humana, acordes con su sensibilidad y que propicien alegría y solidaridad.

La arquitectura, insisto, es una disciplina de servicio. Pretender producir arte a priori, actuar con la simple preocupación de ser original, es en realidad una impostura pues sólo puede haber originalidad cuando los satisfactores corresponden a una nueva clase de necesidades, cuando los sistemas de fabricación o de construcción son distintos o contienen aportaciones originales, y cuando los materiales de construcción han recibido un nueva y especial tratamiento.

Si se procede con verdad en todas las etapas de la creación arquitectónica, se logrará alcanzar, además, la belleza. Verdad en el planteamiento de las necesidades por satisfacer, verdad en el systema constructivo elegido, verdad en el uso de los materiales, equililibrio entre el gasto y el destino de la obra y sinceridad en la expresión estética. El arquitecto no es un creador de formas abstractas, éstas son en realidad el resultado de la functión y de la técnica, y cuando han sido regidas por la verdad, la arquitectura penetra por sí misma en el dominio del arte. Arte como resultado de obrar con verdad para producir materia útil, dado que ser útil es la más alta aspiratión de todo ser humano. Es así como el artista cumple con su deber social, con su deber político; porque la política es, precisamente, el arte de ser útil.

El Campo de nuestras carencias es tan amplio, son tan peculiares las características de nuestras necesidades, que tenemos un gran campo de acción para 1a creatividad arquitectónica, y si digo "tenemos", si lo manifiesto en plural es porque nada en la vida se logra sólo. La arquitectura, la obra arquitectónica, es un producto multidisciplinario en el que ningúna especialidad es más importante que otra, en el que, por el contrario, todas precisan conjugarse para complementarse.

Participar en una obra colectiva exige la humildad de aceptar que se requieren otros especialistas, pero también reclama el valor de sentirse seguro de lo que uno aporta. El equipo no sólo lo integran quienes intervienen en el análisis, en el estudio, el proyecto o la realización; está formado también por todos los que contribuyen a crear las condiciones propicias para lograrlo.

THE EFFECTS OF THE EARTHQUAKE OF LISBON IN MOROCCO 1st, November 1755

Abdelaziz Chahbar

"The populace, it seems, were all full of the notion that it was the Judgement day"

Thomas chase(1)

"hubo muchos relámpagos, y truenos, y cayó excesiva agua, y granizo, que con el terror de los pasados, consternó a todos, y afligidos discurran se acababa el Mundo"

Padre Guardian(2)

"Dans cet horrible moment l'on portait au hasard des pas mal assurés, à la triste lueur des flammes qu'un incendie général avait répandues dans la ville. Le sifflement d'un vent impétueux, le bruit affreux des souterrains mugissants, les cris aigus de ceux qui allaient périr, faisaient un composé d'horreur qu'il n'est pas possible de décrire : l'œil a vu et l'oreille a entendu ce que la langue ne peut exprimer, et le pinceau le plus habile sera toujours trop faible pour esquisser cet horrible et affreux tableau"(3)

Introduction

Saturday 26th Muharram, Tuesday 13th and Wednesday 14th Safar 1169/1st, 18th and 19th November 1775, Morocco was struck by an earthquake that Moroccan historic sources design by : the greatest earthquake "Azzilzal al-a'dam", the Lisbon earthquake "Zilzal Lichbouna".

The descriptions presented in these sources diddle between myth and reality, but were en general short and resumed.

Moroccan historians same looking to the event as a divine chastisement, their accounts were brief and convolved in a preaching style, they used almost the same brief sentences and words.

More details of the effects of Lisbon earthquake in Morocco were related by Europeans merchants and Franciscan Missionaries scriptures who present the event for the European citizens upon a meticulous description that can serve in the deep discussion that stroked in Europe after the disaster of Lisbon.

A global view of these effects of Lisbon Earthquake in Morocco can be seen by putting side by side all these kinds of accounts. All of them serve in drawing the image of this so exceptional event; although they do not use the same language and they do not emanate from the same culture.

Our objective in this work is to present an image of the immense earthquake of November 1755 in Morocco, and the magnitude of the destruction that he had left in many Moroccan cities: in the Atlantic coast and inside of the Country.

In the first part of this work we expose eight significant documents from a multitude of texts that we have examined about the Lisbon Earthquake. The second part is an analytic study closed by a general conclusion. The bibliography would be presented within the work.

THE TEXTS

The Corpus exposed here contains texts in Arabic, Hebrew, English, Italian, and French ; they are written by Wise Moroccan Muslim historians, Moroccan Jewish Rabbis, Missionaries friars in Morocco and foreign merchants living in the north of Morocco, Salé, Marrakech and Mequinez.

The image of the great earthquake and the tsunami that stroked Morocco in November 1755 appears clearly even we take in consideration the event by a transcultural view. The religious dimension condemn the vocabulary used in the descriptions of the faces of this cataclysm, but once

compared, these accounts can serve in the formulation of the image and degree of the destruction that he had caused.

The first Text(4) published in Seville in the press of D. Joseph Navarro y Armijo, consists of eight pages, the anonymous author of this account, gathers a fact happened in Constantinople in the night of 27th September 1755 and includes the set of the catastrophe of the earthquake in Morocco and Algeria, presenting a panoramic description of the main cities affected by the earthquake as they were before according to his news, and after the event.

The second document is written by Padre Guardian of the Real Convent of Mequinez, and Apostolic Vice-Prefecto of the Saints Missions, that in the parts of Berbera conserves the Religious Province of San Diego RR. PP. Franciscanos Descalzos. It's a letter sent to the Father Solicitor of this order, in the occasion of the Earthquake happened in Ceuta, Tetuán, Larache, Mamora, Tánger and Morocco, in November of 1755.

The Padre Guardian Letter(5) has been published in Madrid and reprinted in Barcelona by Pablo Campins "a la calle de Amargos donde esta hallaron relaciones sobre el mismo asunto"(6), it consists of eight pages. A copy of the same story has been published in Imprenta de Antonio Sanz(7) and has been reproduced in "Relaciones de Africa" compiled by Ignacio Bauer, Madrid, P:143-148.

The same letter of Padre Guardian is conserved in Portuguese in the Archives of the Franciscan *Mission de Tanger*(8) under the title : "Copia Escrita por Padre- Guardian do Real Convento de Mequinés, é Vice-Prefeito das Santas Misiones, que nas partes de Barbaria conserva a Religiosa Provincia de Sao Diego dos RR.PP. Franciscanos Descalços, Ao Padre Procurador, dellas", Lisbon anno MDCCLVI. It has been mentioned by the Padre Castellanos in "Historia de Marruecos"(9) (History of Morocco), and has been subject of the article published by P.L. in Revista Mauritana(10) "El Temblor de Tierra en Marruecos el ano 1755. (De nuestro Archivo Misional de Tánger)". P.L. describes and abstracts another unit of the letter of Father Guardian published in Cadiz by the imprenta de la Viuda de Miguel Ortega in four pages of 193mm/140mm.

The third document is a document of the National Library of Paris, a plate of four sheets titled : "Relation des terribles ravages occasionnés en Afrique par le cruel tremblement de terre qui a détruit la plus grande partie

du Royaume de Maroc avec un détail de tout ce qui est arrivé depuis le premier novembre jusqu'à présent". It has been published by Magali Morsy in "Hespéris Tamuda"(11) review, we have compared the text published with the original of the BNF.

The fourth document is a text published in Rome "Storia dell anno 1775". The series of Books "Storia dell anno" are conserved in the rare books section in the General Library and Archives of Tetouan. In the second Book of "Storia dell anno 1775" there is a description of the November 1755, and in the fourth book is about the Lisbon Earthquake and its effect in Portugal. The text about Morocco is based on the Spanish Franciscan Missionaries letters.

The fifth document is an Account of the Earthquake that happened in Barbary on the 1st, 18th, and 19th November 1755, It has been published by Magali Morsy in "Héspéris Tamuda(12) review. The original manuscript Text is conserved in The Public Record Office, it was sent from Gibraltar in a dispatch of governor Fowke.

The author of this document is an English merchant, his account is very detailed and displays a thorough description of the effects of Lisbon earthquake within Morocco.

The sixth text is a relation of the Earthquake by Rabbi Habib Bar Yussef Toledano, in the Seventh chapter of the Book "Divri Ha yamim chel Fas o Kitab Attawarikh" of Ibn Danan Family(13). This text presents precious details about the Earthquake in Salé, Fez, Meknès and a global description of what has happened in The Mellahs of these cities.

The seventh Text(14) is a relation of the Earthquake by Mohammad Adu'ayyef Al-ribati (1751-1818). There is a deep simulation with Addu'ayyef text and a text related by Mohammad Ben Attayyib al-Qadiri. Addu'ayyef was only four years old when happened the Earthquake, and has taken his information from other relation as *Tarikh al-Masnaoui* (The history of al-Masnaoui) and "*Nashr al-mathani*"(15) of al-Qadiri.

The eight Text is the cited text of al-Qadiri, very similar to the Addu'ayyef's Text.

1. Extensa y completa relación de todo lo acaecido de estragos y muertes en el Reyno de Berbería, en el passado Terremoto; como asimismo

la voracidad del fuego, que por 40 horas padeció la gran corte de Constantinopla la noche del 27 de Septiembre de este año 55, que por cartas de los Padres Misioneros de aquellas Provincias, escritas a los Religiosos de esta Ciudad, se ha participado; como asimismo otras de la Plaza de Gibraltar, como en ella se verá(16).

... Primeramente, dice que en Tánger, Tetuán y toda Berberisca, Costa, Mequinez, las dos ciudades de Fez, Marruecos y la corte de Argel fue con un inimitable excesso la nunca vista trepidación del Exe de aquel Emispherio, el día primero de noviembre de este año de 1755, a las diez horas de la mañana, a corta diferencia, con los.. pechos..se hospedó el pavor, se apoderó el pesar y reynó afligida la confusión. Eran las Calles, Plazas y campos, un Teatro de clamores, una Babylonia de algazaras, un Coliseo de tragedias, y un Panteón de desdichas.

En la Ciudad de Marruecos, de cuyas grandezas, aunque sucintamente, describiré algún rasgo; es esta Imperial Ciudad opulentíssima : dícese que fue principiada a fundar por abu Texfien, Rey de los Almorabidas, año de 1052, y la acabó su hijo Jucef; y en el trabajaron 30 mil Cautivos Españoles, que en aquel tiempo padecían mísera esclavitud. Es un Ciudad mui fortificada, su ámbito la hace capaz de cien mil vecinos, siendo sus Casas, Edificios, Torres y Murallas de una tan airosa arquitectura, que demuestra bien la primorosa idea de sus artífices : tiene veinte y quatro Puertas ; hay un Barrio, que llaman la Alcaicería, donde están todos géneros de ropas, sedas, algodones, y lanas, que dicen ser el más poderoso de toda la Berbería;.... En este celebrado Emporeo fue con tal violencia el Temblor, que no quedó robusto edificio que no padeciera fatal ruina; sus fuertes Murallas, que son de una argamasa tan dura, que heridas de un pico, sólo lo que de ellas saltan son encendidas chispas, como cenizas se desmoronaron, cayeron las más de sus Mezquitas, cogiendo de baxo infinidad de Moros, que acecinados baxo de las ruinas aún subsisten; no haviendo sido poco perjuicio, el que hizo la voras salida del Río Trancif, que baña aquella Ribera, entrándose por las Puertas de la Ciudad, y ahogando mucha gente, haviendo tenido, la que ha quedado, que salirse al Campo, por ser continuas las repeticiones y estremecientos. Distante ocho leguas de esta Ciudad, se abrió una boca tan disforme, que se tragó totalmente un Aduar entero con toda la gente, y seis mil Soldados Infantes, y cinco mil de Caballería, que allí estaban acuartelados, Chozas, camellos, vacas, caballos, mulas y otros ganados frutos, menaje, y alhajas que tenían, como cinco mil personas, que lo poblaban, sin haver quedado una.

La Ciudad de Mequines, hoy Corte de los Emperadores de Marruecos, está en un hermoso llano; divídese en tres Barrios, a quien separan, y circundan distintas Puertas, y Murallas, aunque todas baxo unos principalíssimos Muros. El primer Barrio es de la Judería, que tiene más de siete mil vecinos, entre los que se numeran más de diez y seis mil personas. Otro Barrio es el Reat-el-Amhar, donde Viven los principales Alcaides, por ser Lugar privilegiado de Justicias; y en el otro cuerpo viven los demás Naturales ; no es una Ciudad mui asseada, aunque a las Edificios hermosean muchas labores de yosso a lo Mosayco; el Palacio del Rey está extra-muros, pero mui contiguo a ellos es de magnífica grandeza, y riqueza sus Mezquitas son de grande número y singular fábrica, peltre o vidrio, que arden de día, y noche, para que la codicia no se encone ; porque las puertas están a todas horas francas para los que quieren ir a hacer el Zalah ; No tienen campanas, sino se subo a la Torre de cada Mezquita el Mudén, que es como Sacristán, o Cura, y en su idioma dice a voces, a siete horas distintas del día, una coplilla, que viene a ser como una alabanza a Dios, y al santo Embaxador Mahora. El motivo que dan para no tener Campanas es, que las almas de los Justos, dicen, que están en el Paraíso, como unas abejitas chupando la médula de las flores, y que assí que oyen el sumbido de las Campanas, caen como amortecidos privándose de aquella dulce fruición, y q assí, por este estylo, llaman impíos a los Christianos. Quando van a hacer el Zalah, a la puerta de las Chemâs, o Mezquita, se quitan el calzado, y luego se lavan tres veces en unas fuentes, que siempre hay abundantes en las Chemás, y después todos de montón, presidiéndolos e! Muftí Cadi, o Sabio, repite éste aquellas alabanzas, que dicen en las Torres.

En esta gran Ciudad fue el Terremoto con tanta vehemencia, que aunque no duró más de ocho minutos, fue tanta la destruición, que no quedó Mezquita, ni Edificio, que no padeciera ruina, siendo no menos el Real Convento, y Iglesia Hospital, que allí tiene la Orden Francisca Descalza, aunque (a Dios gracias) sin muertes de Religiosos. Viéndose éstos en el conflicto de havérseles arruinado las habitaciones, Iglesia, Hospicio, Enfermería, Botica, Granero, Almacenes, y demás Oficinas, precisas a las pensiones que en Si necesitan, haviendo recaído este conflicto sobre el que padecía esta Religión, por el rigor con que el Rey de Mequines tiene en obscuras masmorras con graves prissiones, y tormentos a dos de los RR. Padres Missioneros, por no haver tenido efecto el canje, que havían capitulado y después de todos les estragos, que padeció esta Población, el día 18 de noviembre experimentaron otro a las diez de la

noche, con duración de quatro minutos; y al día siguiente repitieron otros quatro a las 2, 5, 9 y 12 (de la mañana, siendo tal la violencia de éstos, que totalmente dexaron arrazada toda la Ciudad, y del todo inhabitable, sin quedar Edificio en pie.

La Ciudad de Fez es una de las más populosas de la Berbería ; divídese en dos Barrios : a uno llaman Fez Beli, que quiere decir Fez el Viejo; y "otro, Fez Di, que en nuestro, Idioma es Fez Nuevo. El Viejo, por su opulencia, puede llamarse Metrópoli; tiene de noventa a cien mil vecinos, seiscientas y cincuenta Mezquitas, y la mayor no tiene igualdad en el Orbe; hermoseándola diez mil y quinientas columnas de jaspe blanquísimo, sobre las cuales se substentan diez y siete naves por ancho, y ciento y veinte por largo; en cada Nave hay una lámpara tan capaz, que puedan arder mil torcidas juntas; y en la Nave principal, que es donde se les predica la Ley, hay otra mayor, y otras cincuenta en su circunferencia, del tamaño de las antecedentes ; y todas estas lámparas, dicen, que se fundieron de los metales, que llevaron quando se perdió España. Esta magnífica obra, al estremecimiento del Temblor, quo duró diez minutos, se desplomó, y cogió debaxo hasta ochocientos Moros, que estaban dentro, sin que se libertara alguno; passa por medio de las dos Ciudades un Aquedoco, o Río de incomprehensible fondo, y de su derrame muelen cuatrocientos Molinos, que hay dentro de la Ciudad, y se riegan todos los Jardines; pues no hay casa que no lo tenga. En el cultivo de esta Ribera, y Molinos del Rey trabajan, entre Negros y Cautivos, más de quince mil hombres, de quien son su brestantes los Renegados. Las crecidas aguas de este Golfo subieron tanto, que inundaron lo más de las dos Ciudades, con notable destruición, después de haverse arruinado. al impulso del Temblor, quasi todos los Edificios, y Palacios de seguros y fuertes jaspes, y bien cimentados pórfidos, como tabiques débiles se blandeaban, desencaxaban, y caían, sepultando a sus habitantes, y los que por las calles iban: siendo evidente no ha ver quedado la mitad de casa y personas. Y asimismo los Conventos, aunque todos arruinados, sin muertes de Religiosos, y que todos se miran en el campo ; en unas partes al asylo miserable de unas barracas ; en otras han fabricado, de los despojos de las ruinas de las Ciudades, unos resguardos ; en otras, al amparo de árboles, y concavidades piedras ; y en otras al total desamparo y todos en la aflicción de verse sin Iglesia, Altares, Vasos Sagrados, Ornamentos, Ropas, y demás alhajas, pensiones menesterosas a su manutención y agasajo de los Moros, y limosnas para los pobres Cautivos. y han sido en estas Ciudades tantas las

muertes de Moros, son quasi innumerables, aunque han excedido en multitud las de los Judíos; pues sólo en Mequines, componiéndose le Judería de diez y seis mil o más personas, solos quedaron ocho...

En la gran Ciudad de Salé no fueron menos las ruinas, muertes, y destrozos, quedando la más de su gente sepultada.

En Arcila, Mamora, Larache y Tánger, lo mismo en Zafi, y en Sta. Cruz, cayeron muchos Edificios, con muerte de infinita gente, y se les aumentó el daño con la nunca vista subida del Mar por sus murallas, hasta inundarles las casas, y campos sumergiendo y haciendo pedazos muchas Embarcaciones, y los que en ellas estaban; y al retirarse su furia, dexó las calles, y campos llenos de despojos, y pescados, con notable excesso

Esta misma inundación acaeció en los Puertos dichos de Arcila, Mamora, Larache, y Tánger y en este último se observó haverse retirado el agua de las fuentes por veinte y quatro horas.

En Tetuán y sus vecinas Poblaciones, se acabaron quasi de arruinar sus Edificios a las repeticiones, siendo cierto que toda aquella tierra está actualmente en continuo lento movimiento percibiéndose un subterráneo ruido, o bramido sordo; todos consternados, hacen continuas u públicas rogativas...

2. Relación escrita por el Padre Guardian del Real Convento de Mequinez, y Vice-Prefecto Apostólico de las Santas Missiones, que en las partes de Berbería conserva la Religiosa Provincia de San Diego de PP.PP. Francisco Descalzos, al Padre Procurador de ellas, con motivo del Terremoto acaecido en Ceuta, Tetuán, Larache, Mamora, Tánger y Marruecos, en los días 1. y18. de Noviembre de este año de 1755.

NUESTRO HERMANO PROCURADOR :

Desde de que la obediencia puso el cuidado de mi insuficiencia, y demérito el de estas santas Misiones, que infatigable, y animosa conserva nuestra Madre, y Santa Provincia, siguiendo las huellas, y Apostólico empeño de los cinco primeros mártires de la religión seráfica, y nuestro primer Padre, y Provincial San Juan de Pardo, que con su vertida Sangre, y cruel Martirio planificaron, y cultivaron ; no las he logrado ver libres de persecuciones, y trabajos, originados de la ambición de los Moros, empeño

que tienen de que les llevamos los que están en España, y de los Cautivos, que con el ansia de su libertad culpan à los Misioneros, y hacen causantes de que no se efectuase su Redención, ni se solicite con empeño por nuestro Rey, y religiones Redemptoras, como lo ejecutan en Argel, y Túnez, y en este Reino las demás Naciones.

De cuyos influjos resultó la prisión, que el día 26 de Agosto hicieron en Sale, golpes, palos, y bóvedas, que les dieron, quitarnos aquel Hospicio, è Iglesia, y dándosele, con cuanto en el había, à un Judío; llevarlos, y tenerlos presos en Marruecos, y el empeño del Príncipe, de que se le llevamos diez y seis Moros, Perros de Presa, Canarios, Ruiseñores, Paños, Telas, Lienzos, Cristales, China, Té, Azúcar, Dulces, y otras cosas de su gusto, y estimación. Nos dará cristianos (que nunca lo ejecutara sin mediar dinero) soltará los Misioneros, y nos dejará vivir à todos libres, y seguros en sus Dominios, como en tiempo de su Padre, y Abuelo ; y que de no llevarle lo que pide, matara los dos Religiosos, y à cuantos pueda haber à sus manos.

...En la consideración de tan singulares beneficios, y prisión de nuestros dos Hermanos, nos vimos intempestivamente en mayores trabajos, y aflicciones, con que quiso castigar la Majestad Divina nuestros pecados, e ingratitudes, en un tan terrible, y nunca experimentado Temblor de tierra, el día de Todos Santos à las nueve y tres cuartos de la mañana, que en los ocho minutos de su duración destruyó, y dejó enteramente en el suelo todo este real Convento, Iglesia, Hospital, Botica, Granero, y demás Oficinas, y sepultadas, pedidas en su ruina las provisiones, Alhajas, y menaje de las Misiones, Religiosos, Cautivos, y Regalos para el Rey, Chezefes

Y ministros: Desgracia, que igualmente padeció à la misma hora el Hospicio, Iglesia, Enfermería, que tenemos en la ciudad de Fez. En cuyas ruinas se manifestó tan visiblemente en nuestro amparo, y favor la Divina Clemencia; pues cuantos Religiosos, y Cautivos estábamos en el Convento y Hospicio, salimos sanos y libres al campo, habiendo quedado, para mayor confusión nuestra, muchos Moros, y judíos sepultados, y lastimados infinitos con las ruinas del fin numero de Casas, Mezquitas, Sinagogas, y Chemas, que se vayaenron en las Ciudades de Mequinez, y las de Fez; por lo que reconocidos, y agradecidos a tan singular beneficio, incesantemente rendimos gracias, loamos al Señor por sus Divinas piedades.

Nuestro dolor, y aflicción podrá V.C y todo fiel Cristiano inferir, considerándonos 'como estamos) en el Jardinillo, disponiendo con los fragmentos de las ruinas, donde celebrar Misas, y recogernos, sin Provisiones, Ropas, menaje, y Alhajas, para el preciso alimento, curación, socorro, y demás necesidades de los Religiosos, y Cautivos, y agafajos de los Moros, y entre estos Infieles, que no conocen la piedad, ni conmiseración, y su mayor blasón, y virtud es maltratar a los cristianos : y lo mas sensible y que lastima nuestro corazón, es sin el convento, Hospicio, Iglesias y Hospital en que a pesar de enemigos tan acérrimos del nombre cristiano, se adoraba a nuestro soberano Dios Sacramentado, celebrada el tremendo sacrificio, administraban los Santos sacramentos, decían los Divinos Oficios, curaba, asistía, consolaba, socorra, y daba todo pasto espiritual, y temporal a los cristianos, y proveía de Ministros, y lo demás necesario a los Hospicios, y partes donde residían Cautivos. Dios nos consuele, y mueva a todo fiel cristiano, para que con sus piadosas limosnas pueda V.C remediar tan gran pérdida, y necesidad.

Los estragos, y daños, que aseguran ha causado el Temblor en las ciudades, y Poblaciones de este vasto, y dilatado Imperio, son inauditas, y nada verídicas las que refieren muchos, por lo que solo refiere à V.C. las que me han avisado Cautivos, y Mercaderes Católicos y verdadero. En la ciudad de Marruecos, y a la misma hora que en este, se experimentó con igual rigor el Temblor, que derribo y arruino muchos edificios, casas y Mezquitas, dejo las demás sentidas, y sepultados en demás ruinas sin número de gente. Ocho leguas de esta, se abrió la tierra y tragó un Aduar con todas sus Chozas, Gente, Caballos, Camellos, Mulas, Bacas, y demás Ganado, Frutos y menaje, que tenían, mas de cinco mil soldados de a caballo, que estaban acuartelados, sin que de unos no otros escapase alguno.

En los puertos de Safi, y Santa Cruz causó graves destrozos, y ruinas en los Edificios y casas dejando sepultadas mucha gente : daño que les aumentó la alteración de la Mar que desde las diez del día, hasta las seis de la tarde continuó creciendo impetuosamente y retrocedía con igual aceleración dejando descubierto el fondo de los Puertos, en que estaban ancorados los Novios y embarcaciones sumergiendo y maltratando algo de ellas con la gente y las calles y campos llenos de despojos y pescado.

Los mismos estragos y muertes causo el temblor en las dos ciudades de Salé, y la Mar inundó todas sus calles y almacenes y arrebató tres barcos

con mas de doscientos Moros, que pasaban por el rió de una ciudad a otra, y los sumergió en su profundidad sin que escapase alguno. Una gran cáfila de Moros, camellos y mulas que habían salido aquel día de Salé con Mercadurías para Marruecos, la tragó la Tierra.

En Arcila llegó la Mar a mas de la mitad de la ciudad con la que como con el Temblor, perecieron innumerables personas, quedaron en el suelo, y arruinadas las mas casas, y edificios y sentidos los demás sumergió algunas embarcaciones, y con tan gran ímpetu metió en medio de la ciudad un Pingüe grande Inglés que le estrelló y abrió por medio, sin que pereciese ninguno de su equipaje que los mas eran Católicos

En Larache, Mamora y Tánger, el temblor de tierra e inundación de la mar causo muchos daños y destrozos en las casas y edificios con muerte de bastante gente.

Ceuta y Tetuán experimentaron en su fuerza y vigor el temblor, sin recibir daño considerable, mas que quedar muchos edificios y paredes desgajados y sentidos y haber causado en todos gran susto, y confusión, que as hombres como mujeres se salían a la campaña y manten an en ella todo el día con el temor de que repitiese ; que lo mismo hicieron todas las gentes en las otras ciudades y Pueblos. De las demás de este vasto Imperio no tengo noticias ciertas, pero discurro habrán experimentado el mismo estrago. Y es de notar, que entre tanta gente como ha perecido, no tengo noticia, haya peligrado algún Religioso, ni Cautivo: y que el día del terremoto se observó el Cielo sereno, calor no acostumbrado en tal estación, calma con algunas rajas de viento, hasta que este se fijó a poniente, con nublados a la noche a levante, en la que, como el día siguiente, hubo muchos relámpagos, y truenos, y cayó excesiva agua, y granizo, que con el terror de los pasado, consternó a todos, y afligidos discurrían se acababa el Mundo. Dios por su infinita Misericordia, y piedad, tenga conmiseración de nosotros y nos libre de semejantes trabajos, y à VC. Le guarde muchos años. Mequinez, y Noviembre 8 de 1755.

CAPITULO DE CARTA ESCRITA EN TETUAN

El día 24 de Noviembre de 1755

En esta ciudad y población experimentando el día 18 de este, a las diez de la noche, segundo temblor, con la fuerza que el primero, por cinco

minutos; continuó lentamente hasta la tarde del día siguiente, (y aun continua según muchos) pero a las 2.5.9 y 12 de la mañana, lo sentimos por cuatro minutos, con toda aceleraciún, y fuerza. Todos se salieron a la campaña, en la que perseveran muchos, y es general la aflicción, y consternación, como las Rogativas públicas, y clamores a Dios.

En Tánger observaron igualmente, y con las mismas circunstancias, horas, este segundo, y repetido temblor, y que por 24. horas se retiró el agua, y secaron del todo las fuentes.

Acaba de llegar un expreso de Fez, con la noticia de haberse caído y arruinado con el temblor de los días 18.y19. lo mas de aquellas dos ciudades y quedado sepultados en los materiales mas de tres mil personas; y que en los mismos días quedó destruida, é inhabitable la populosa corte de Mequinez, pues en ella es contada la casa, que está en pie, y ninguna sin grave daño; y que todos sus habitadores se retiraron, y mantienen en el Campo, menos como cuatro mil moros, que se quedaron sepultados en los cuatro edificios. Y los judíos de la judería grande, en la que parece quiso Dios manifestar el justo enojo, ya cargar el Azote de su Divina Justicia; pues de los muchos que la habitaban, (que aseguran serían 16 mil personas) solo escaparon ocho con vida, de tan infame gente.

Las sierras de Sajón tres leguas de Mequinez, con el temblor del día 18. se abrieron por medio, y sepultaron un santuario, que en ellas tenían y el lugar de Ydris y otro pueblo que estaba en la contraria falsa, sin que escapase viviente alguno.

La ciudad de Tessa, en el mismo Reino se hundió con todos sus moradores, y el mismo temblor.

En todo este Reino se observa continuo movimiento lento de tierra, y en su interior ruido, o bramido sordo, que uno, y otro tiene afligidos a todos y en continuas, y públicas Rogativas, pidiendo misericordia a Dios. Su Majestad les dé luz para que conozcan su Santísima Ley, y haya librado, y libre a todo Fiel Cristiano de semejante trabajo, y conceda a todos la felicidad eterna.

3. Relation des terribles ravages occasionnés en Afrique par le cruel tremblement de terre qui a détruit la plus grande partie du Royaume de Maroc avec un détail de tout ce qui est arrivé depuis le premier novembre jusqu'à présent.

Après le récit des affreux ravages que le tremblement de terre a faits en Europe, et en particulier dans Lisbonne, devait-on croire que ce terrible phénomène passât rapidement de notre Continent en Afrique, pour y faire sentir tout le poids de sa fureur ?

Le malheureux Africain perd la vie dans une terre, qui, jusqu'à ce jour abominable, avait été par sa fécondité la source de son existence, cette même terre n'ouvre ses entrailles enflammées que pour y engloutir ses enfants dans des gouffres de soufre et de bitume : des Villes, des Camps et des Contrées entières sont précipités dans des abîmes, qui se referment à l'instant, sans laisser à l'oeil errant le soupçon qu'il y ait jamais eu aucunes habitations dans ce vaste pays.

La Ville de Salé n'était pas remise des alarmes et de l'épouvante que le Prince de Maroc faisait marcher devant son armée, lorsqu'il s'en est rendu maître : on y pleurait encore la captivité des principaux habitants que le Vainqueur avait fait mettre aux fers quand tout à coup les éléments déchaînés semblèrent annoncer que la Nature allait rentrer dans le chaos.

Le premier novembre, à la même heure que Lisbonne souffrait ces violentes secousses qui l'ont détruite, l'on sentit ici un tremblement si violent que les maisons et autres grands édifices furent renversés. Plus de la moitié des citoyens ont disparu. La poussière que causait l'écroulement des bâtiments, formait des tourbillons épais qui dérobaient aux tremblants humains les rayons du soleil ; cet astre lumineux parut obscurci pendant trois minutes. Dans cet horrible moment l'on portait au hasard des pas mal assurés, à la triste lueur des flammes qu'un incendie général avait répandues dans la ville. Le sifflement d'un vent impétueux, le bruit affreux des souterrains mugissants, les cris aigus de ceux qui allaient périr, faisaient un composé d'horreur qu'il n'est pas possible de décrire : l'œil a vu et l'oreille a entendu ce que la langue ne peut exprimer, et le pinceau le plus habile sera toujours trop faible pour esquisser cet horrible et affreux tableau.

A huit lieues d'ici, dans une grande étendue de pays, la terre s'ouvrit et forma un vaste gouffre dans lequel furent engloutis une multitude innombrable de chameaux, chevaux, bêtes à cornes et troupeaux de moutons ; cinq mille habitants y ont perdu la vie : un corps de six mille Cavaliers qui était campé dans ces quartiers, fut plongé dans l'abîme, avec les chevaux, tentes et autres équipages de guerre. Après ce cruel

événement, la terre se referma; et le lendemain il eût été difficile de connaître l'endroit où la veille existaient tant de Villages et de Hameaux, tant d'hommes et tant de bestiaux. Les gras pâturages de ces plaines si fertiles, ne présentaient qu'un vaste terrain couvert de sable, aride et mouvant.

Dans les Ports de Saffy et de Sainte-Croix plusieurs maisons furent abattues, et beaucoup de personnes en furent écrasées. La mer plus violemment agitée que l'on ne l'a vue de mémoire d'homme, fracassa les vaisseaux, qui se heurtaient les uns contre les autres, sans qu'on ait pu lever les ancres qui les retenaient. Les bâtiments qui étaient au bord de la mer ont été renversés par la violence des flots ; et l'enceinte du Port fut couverte en un instant de débris, de cadavres et de poissons morts qui surnageaient sur les eaux.

Plusieurs caravanes de Voyageurs et de riches Marchands qui se trouvèrent sur les côtes, furent aussi les victimes de ce terrible tremblement : la terre qui s'entrouvrait sous leurs pas chancelants, les a enfin engloutis ; d'autres ont été emportés par les vagues de la mer. Ceux qui aux premières secousses crurent trouver leur salut sur le sommet des rochers les plus escarpés, que la frayeur, qui donne des ailes, leur avait fait grimper malgré des obstacles presque insurmontables, ne jouirent pas longtemps de la sécurité de leur retraite : ces mêmes rochers se détachèrent, et roulant avec un bruit horrible, ensevelirent sous leurs ruines leurs nouveaux habitants.

A Tétouan et dans les pays circonvoisins, on sentit un second tremblement de terre aussi violent que celui dont on vient de parler. Il commença le 18 à dix heures du soir, et dura quatre minutes avec la même force, ensuite il continua lentement jusqu'au soir du jour suivant ; mais le surlendemain à deux heures, à cinq heures, à neuf du matin et à midi, les secousses furent réitérées avec autant de violence et de dur que le 18. Chacun se réfugia en pleine campagne, où la frayeur a fait accoucher beaucoup de femmes avant leur terme. Ces infortunées qui s'étaient sauvées presque nues, couchées sur la terre, exposées à toutes les injures de l'air, et privées de toute nourriture, demandaient la mort pour elles et pour les malheureux qu'elles venaient de mettre au monde. Aux horreurs de la famine se joignait l'ardeur brûlante de la soif. Tels que dans un champ de bataille, où plusieurs blessés, dépouillés par l'ennemi, demandent pour toute grâce que l'on leur donne la mort, on voyait épars ça et là des

pelotons de blessés, de tout âge et de tout sexe affaiblis par le sang qui était sorti de leurs blessures, demander comme une faveur à leurs parents et à leurs amis de les assommer : quelques-uns de ces misérables ont eu cette cruelle pitié.

A Fez le tremblement de terre que l'on y essuya les 18 et 19, renversa les édifices et les maisons des trois Villes dont cette Capitale était composée, et ensevelit sous leurs ruines plus de trois mille personnes.

La Ville de Mequinez, pendant les deux mêmes jours, fut entièrement détruite, et elle est généralement inhabitable : le peu de maisons qui restent sur pied sont si fort endommagées, qu'il n'est pas possible de les réparer. Les habitants, qui ont eu le bonheur de s'échapper, sont, ainsi que ceux de Fez, répandus dans les campagnes et y souffrent les mêmes horreurs. On compte dans cette Ville quatre mille Maures écrasés ou enterrés sous les décombres. De seize mille Juifs dont la grande Synagogue était composée, plus de la moitié ont péri.

Dans tout le Royaume de Fez la terre est agitée par un mouvement lent et continuel. L'on entend dessous terre un bruit sourd, qui entretient ces malheureux Africains dans une épouvante qui se renouvelle de moment en moment. La nuit rend ce bruit encore plus terrible, et les infortunés qui l'entendent sont toujours dans l'attente d'un nouveau tremblement. La mort sans cesse présente à l'esprit, chasse loin de l'homme la douceur du sommeil ; et ceux qui y succombent par l'excessive fatigue, sont tout à coup réveillés par des songes aussi effrayants que le péril même.

Dans une situation aussi cruelle, le peuple consterné lève vers le Ciel ses mains faibles et tremblantes, et implore à grands cris sa miséricorde.

Le 18 novembre on a encore ressenti à Tanger et à Marrucos un second tremblement de terre qui a duré vingt-quatre heures. Pendant ce temps-là toutes les sources on tari.

A Arzila, la mer a inondé plus de la moitié de la Ville, et a porté au milieu de son enceinte une pinque Anglaise, qui y est restée à sec.

A Larache, Memora, Jampel et Ceuta les secousses ont causé des dommages inexprimables.

Le jour de ce tremblement de terre, le ciel était extrêmement serein, et la chaleur extraordinaire pour la saison. Le ciel se couvrit à l'entrée de la

nuit, il y eut de fréquents éclairs, accompagnés d'un tonnerre effroyable, qui furent peu de temps après suivis d'une grosse pluie mêlée de grêle, qui ne cessa qu'avec le tremblement.

On compte qu'il a péri dans les différents endroits de l'Empire de Maroc plus de six cents mille personnes, et l'on assure que parmi ce grand nombre il ne se trouve pas un seul Chrétien.

4. Storia dell anno 1775 p : 156-160

...Per altro sopraggiunse a quelle, ed alter città dell'impero di Marroco un disastro, per cui restarono molto roviute, e in una grande costernazione. I Terremoto (de quali si dovrà parlare in alto luogo), pricipati col mese di Novembre e replicati di tratto in per tutto il resto dell'anno, i quali si fecero principalmente sentire da un canto all' altro della parte Occidentale d'Europa, mostrando di avere per loro centro il Regno del Portogallo, la di cui Capitale Lisbona su pocomen che distributta, fecero grandissime stragi e rovine anche nella parte settentrionale all'Occidente dell'Africa. Se ne ebbero in Europa queste notizie prima del fine dell'anno con lettere, che mandarono in Ispagna i Missionari Francescani, mantenuti in Barbaria dalla Provincia di San Diego dell' Andalusia.

Le prime di tali notizie dicevano, che al primo di Novembre, giorno di tutti i Santi, allo dieci incirca della mattina, si provo nella Cittaà Capitale di Mequinez un orrible terremoto, che duro otto minuti, e negli edifizi, per le quali morirno molti Mori, restando interamente demolitala loro principal Chema (cioè la Chiesa). Che il Real Convento Spedale dei Missionari rimasero pure demolite, e ugualiati al suolo, senza che fossero resirvate Chiesa, Infermeria, Officina, o Cella alcuna; disponendo la Divina Misericordia, che usciffero tutti li Religiosi e altre persone del Convento con alcuni Schiavi infermi, e non soffriffero la minima lesione nelle loro persone; essendosi ritirati i religiosi in un piccolo giardino dentro capanne, che formarono dei ritirati dalle rovine.

Che nella Citá di Fez il medesimo Terremoto gittó a terra molti Edifizi, e seppelli trale rovine gran quatita di Mori; e la Casa Opizpo, Chiesa, Infermeria dei Missionari restarono inabitabili.

Che in quella di salé cagionò molte rovine e morti; eche l'innondazione, che sopravvenne dal mare, somnierse le Barche, e persone

che in esse trovavansi, alzandosi a dismisura le acque, e lasciando nel ritirarsi la Città e le campagne semi----di pesce. Che una giornata in distanza dalla Citta si apri la terra e inpojò una gran Caravanna di mori, Cammelli, eMule, che andavano carichi di vivere a Marrocco.

Che a Tetuan si era sentito il terremoto con tutta la forza; senza però cagiornar danno nella Città, e nell' Opizpo dei Missionari. Estersicola saputo da alcuni Mori, e da lettere, che nelle Città di Arache, Tanger, Arzila, e Mamora erano precipitari molti Edifizi con la morte di numero considerabile di Mori, e innondati i paesi dal mare con perdita di Barche e persone.

Le posteriore Notize, venute con un secondo Correiro, non solamente confermarono le prime, ma aggiunsero molti altre particolarità del Terremoto di quel giorno, e di uno susseguente non meno terrible dei 18 del medesimo mese.

Le lettere di Salè dicevano, che in Marrocco su sentito al primo di Novembre il Terremoto con tanta violenza, che caddero molti Edifizi; Meschite, e Case, nelle rovine delle quali furono seppelliti un numero considerabile di Mori, e il resto della Città su maltrattato e conquassato. Aggiugevano, che otro leghe da quella Città si apri la terra, e seppellì nelle sue viscere tutto un Advar, o sia Luogo, Gente, Camelli, Cavalli, ed altri animali; essendovi perite da cinque mille soldati di Cavalleria, che ivi avevano i loro quartieri. E finalmente soggiungevano, che i Porti di Saffi e Santa Croce soffrirono molte rovine nei loro edifizioni e abitatori ; e che morirono moltissime persone, per avere il mare innondato i detti Porti, e riempito di spoglie e di pesce le strade e Campagne.

Quelle del Missionario di Tetuan ragguagliavano, che nella giornata dei 18 Novembre alle dieci dellà notte si provò un secondo Terremoto della stesia forza del primo ; il quale durò lo spazio di quattro minuti, e continuò lentamente per modo, che sembrava continuasse sino allà sera dei 19.; nella quale alle due, cinque, nove, e dodici, per lo spazio di quatro minuti in ciascuna volta, replicò più forte, e finalmente alle dieci torno con maggiore violenza : sicchè, quantunque non cagionasse danni notabili, intimorì talmente la gente, che uscì alla campagna, trattenendovisi per molti giorni in continue preghiere.

Aggiungeva lo stesso Missionario, aver ricevuto avvili da Fez, che nei suddetti giorni 18. e 19. Novembre erano cadute, e rovinate nelle due

Città di Fez nuovo, e di Fez vecchio, quasi tutte le abitazioni, e rimaste le altre danneggiate: che tra i Materiali e le rovine restarono seppellite più di tre mille persone: che la numerosa e popolata Città di Mequinez ne' medesimi due giorni rimase inabitabile e distrutta; potendosi numerare le abitazioni restate in piedi, e tutte moltissimo danneggiare ; per lo che tutti rifuggioronsi alla campagna, lasciati quasi quarantamile Mori sepolti nelle rovine, e tutti gli Ebrei del Gran Ghetto, che si computavano per sedici mille persone, conchiùndeva por poi il sudetto Missionario, che in tutto il Regno di Marrocco offervavasi un continuo lento movimiento della terra, e nelle fue viscere un rumore e gemito sordo, per i quali tutti stavano in timore, costernazione, ed aflizione, facendo publiche Preghiere per ottenere Misericordia dal Signore.

5. Account of the Earthquake that happened in Barbary on the 1st, 18, and 19th November 1755.

Tetuan

The Earthquake began the 1st November at 10 in the morning and lasted between 7 and 8 minutes, during which space the shock was repeated three different times with such violence that it was feared the whole city would fall down ; but the only damage that resulted was the opening or parting of some of the walls of sundry houses. It was likewise observed that the waters of the River Chico on the other side of the city, and those of a fountain appeared very red.

Tangier

The Earthquake began about the same time, but lasted longer than at Tetuan ; the trembling of the houses, mosques etc. was very great ; and a large promontory of an old building near the city gate, after three shocks, fell down to the ground, by which five shops were demolished, the sea came up to the very walls, a thing never seen before and went down directly with the same rapidity as it came up, as far as the place where the large vessels anchor in the bay, leaving upon the mole a great quantity of sand and fish, These commotions of the sea were repeated 18 times and continued till six in the evening though not with such violence as at the first time. The fountains were dried up so that there was no water to be had till night and as to the shore side, the waters came up half a league inland.

Arzila

It happened about the same time, but the damage was not so great at the coming up of the sea though Moors who were out of the town walls were drowned, and the waters came in through one of the city gates very far. The waters came up with such an impetuosity that it lifted up a vessel in the Bay which (at the waters falling down to its center again) fell down with such a force upon the land, that it was broke to pieces ; and a boat was found at the distance of two musket shots within land from the sea.

Sallee

There happened a very great damage, several houses having fallen down, the waters came up with such a rapidity that they came into the city and at their falling down, great quantities of fish were found in the streets, and many persons were drowned. Two ferry boats overset in the River and ail the people on board were also drowned, and a large number of camels that were just then going out for Moraccos were carried away by the waters.

Fez

Vast number of houses fell down, and great many people were buried under the ruins. At the Seloges [Zalagh] (a place where the Barbarians live not far from Fez) a mountain broke open and a stream issued out as red as the blood. Mequinez Vast numbers of houses fell down, and great many people of both sexes were buried under their ruins. The Convent of the Franciscan Friars fell down to the ground, but the Friars were saved.

Saffee

Several houses fell down, and the sea came up as far as the great mosque which is within the city and at great distance from the sea.

Morroco [Marrakech]

By the failing down of great number of houses many people lost their lives ; and about eight leagues from this city, the earth opened and swallowed up a village with all the inhabitants (who were known by the name of the Sons of Busuba [Ouled Boussebae] to the number of about 8 to 10,000 persons, together with their cattle of all sorts, as camels, horses, horned cattle etc. and soon after the earth was closed again in the same manner as before.

Fez and Mequinez

On the 18th November there happened another Earthquake, which was more violent than the first, and lasted till break of day the 19th during which time great number of houses fell down at Fez, many people of both sexes were buried under their ruins, and as to Mequinez there are but few houses left standing, the people killed by the falling of the houses besides the wounded are numberless, and in the part of the town called the Jews' habitation only eight people were saved.

Sarjon Hills [Zerhoun]

One of the said hills was rent in two, one side of which fell upon a large town where there was a famous sanctuary of their Prophet known by name of Mulay leris [Idriss] , and the other side of the said hill fell down upon another large town, and both town and the inhabitants were all buried under the said hill.

Faso

This famous city was wholly swallowed up no remains left.

This last Earthquake was likewise left ... at Tetuan and Tangier, buth without any other damage than that the fountains of Tangier were dried up for the space of 24 hours.

These are the truest and freshest advices that have been received to the 1st of January 1756

6. The Earthquake of November 1755 related by Ibn Danan in History of Fez P : 150-151

ביום שב"ק דין להבין תקי"ו לפ"ק אחר סעודה שחרית. רעשה כל הארץ" בקול גדול
התמיד קרוב לשביעית שעה. וברחנו מן הבתים לרחובה של עיר. והארץ היתה מתנועעת(ג) עת
תחתינו כנוע עצי יער. ונבהלנו באר לנפשותינו פן ב"ס" יהיו בתינו קברנו. כי בעינינו ראינו
הכותלים נפרדו איש מעל אחיו והיו הולכים ובאים [נוטים ליפול והרבה בתים נפלו]
ותלי"ת' לא מת שום אדם [כי כולנו יחד ברחנו מאימת המפולת אנשים ונשים והנחנו
האהלים כאשר הםה] <ובעיר סלא ג"כ היה (נ"ב) רעש ביום הזה>, ואחר עבור הרעש
כמו רביע שעה בקירוב נשמע קול רעש גדול בים ותיכף ומיד אזלו מים מן לשון הים
המפסיק בין הן גיסא לההוא גיסא משאו האלפלאיך." עומדים ביבשה ואח"כ חזרו המים
למקומם בזעף גדול ברגע א', ושטף עבר עד מקום שלא היה דרכו להתפשט, ושטף הגויים
שהיו בהאלפלוכא וגם הגויים שהיו קרובים אל שפת הים שטפם. ומבני ישראל לא מת א'.
וביום ש"ק הבא אחריו [אחר שיצאנו מתפלת שחרית] היה ג"כ <בעיר סלא יע"א> רעש
קטן ולא הזיק.

ובליל ד' ט"ו לכסליו שנה הנ"ל [בתחלת הלילה אחר שהתחילו קצת בני אדם לישן] היה
רעש גדול בחוץ <לבבאר בר בנאס יע"א> ונפלו רוב הבתים ומתו הרבה מבני ישראל.
יותר ממאתים נפשות. והיו בתוכם קבריהם. ואחר עבור הרעש [illegible] העפר מעליהם
והיו [illegible] איתם [illegible] ונקברו [illegible] שהיו [illegible]
בן בה עשרה בני אדם או יותר בקבר א', ומאי"ה" כתי יותר מחמשת אלפים, ורוב הבתים
והחצרות נפלו ובתים שנשארו עומדים היו רעועים והרבה הפילום בידים. ובתי כנסיות
[illegible] ורובם בכותם נפלו, ובהאלכדינדי" של הגויים נפלו כל המבצרים דאלסלאם
והאלגייאבטי" והחומות וחומת העיר נפלו קצת ממנה, קרוב לשבעים אמה בבת.
והספידו היהודים האומללים בבנין התיבה כמו ארבע מאות מתקאלים. ובכל צד שהיתה
חומת העיר פרוצה היו שומרים שומרים בלילות לשמור אותם משודדי לילה. ונתרחקו
להחיב העיר, וישבו תקענו אהלים, והיינו מוטלים ע"פ השדה לחורב ביום ולקרח בלילה.
ובעיר סלא באה השמועה שהיה ג"כ הרעש, ותלי"ת לא מת א' מכל בני ישראל.

וביום ש"ק י"ח לכסליו הנז' היה רעש אחר, עד שרבים קמו לברוח מבית (קודם ברוך
שאמר) ובכל מה שאירע בעיר מכנאס יע"א בליל עיר לכסליו אירע ג"כ במקום הנק' זיאלאי
[illegible]" שהיו בתוכם קבריהם. ובפאס יע"ה" נתרועעו הבתים ונפלו קצת מהם אבל לא הזיק
שום א' מהם, ב"ה" שאינו בן ברית. [וג"כ בכל המערב וזולת מכנאס וזולאי [illegible]].

ובעיר ארזו באה השמועה. יש שהיה בהם מפולת יהיו בתיהם קבריהם. ובעיר לייבואה
היה להם רעש גדול, ביום שבת הראשון שהיה הרעש בפאס, והדו אש מן השמים עליהם
ושטפם הים, מלבד הרעש שהפיל עליהם בתיהם ומכולם לא נותר מהם א' מעיר ושנים
ממשפחה. ולולא ה' צבאות היו שנאדם של ישראל בתיהם קבריהם, ועדיין לפעמים הארץ
מתנועעת אך לא כראשונה.) ובמכנאס עדיין היו רעשים קטנים בכל שבוע אבל אינם מזיקין
ועדיין הם באהלים עד ר"ח אייר שנה הנ"ל. ובימי השנה הזאת נגלו מוסדות תבל לפ"ק. ה'
ירחם על ישראל עמו אכי"ר.

י"א לסיון היה הרעש וברחנו מן הבתים [אנשים נשים וטף] ומהרה שקטה הארץ והיה
זה בשנה הנ"ל.

7. The Earthquake of November 1755 related by Adu'ayyef al Ribati en “Tarikh addu'ayyef, *Tarikh addawla al-alawya assa'ida*”

تاريخ الضُعَيِّف الرباطي (تاريخ الدولة العلوية السعيدة). تحقيق محمد البوزيدي الشيخي، الجزء الأول، ص 281، بعنوان «زلزلة عظيمة»، طبعة دار الثقافة، الدار البيضاء 1988.

(زلزلة عظيمة)

«وفي ضحوة يوم السبت السادس والعشرين من محرم الحرام فاتح تسع وستين ومائة وألف 1169 هـ. وقعت زلزلة عظيمة ارتجت الأرض بها ارتجاجا فاهتزمت أولاً ثم مالت مشرقا ومغربا وبقيت تضطرب وسمع نحو اسم صوت من الأرض يشبه صوت الرحا التي تدحرج بالأزقة وقدّر ما بين اهتزازها وسكونها قريب من درج سمعنا من يقول اضطرب الماء في الصهاريج حتى فاض على البيوت وتغيرت العيون ووقف الماء في الأودية على الجري وسقط بعض الدّور بفاس القديم، فمن لطف الله أنه لم يمت بفاس إلا نفسان أو ثلاثة وسقط التراب واللبن من غالب الدور وتصدعت الحيطان وتعيبت وأخذ الناس في هدم ما تعيب منها خوف سقوطه عليهم وفزع الناس الفزع الأكبر وفروا من الحوانيت وتركوا أمتعتهم بها وهي غير مغلوقة وعطلت المكاتب والأدرزة والأسواق وتدارك الله تعالى خلقه بلطفه وعفوه، ثم جاء الخبر لفاس من مدينة سلا أن البحر مال لأقصاه وهرب فخرج الناس ينظرون فولّى إلى ناحية البر وعرج عن الأرض نحو مسافة وغرق فيه جميع من وجد خارج المدينة فمات فيه خلائق، وصادف قافلة ذاهبة لمراكش فيها من الدواب والأدميين عدد كثير فمات الجميع ودفع ما في سواحله من الفلك والقوارب فوجد قاربا أبعد من البحر بأكثر مسافة على ظهر الأرض، والملك لله وحده. ثم ورد خبر ءاخر أن بعض الجبال تصدع منها جبل صغير قرب سيدي أبي الشتاء من عمل وَرْغَةَ تصدع بثلاثة قطع فصادفت قطعة منها دارا فمات أهلها جميعا وبقي الناس في وجل وهم يذكرون أنها عادت مرارا ولكن لم يتحقق كل الناس. ثم مضى نحو من ستة وعشرين يوما فوقعت زلزلة أخرى بعد صلاة العشاء شديدة جدا أشد من الأولى، إلا أنها لم تطل بل هدئت بسرعة، فسقط دور من فاس واشتد رعبهم فورد الخبر بأن غالب دور مكناسة وقصورها انهدمت ووقعت صومعة مسجدها الأعظم إلى أساسها وتهدم كثير من المساجد ومسجد قصبة السلطان الأعظم وكثير من المساجد، ومات بالهدم خلائق كثيرة بمكناسة وأحصي منها نحو العشرة آلاف ومن لم يُحصَ لا يعلمه إلا الله، ووقع من ذلك أمر هائل وخرج من بقي في المدينة إلى الفضاء وضربوا الفساسيط والأخبية والخزائن والقياطين، ومن لم يقدر اشترى من مطلق الثياب والخشنة، ولولا أن حاكمها منعه من الخروج عنها من الخروج عنها عن أمر قاضيها الفقيه أبي القاسم بن سعيد العميري لخلت وبقيت براحا، ثم لما طال الحال وتُنوسي بعض ذلك زال روعهم ورجعوا لها وأخذوا في

التخميل التراب من الدور والبحث عن الأمتعة، وتمول من ذلك قوم وافتقر ءاخرون ثم أخذ الناس بعد ذلك في البناء. وأما أهل فاس لما ورد عليهم الخبر اشتد روعهم وقصدوا أيضا البراحات والمساجد مدة خوفا من عودتها مرة أخرى، ثم بعد ذلك هدأوا وكان من لطف الله بفاس أنه لم يتهدم الكثير من دورها ولم يمت بها إلا القليل ولكن تعيب كثير من جدرانها، ومن لطف الله تعالى بأهل سلا وأهل الرباط أنه لم يمت أحد منهم ثم ورد الخبر أيضا بإهلاك مدن من بلاد النصارى دمّرهم الله بأمر هائل جداً والحمد لله على هلاكهم وعلى فضل الله ولطفه ورحمته بالمومنين ﴿لَوْلا أنْ مَنّ اللهُ عَلَيْنا لَخُسِفَ بِنا﴾ اللهم اعصمنا من الأهوال، نسأله تعالى دوام نعمته وعافيته».

الزلزلة حسب «تاريخ المسناوي»

جاء الكلام عن الزلزلة التي تحدث عنها المسناوي، في «تاريخ الضعيِّف»، ص 283، ج 1، تحقيق محمد البوزيدي الشيخي، دار الثقافة، الدار ا لبيضاء، 1988. والنص هو ما يلي : العنوان : «خبر الزلزال عند المسناوي»

«ومن تاريخ الحاج المسناوي الرباطي، رحمه الله، ما نصه : «وفي يوم السبت السادس والعشرين من محرّم الحرام فاتح عام تسع وستين ومائة وألف 1169 هـ وقعت الزلزلة بل زلزلة عظيمة ودامت نحو أربعة أدراج من ساعة، وذلك يوم السبت كان بقي للزوال ثلاثون درجا ووافق اليوم الواحد والعشرين من شهر أكتوبر عام 1755 للمسيح. انتهى كلامه».

8. The Earthquake of November 1755 related by Mohammed ben Tayyib al-Qadiri in «Nachr al-mathani li-ahl al-qarn al-hadi 'achar wa-ththani.

«نشر المثاني في القرن الحادي عشر والثاني» لمحمّد بن الطيّب القادري، تحقيق محمد حجّي وأحمد التّوفيق، مكتبة الطالب 1977، الرباط. النص :

«ففي ضحوة يوم السبت سادس وعشرين من المحرم وقعت زلزلة عظيمة ارتجت الأرض لها ارتجاجا، فاهتزت أولا ثم مالت مشرقا ومغربا وبقيت تضطرب. وسمع نحو اسم صوت من الأرض يشبه صوت الرحا التي تُدحرج بالأزقة، وقدر ما بين اهتزازها وسكونها قريبا من درج، وسمعنا من يقول اضطرب الماء في الصهاريج حتى فاض في البيوت وتغيرت العيون. ووقف الماء في الأودية على الجري، وسقطت بعض الدور. فمن لطف الله أن لم يمت بفاس إلا نفسان أو ثلاثة، وسقط التراب واللبن من غالب الدور، وتصدعت الحيطان والسقوف وعيبت، وأخذ الناس الفزع الشديد، وفروا من الحوانيت وتركوا أمتعتهم بها وهي من غير غلق، وعطلت المكاتب والأطرزة والأسواق، وتدارك الله تعالى خلقه بلطفه وعفوه.

ثم جاء الخبر من مدينة سلا أن البحر مال لأقصاه فخرج الناس ينظرونه، فولى لناحية البر وخرج عن الأرض نحو مسافة المُلك لله وحده.

ثم ورد خبر آخر أن بعض الجبال تصدع، منها جبل صغير قرب سيدي أبي الشتاء من عمل ورغة، تصدع بثلاثة قطع، فصادفت قطعة منها دارا فمات أهلها جميعا. وبقي الناس في وجل وهم يذكرون أنها عادت مرارا ولكن لم يتحققها كل الناس.

ثم مضى نحو ستة وعشرين يوما فوقعت زلزلة أخرى بعد صلاة العشاء شديدة جدا أشد من الأولى بكثير، إلا أنها لم تطل بل هدنت بسرعة، فسقطت دور من فاس واشتد روعهم، فورد الخبر بأن غالب دور مكناسة وقصورها انهدمت، وانهدمت صومعة مسجدها الأعظم إلى أساسها، وانهدم كثير من المساجد، ومسجد قصبة السلطان الأعظم، وكثير من المساجد، ومات بالهدم خلائق كثيرة بمكناسة، أحصي منها نحو العشرة آلاف، ومن لم يحص لا يعلم إلا الله، ووقع أمر هائل وخرج من بقي بها إلى الفضاء، وضربوا الفساطيط ومن لم يقدر استتر بمطلق الثياب الخشن، ولو لا أن حاكمها منعهم من الخروج عنها عن أمر قاضيها جينئذ الفقيه أبي القاسم بن سعيد العميري لخلت وبقيت براحا، ثم لما طال الحال وتنوسي بعض ذلك زال روع الناس ورجعوا لها واخذوا في تخميل التراب من الدور والبحث عن الأمتعة، وتمول من ذلك قوم وافتقر آخرون، ثم أخذ الناس في البناء بعد ذلك، وأصلح السلطان مولانا المنصور بالله مسدها الأعظم وبنى صومعتها كما كانت وأحسن.

وأما أهل فاس لما ورد عليهم هذا الخبر، اشتد روعهم وقصدوا أيضا البراحات والمساجد مدة خوفا من عودها مرة أخرى، ثم بعد ذلك هدأوا. وكان من لطف الله بفاس أن لم يتهدم الكثير من دورها ولم يمت بها إلا القليل، لكن تعيب كثير من جدراتها، ثم ورد الخبر بهلاك مدن من مدن النصارى بأمر هائل جدا، والحمد لله على هلاكهم وعلى فضل الله ولطفه ورحمته ولطفه بالمسلمين، لولا أن الله من علينا لخسف بنا، نسأله دوام نعمته ورحمته».

THE STUDY

It's Known that a large geographic region(17) was affected by the Lisbon earthquake in 1st November 1755. The earthquake stroked Portugal, Spain, Morocco, Algeria, and "the tsunami that followed the earthquake was observed all over the North Atlantic coasts from Cornwall (UK) to North Morocco"(18). He was a multiple event, his magnitude varied between 8.5 and 9.4.

In Morocco, the cities of Meknes, Fez, Zerhoun, and Marrakech in the interior, and the coastal towns of Tangier, Asilah, Larache, Sal_, Azamour, Safi, Agadir (Santa Cruz) suffered damage in the quake of the 1st November 1755. Few minutes after the first quake a Tsunami caused by Lisbon earthquake ravages the Moroccan Atlantic coast.

The description of the day of the earthquake :

Padre Guardian says: c...and in the day of the earthquake was observed a calm Sky, a non customary heat in such station, a calm with some wind cracks, until it was fix in the west, with cloudy to the night in the East, in which, like the following day, were many lightnings, and thunders, and fell excessive water, and hail that with the terror of the past, dismayed to all, that had finished the world" (T2).

The similarity between this description and what we found in the other accounts on the earthquake is remarkable. The authors looked for all the data that can help in explaining this so destructive and mysterious natural phenomenon. The meteorological changes that come to the earthquake are the first data that calls the intention of the writers. Oriented by a religious vision that explains the increase of the thunderclaps, Tsunamis and earthquakes with the end of the world and the fading of the universe, they draw the image of an Apocalypse that only God can release his weak servants from it (read the end of T2). Al-Qadiri, the author of (T8), after relating the effects of the Earthquake of 1169 of hegira, displays phrases on the earthquake according the Islamic view.

The same importance given to the meteorological changes appears in (T3); this text seems to be oriented by the letter of Padre Guardian. The French author says :

«The day of this earthquake, the sky was extremely serene and extraordinary heat for the season. The sky was covered in the beginning of the night, there were frequent flashes, accompanied by an appalling thunder, which were little of time after being followed of a large rain interfered hail, which ceased only with the quake"(T3)

The timing of the earthquake

The first quake of the 1st November of 1755 has taken place in 10h in the morning, with a small variation :

About the duration of the first quake there is a little difference: Padre Guardian says that the duration of the earthquake in Mequines was 8 minutes, the English merchant said that the earthquake between 7 and 8 minutes. In the history of El-Mesnaoui as tells Addu'ayyef author of (T7) the quake was during 3 degrees of the hour (=3 minutes) but Habib

Toledano of Ibn Danan Family said that earthquake was during 1/8 of the hour (=7,5 minutes).

Text	The earthquake has hapened in
T1	10 h to short differenc
T2	9 h 45 mn
T3	In the same time of Lisbon earthquake
T4	10 h
T5	10 h
T6	Alter “se’udah chikharit”
	morning prayer
T7	In the morning
	30 mn before noon.
T8	In he morning

“15 minutes later a noise of the earthquake had been heard in the sear This noise was followed by the jet of the water that returned to its source and formed a torrent drawing out a close passage throwing to the Muslims who were in a boat and to those they were in the coast of the sea”(19).

This event has happened in the city of Sale, Add'ayyef said that thesea has inclined returning back, later inclined to the right of the city of Sale and swallowed the people who left to see this mysterious scene, also swallowed a caravan that left sale towards Marrakech (20).

Padre Guardia (T2) draws the same image of the mysterious tsunami that affected the city of Sale when the Sea flooded all its streets and warehouses, swallowed three boats with two hundred Moors... and it submerged them in its depth completely.

In almost the same scene appear the earthquake and the tsunami of the 1st November 1755 in Safi, the Atlantic City in the southwest of Morocco, and in Asilah the Atlantic City in the northwest of Morocco :

"In the ports of Safi, and Santa Cruz(the earthquakec caused serious destructions, and ruins in the buildings and houses leaving buried much people : damage that increased the alteration of the Sea that from the ten of a.m, to the six of afternoon continued growing impetuously and backed down with equal acceleration leaving discovered the bottom of the Ports, in which the ships and boats were anchored submerging and mistreating some of them with people. The streets were full fields of leavings and fish" (T2).

A parallel image was presented by the National Library of Paris document (T3) :

"In the Ports of Saffy and Sainte-Croix several houses were cut down, and much people were crushed by them. The sea more violently agitated than never memory of man has seen, crashed the vessels, which collided ones with others, without being able to weigh the anchors which retained them. The buildings which were at the seaside were reversed by the violence of the floods; and the enclosure of the Port was covered in one moment of remains, corpses and dead fish which floated on water(21)".

In Asilah in the north of Morocco the 1st November 1755 earthquake has been followed by Tsunami, The city was covered by water and a real damage was described in the accounts that relate the event : "In Asilah, the sea flooded more half of the City, and carried to the medium of it enclosure an English "Pinque", which remained there in dry" (T3).

More details were related in the English Merchant account ; the earthquake "happened in Asilah about the same time (in the morning at 10 o'clock), but the damage was not so great at the coming up of the sea though Moors who were out of the town walls were drowned, and the waters came in through one of the city gates very far. The waters came up with such an impetuosity that it lifted up a vessel in the Bay which (at the waters falling down to its center again) fell down with such a force upon the land, that it was broke to pieces ; and a boat was found at the distance of two musket shots within land from the sea" (T. 5).

A same scene was in Tangier, the commotions of the sea were repeated 18 times and continued till six in the evening though not with such violence as at the first time.

All the acts of damage caused by the earthquake were in a brief time (+8 minutes), the Tsunami that had attended Moroccan Atlantic coast after

15 minutes as tell Habib Toledano (+26-34 min (with an estimated error of +20 min)[22] caused in no time a great disaster.

The Victims

The numbers of victims presented above in the compiled texts of this work, seem to be exaggerated although the magnitude of the earthquake and the force of the tsunami that it had caused. A simple comparison of the data that these texts present can confirm our hypothesis.

THE VICTIMS

The texts

T1

* In Marrakech: an infinity of Moors was taken under the destroyed Mosques
* The ascent of the Tancif river has drowned many people.
* Eight leagues far from Marrakech the earth swallowed a whole "Aduar" (agglomeration) with all its people (and 6000 soldiers, camels, mules and other cattles)
* In Fez, the buildings and palaces buried their inhabitants. The earthquake has not had left half of houses and inhabitants.
* They have been in the two cities of Fez so many deaths (innumerable).
* They have exceeded in multitude the deaths the Jews. In Mequinez from the 16000 Jews only 8 (8000) survived the earthquake.
* In Safi and Santa Cruz died infinite people.

T1

* In Sale most of half of his people was buried.
* In Sale, the sea destroyed three boats with 200 Moors.
* In Asilal perished many people.

* In Larache, Mamora and Tanger died enoughpeople.

T5

* In Asilah : the coming up of the sea though Moors who were out of the town walls were drowned
* In Sale: Two ferry boats overset in the River and ail the people on board were also drowned, and a large number of camels that were just then going out for Moraccos were carried away by the waters.
* In Fez : great many people were buried under the ruins.
* At the Seloges [Zalagh] (a place where the Barbarians live not far from Fez) a mountain broke open and a stream issued out as red as the blood.
* In Mequinez: great many people of both sexes were buried under their ruins.
* In Marrakech: By the failing down of great number of houses many people lost their lives.
* Eight leagues from Marrakech, the earth opened and swallowed up a village with all the inhabitants (who were known by the name of the Sons of Busuba [Ouled Boussebae] to the number of about 8 to 10,000 persons, together with their cattle of all sorts, as camels, horses, horned cattle.

T6

* In Sale : the torrent drawing out a close passage throwing to the Muslims who were in a boat and to those they were in the coast of the sea
* In Mequines died more than 200 Jewish soul.
* In Mequinez died more than 5000 Moors.

T7

* In Fez died two or three people.
* In Sale: all the tsunami killed all the people that was outside the city, and drowned a caravan that was going to Marrakech.
* A mountain side abi Chita has stroked and a part of it killed all the residents of a house.

These examples are magniloquent, and don't present an exact number of the victims of the 1st November 1755 earthquake. In other side, The authors had mingled between the victims of the first quake and those of the quakes that had taken place in 18th and 19th November175523. About the material damage, the account published in this work present a precious global outcome of the earthquakes of November 1755; the destruction had been in a large scale in the big cities as Fez, Meknes and Marrakech. There was also a destruction in the small agglomerations as Zerhoun, Azamour, Asilah and in other places./.

Notes

1) Thomas Chase, “Mr. Thomas Chase's Narrative of Earthquake at Lisbon, The Gentleman's Magazine”, London February-April, 1813, as quoted in : The Lisbon Earthquake of 1755 ; British Accounts, Translated by Judith Nozes (Lisbon : The British Historical Society of Portugal, 1990) P : 96.

2) Relación escrita por el Padre Guardian del Real Convento de Mequinez, y Vice-Prefecto Apostólico de las Santas Misiones, que en las partes de Berbera conserva la Religiosa Provincia de San Diego de PP.PP. Francisco Descalzos, al Padre Procurador de ellas, con motivo del Terremoto acaecido en Ceuta, Tetuán, Larache, Mamora, Tánger y Marruecos, en los días 1. y18. de Noviembre de este año de 1755, documento N° 194-29, sección Raros, Biblioteca General de Tetuán.

3) Relation des terribles ravages occasionnés en Afrique par le cruel tremblement de terre qui a détruit la plus grande partie du Royaume de Maroc Avec un détail de tout ce qui est arrivé depuis le premier novembre jusqu'à présent.

4) A unit of this document is conserved in the rare books section in the general library and archives of Tetouan.

5) This document is conserved in the rare books section in the general library and archives of Tetouan, doc. S.R 194-29.

6) The same account, P : 8

7) This document is conserved in the rare books section in the general library and archives of Tetouan, doc. S.R 207-31

8) Guillermo Gustavino Galent, El Terremoto de 1755 en Marruecos, Revista Africa, 1948, ser 6, P:321

9) Madrid, Tomo I, P : 528.

10) Febrero 1948.

11) Le tremblement de terre de 1755 d'après des témoignages d’époque, Hespéris Tamuda, Université Mohamed V, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Vol XVI, Fascicule unique, Rabat, 1975, PP : 92-95.

12) Le tremblement de terre de 1755 d'après des témoignages d'époque, Hespéris Tamuda, Université Mohamed V, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Vol XVI, Fascicule unique, Rabat, 1975, PP : 96-97..

13) This Book has been edited in hebrew and annotated by Meir Benyahu, History Of Fez, Misfortunes and events of Moroccan Jewry as recorded by Ibn Danan's Family and Descendants, Diaspora Research Institute, Tel Aviv University, 1993, pp : 150-151. See also the Arabic translation from Hebrew of Kitab Attawarikh, Chahbnar Abdelaziz, Publications of the association Tettawen Asmir, 2002, PP : 75-77.

14) Tarikh Addu'ayyef, Tarikh addawla al-alawya assa'ida, Ed. Mohamed Al Bouzidi, vol. I, p. 281, Dar At-Taqafah, Casablanca 1988. It includes also a paragraph of "Tarith Al-Masnawi", p. 283.

15) Nashr al-Mathani Li-ahl al-qarn al-hadi 'achar wa-ththani, Ed. Mohammed Hejji and Ahmed Tawfiq, Maktabat A-ttalib, Rabat, 1977, PP : 113-114.

16) Edito aquí el texto tal como esta editado en el folleto de la BGT..

17) Robert Sears says in Wonders of the World, P : 58 : "The great earthquake of 1755 extended over a tract of at least four millions of square miles. Its effects were extended to the waters, in many places where the shocks were not perceptible. It pervaded the greater portions of the continents of Europe, Africa, and America; but its extreme violence was exercised on the southwestern part of the former...In Africa, this earthquake was felt almost as severely as it had been in Europe. A great part of the city of Algiers was destroyed, Many houses were thrown down at Fez and Mequinez, and multitudes were buried beneath their ruins. Similar effects were realized in Morocco. Its effects were likewise felt at Tangier, at Tetuan, at Funchal in the Island of Madeira. At the North, it extended to Norway and Sweden, Germany, Holland, France, Great Britain, and Ireland were all more or less agitated by the same great and terrible commotion of the elements".

18) M.A Babtista, J.M Miranda? F.Chierici, and N.Zitellini, New Study of the 1755 earthquake source based on multi-channel seismic survey data and tsunami modelling, Natural Hazard and Earth System Sciences (2003) 3:333

19) T 6

20) T 7 and T8, in T5 we read about the caravan : "a large number of camels that were just then going out for Moraccos were carried away by the waters"

21) about the fish that float in surface of the water, read a text of the report published in 1895 in the Barbados Avocate Journal, in New Study of the 1755 earthquake source based on multi-channel seismic survey data and tsunami modelling, Natural Hazard and Earth System Sciences (2003) 3:335.

"the water flowed in and the harbour with such a force..and caused the fish to float on its surface and drove many of them up on dry land"

22) A Babtista, J.M Miranda ? F.Chierici, and N. Zitellini, New Study of the 1755 earthquake source based on multi-channel seismic survey data and tsunami modelling, Natural Hazard and Earth System Sciences (2003) 3:335.

23) The details of 18th and 19th November 1755 Morocco earthquakes are presented in the corpus of this work. A scientific view about Meknes earthquake is presented in : The 1755 "Meknes" earthquake (Morocco) : field data and geodynamic implications, G. Moratti, L.Piccardi, G Vannucci, M.E Belardinelli, M.Dahmani, A.Benkik and M.Chenakeb, Journal of Geodynamics, Agust 2003, N° 1, Vol 36, P : 305-322.



RESUMES

Abdellatif Berbich

REFLEXIONS SUR LE MÉDICAMENT

On entend par médicament toute substance ou produit ayant des propriétés curatives ou préventives des maladies humaines ou animales. Les premières descriptions de médicaments remontent à la fin du troisième millénaire avant J.C. Les tablettes sumériennes énumèrent en effet plus de 600 produits d'origine végétale ou animale utilisés à des fins thérapeutiques. Le parchemin d'Ebers, 1550 avant J.C, témoigne des connaissances pharmaceutiques des anciens Egyptiens. Il cite pas moins de 700 produits dont certains sont d'origine minérale tels que le plomb, le mercure et le cuivre, et d'autres d'origine végétale tels que l'anis, la gentiane, le colchique. Galien, (204-135 avant J.C) médecin de Marc Aurèle et de Septime Sévère est considéré aussi comme le père de la pharmacie notamment par ses nombreuses préparations et par ses travaux de recherche sur les poisons. En fait, durant des siècles, les produits découverts et utilisés en thérapeutique étaient sans réelle efficacité à l'exception de l'émétine, la quinine, la digitaline, l'opium et l'aspirine.

L'ère pharmacologique débute réellement en 1930 avec la découverte des sulfamides, suivie dix ans plus tard, de l'usage des antibiotiques qui sont à l'origine de la chute de la mortalité infectieuse, autrefois première cause de décès.

Vers le milieu du siècle dernier, l'apparition des médicaments psychotropes, notamment les antidépresseurs et les benzodiazépines, dotés d'une efficacité indiscutable, allait permettre de modifier l'humeur des malades et engendrer en psychiatrie une mutation thérapeutique et un bouleversement culturel.

Les usages de médicaments sont multiples et permettent de traiter les maladies ou assurer leur prévention, d'aider à leur diagnostic, de soulager les malades et de modifier le comportement et les performances des individus. Mais les médicaments peuvent être à l'origine de maladies dites iatrogènes qui peuvent survenir du fait d'une erreur de prescription, d'une interaction médicamenteuse, d'une auto-médication par un patient non informé ou d'une sensibilité particulière du malade aux substances composant les médicaments.

Les fautes médicales sont le plus souvent en rapport avec des erreurs de prescription, avec l'incompétence du médecin, son ignorance ou sa négligence des antécédents du malade.

D'autres médicaments sont par contre inoffensifs mais n'ont pas, le plus souvent, d'efficacité particulière. C'est le cas des produits homéopathiques dont le bénéfice ne dépasse habituellement pas celui d'un placebo.

Les maladies iatrogènes et les accidents thérapeutiques incitent les firmes pharmaceutiques et les médecins à ne jamais cesser de faire des recherches sur le médicament et à continuer à en contrôler les effets après sa mise sur le marché. Cette mise sous "haute surveillance" permet souvent de découvrir des effets indésirables non observés auparavant, ce qui amène parfois à retirer le médicament du commerce, ou à lui trouver d'autres indications que celles pour lesquelles il a été mis au point.

Enfin, durant la deuxième moitié du XXème siècle et plus particulièrement au cours des dernières décennies, de nombreux médicaments capables de modifier le comportement des sujets en bonne santé apparente, ont été découverts et mis sur le marché. Ainsi, les amphétamines ont été conseillées à titre individuel ou dans des groupes dont on souhaite augmenter le niveau de performance. Il en est de même de nombreuses substances destinées à accroître les performances des individus dans les domaines sportif, sexuel ou intellectuel.

REFLECTIONS ON MEDICATION

By drugs, we mean any substance or product with curative or preventive effects on human or animal diseases.

The first descriptions of drugs go back to the end of the third millennium B.C. Indeed, the Sumerian tablets enumerate more than 600 products of vegetable or animal origin that were used for therapeutic purposes. The Ebers Papyrus testifies to the pharmaceutical knowledge of the ancient Egyptians. It lists no less than 700 products derived from minerals such as lead, mercury and copper or from plants like anise, gentian, colchicum.

Claudius Galen (204-135 B.C), doctor to Marcus Aurelius and Septimus Severus, is commonly known as the father of pharmacy, namely by his many preparations and his research on fish. Over centuries, the products discovered and used therapeutically were actually ineffective except for emetine, quinine, digitalis, opium and aspirin. In fact, the pharmacological era began in 1930 with the discovery of sulphonamides and the use, ten years later, of antibiotics which contributed to a significant drop in infectious mortality responsible for most erstwhile death cases. By the

middle of the last century, the development of psychotropic drugs, including the undeniably effective antidepressants and benzodiazepines, helped change the mood of patients, resulting in a therapeutic milestone in psychiatry along with a cultural revolution.

Medicines have a multidimensional function. Their use involves the treatment, prevention and diagnosis of diseases, provides pain relief for patients and improves individual performance. Yet prescription errors, drug-drug interaction, a less informed patient self-medication or a particular sensitiveness to the components of drugs may lead to a set of disorders known as iatrogenic diseases.

Medical mistakes, for their part, are generally associated with misfills or with the incompetence of doctors, their ignorance or their failure to take their patient's medical history into account. Other drugs, on the other hand, are inoffensive but generally inefficient. It is the case of the homeopathic products whose benefit usually does not exceed that of a placebo. Iatrogenic diseases along with the therapeutic mishaps represent a constant challenge for the pharmacological firms as well for doctors, inciting them to further their research on drugs and to keep observing them after their launch into the market. Such a "high alert" surveillance of drugs often makes it possible to discover eventual adverse reactions, and leads accordingly to their withdrawal from drugstores or to a review of their use-related indications.

Eventually, over the second half of the 20th Century and more particularly during the last decades, many drugs capable of changing the behaviour of visibly healthy subjects were developed and put for sale in drugstores. For instance, amphetamines were prescribed on a purely individual basis or for certain groups to increase their output, just as many substances were aimed to enhance the sporting, sexual or intellectual performance of individuals.

Mohamed Kettani

DES EXEMPLES D'INTERACTION ENTRE LA CIVILISATION MUSULMANE ET LES AUTRES CIVILISATIONS

Les civilisations humaines s'inspirent les unes des autres, soit par leurs contacts, ou par l'héritage. Cette interaction est digne d'intérêt car on y

observe des points d'intensité plus ou moins forts, des domaines de convergence dont les mécanismes sont attrayants.

Lorsque l'islam appelle à l'unification des principes et des valeurs suprêmes de l'humanité, il le fait en s'ouvrant sur le monde et en transmettant son message de tolérance sans imposer de contrainte. C'est de cette façon que cette religion a réussi à répandre son message et son aura sur le monde. L'islam a intégré les civilisations orientale et occidentale dans son giron civilisateur universel et réussi à s'imposer graduellement dans des contrées lointaines.

Cette expansion peut s'expliquer par le fait que les gens qui ont adopté cette religion y ont trouvé un projet social civilisationnel qui leur garantit la justice et l'égalité et qui consacre en même temps les valeurs suprêmes véhiculées par les autres religions révélées.

L'interaction entre les civilisations islamique et occidentale s'est effectuée en deux temps.

Le premier est l'accueil de l'héritage qui remonte au temps du Prophète comme l'attestent les documents de la tradition et le vécu du Prophète Mohammed. L'exemple le plus frappant de cette période se situe dans le règne des Amawides et des Abbassides. Ces deux périodes sont celles de la grande tolérance qui régnait dans les religions et de l'interaction entre les civilisations. Elles sont aussi celles des échanges culturels et commerciaux entretenus entre le Maghreb et le Machreq.

Le commerce a joué un rôle important dans les échanges. Les musulmans ont adopté les systèmes commerciaux étrangers comme la frappe de la monnaie. Ils ont aussi employé des commerçants et des comptables étrangers dans les administrations de l'Etat. Ils ont admis les investisseurs en agriculture et dans d'autres commerces au sein de la communauté musulmane.

Le deuxième temps est l'ouverture des musulmans sur le savoir des autres peuples. La traduction des ouvrages grecs en arabe sous le règne abbasside a fortement contribué à enrichir le patrimoine culturel arabe qui, ensuite, a marqué de son sceau le savoir universel au Moyen-Age grâce à ses savants. C'est alors que la civilisation musulmane commence à son tour à influencer les autres civilisations, avec ses découvertes scientifiques dans les

domaines des mathématiques, de la médecine, de la géographie, de l'astronomie.

Ce transfert du savoir arabe est accompagné de tolérance. Cela constitue un modèle historique qui pousse beaucoup d'Occidentaux à s'en inspirer pour considérer le dialogue des religions et des cultures comme une orientation fiable qui permet d'instaurer la cohabitation harmonieuse des peuples.

EXAMPLES OF INTERACTION BETWEEN MOSLEM CIVILIZATION AND OTHER CIVILIZATIONS

Human civilizations take value in contact with civilizations which precede them, and by the impact which marks them respectively.

This interaction is worthy of interest, it takes more intensity in certain fields than in others. It also uses different mechanisms.

When Islam called for the unification of the supreme values of humanity, it chose to do so by opening on the world, and by transmitting its message of tolerance, without imposing any constraint. It is in this way that this religion succeeded in spreading its message and its force on the world. Islam integrated Eastern and Western civilization in its civilizing universal bosom, and gradually succeeded in imposing itself in remote regions in the world.

This expansion can be explained by the fact that people who adopt this religion, find a social project which guarantees justice and equality to them. This religion highlights the supreme values of humanity, which we find in the religions revealed; and which are linked together in only one unifying message.

The interaction between Islamic and Western civilizations was carried over two periods.

The first phase consisted in the reception of the influences of the old Eastern civilization, some of these civilisations go back to the time of the Prophet, as the documents of the tradition and the biographies of the Prophet Mohammed attest. The more striking example of this period remains the time of the reign of the Amawids and the Abbasids. During these two periods of history, one factor predominates; it is the great tolerance which reigned among people, and the interaction between several

civilizations and beliefs. Another factor worth notice has to do with the economic sector and the flourishing trade exchanges between the Maghreb and Mashreq at that time.

Among Moslems, the influence of this interaction appeared mostly in the commercial field. Indeed, the Moslems adopted foreign commercial systems as the striking of the currency. They employed foreign tradesmen, and executive accountants in the administrations of the State. They also opened the doors to investors who acquired agricultural farms and other trades in the Moslem community.

Another significant fact of this interaction is the opening of the Moslems on sciences and civilizations of the other peoples. The translation of the Greek literary works in Arabic, during the reign of the Abbasids, strongly contributed to enrich the cultural inheritance of the Arabs and the Moslems, and succeeded in enhancing its universal aspect, during the middle Ages.

At that time, Moslem civilization was in its second phase, the time when it started, in its turn, to influence other European civilizations. We stress here in particular, the scientific discoveries in the fields of Mathematics, of Medicine, Geography and the applied sciences.

This phenomenal spread of knowledge and creativity, contributed in the burst out of the scientific thought in Europe via different means. The Orientalists who are experts in the field give testimony of this in their writings.

The interaction between Moslem and European civilization contributed in the propagation of the critical and rational spirit. It also allowed the consolidation of the spirit of tolerance. Actually, this fact inspired the Western world to use the Dialogue of the religions and cultures as being a reliable system which makes it possible to build up a harmonious cohabitation between all people in the world. /

Idriss Alaoui Abdellaoui

LA DEFINITION DE L’ORDRE DANS L’ACTE JURIDIQUE

L’ordre public est un ensemble de règles juridiques qui régissent le comportement de l’individu et qui doivent être respectées sous peine d’encourir des sanctions.

Le concept de l’ordre public revêt une large signification et ne semble pas avoir de définition précise.

La signification de l’ordre public s’élargit et se rétrécit selon le niveau de maturité qui prédomine dans une communauté. Cette définition peut prendre un sens étroit dans les sociétés où la liberté individuelle prédomine aux dépens de l’ensemble social. Elle prend son sens le plus large dans les sociétés où prédomine la doctrine socialiste qui place l’intérêt général au-dessus de tout.

Cependant, le fait que la définition de l’ordre public ne soit pas précise ne réduit en rien son importance, car la justice s’appuie sur cette définition comme base pour conduire ses investigations dans les affaires qui relèvent de ce domaine. D’ailleurs, la justice a plein pouvoir pour juger si un cas relève de l’ordre public. Dans son évaluation du cas, la justice tient compte des us et coutumes qui prédominent dans la société concernée.

Par ailleurs, les bonnes mœurs sont un code de conduite qu’une communauté adopte dans son comportement et ses pratiques quotidiennes. On constate à ce propos, que chaque fois que la religion se rapproche de la culture d’une communauté donnée, les bonnes mœurs sont observées avec rigueur et atteignent un haut niveau.

C’est ainsi que les facteurs qui façonnent la morale sont nombreux et diversifiés. Dans son jugement de la conduite des gens, la morale s’appuie sur les motivations qui ont poussé l’individu à un certain comportement. C'est-à-dire qu’elle appréhende la conduite de l’individu comme étant une manifestation d’intention.

Les méthodes que l’acte juridique met en application dans ces affaires sont nombreuses. L’ordre public peut être appliqué de nombreuses manières dans le cadre du droit général et du droit privé. Cependant, les règles juridiques du droit général sont liées à celles qui régissent le droit privé, c’est pourquoi l’individu ne peut réfuter leur jugement en cas de manquement aux règles précitées. Le nombre de ces règles est en augmentation constante au contact des doctrines socialistes qui se répandent dans les sociétés contemporaines. C’est ainsi que l’opinion publique pèse de tout son poids dans la formulation d’un ensemble de décrets qui doivent s’appliquer en totale conformité avec les règles de la loi.

THE DEFINITION OF LAW AND ORDER IN THE LEGAL DOCUMENT

The law and order is a set of legal rules which govern the behavior of the individual and which must be respected under penalty of incurring sanctions.

The concept of the law and order has a broad significance and does not seem to have precise limitations. That made difficult the task of the theologians to put in into practice.

The significance of the law and order widens and narrows according to the level of maturity which prevails in a given community. This definition can take a narrow meaning in societies where personal freedom and private interest prevail. While at the same time it takes a broader meaning in communities where the socialist morals and the general interest prevail as priorities.

The fact that the definition of the law and order is not precise does not reduce its importance, because justice is based on this definition as a basis for conducting its investigations in situations related to this field. In this connection, justice has the necessary authority to determine whether the case concerns the law and order. In its evaluation of the case, Justice takes into account the use and customs which prevail in the community concerned.

In addition, the morale constitutes a code of good behaviour which a community adopts in its daily practices. One can observe that, each time the religion is closely related to the culture of a given community, the morals reach a high level and are rigorously observed.

Thus the factors that govern intellectual morals are numerous. In order to judge the behaviour of the individual, the morale takes into account the individual motivations that triggered a certain behaviour. So, the behaviour is considered as a demonstration of intention.

The methods which the legal document puts into practice in these cases are numerous. The law and order can be applied in many ways within the framework of the general and the private law. However, the legal regulations of the general law are connected to those which govern the private law ; this is why the individual cannot refute their judgement. The number of these rules increases continuously in our contemporary society where the socialist doctrines prevail. There, the public opinion has its

impact on the formulation of the decrees which must be applied in conformity whith the legal regulations.

Ahmed Ramzi

L'IMPRIMERIE ARABE EN EUROPE

L'invention de l'imprimerie par Johannes Gutenberg en 1455 est sans doute l'une des acquisitions humaines les plus importantes. Diffusion à grande échelle du savoir, uniformité et lisibilité de l'écrit, voilà des gains qui font oublier le temps de copistes.

L'Eglise catholique a vite compris le bénéfice qu'elle pouvait tirer de cette nouvelle invention dans la diffusion des textes sacrés. Rome devient le haut lieu de l'impression de la Bible et d'autres textes latins, surtout au temps des Médicis.

Les milieux savants généralement versés dans les langues anciennes, telles que l'hébreu, l'assyrien, le chaldéen, l'araméen ne sont pas indifférents aux apports de la langue arabe qui est la langue de la médecine, de la philosophie, de l'astronomie... Et bien que ces sciences soient en partie déjà traduites en latin, surtout la médecine, l'engouement pour la langue arabe reste dominant. Comprendre la langue arabe et imprimer ses textes restent le vœu ou la passion de certains savants.

Il faut pour cela acquérir des manuscrits arabes, et procéder à la fonte des caractères de l'alphabet arabe. Les manuscrits sont acheminés vers l'Europe par l'intermédiaire de marchands ou de courtiers dévoués à ce nouveau commerce. L'alphabet arabe destiné à l'imprimerie est fabriqué par des fondeurs et des graveurs chevronnés tels Francis Rapheleng, et Robert Granjon. L'alphabet arabe reste encore inachevé, et Epernius, universitaire hollandais fabrique ses propres caractères d'imprimerie ; il soumet, grâce à la connaissance qu'il a de l'arabe, l'alphabet métallique aux règles de la langue.

Mais l'Europe est agitée par des conflits politique et religieux. Elle est d'abord inquiétée par les Turcs qui prennent Constantinople en 1453, puis la Hongrie et les Balkans et encerclent Vienne. François I°, s'allie aux Turcs pour se renforcer face à Charles-Quint. L'ambassadeur de France La Foret est accrédité auprès du Sultan turc et s'établit à Constantinople. Il est secondé par Guillaume Postel qui enseignait l'arabe au Collège de France. Il va se charger, en autres, de l'acheminement en France de manuscrits

arabes. L'affaire du trafic des indulgences provoque les protestations de Martin Luther et avec elles le début de la réforme. Luther traduit la Bible en allemand populaire. Henri IV, élevé dans le protestantisme, est mort assassiné après avoir vécu la Saint-Barthélémy. Le protestantisme gagne du terrain en Europe, surtout dans le Nord. Les Pays-Bas se libèrent de Charles-Quint, et constituent l'actuelle Hollande qui connaît une renaissance culturelle brillante centrée autour de l'université de Leyden. A majorité protestante, la Hollande se soustrait de l'interdit pontifical de ne pas vendre les armes aux mécréants (les musulmans). Le Maroc achète des armes à la Hollande et établit avec ce pays des relations diplomatiques sous le règne du sultan saâdien Moulay Zidane en 1622. L'ambassadeur hollandais Albert Ruyl est secondé par Jacques Golius, élève d'Erpénius, professeur d'arabe à l'université de Leyden. C'est la bibliothèque de Moulay Zidane, piratée au large de Founti (l'actuel Agadir) qu'on retrouvera plus tard au monastère de l'Escurial en Espagne.

Qu'en est-il de l'imprimerie arabe en Europe durant ces événements ? Le Vatican fait appel aux maronites libanais pour présider à la publication de la Bible en arabe destinée aux chrétiens du Levant, et se décide, devant la montée des publications arabes en Hollande, à imprimer des livres de sciences tels « *La description d'Afrique* » (1550) de Léon l'Africain (Hassan Ibn Mohammd Al-Wazzan), les trois volumes du *Canon* d'Avicenne (1593), la géométrie d'Euclide traduite du grec par Nassir Addine Khouja(1594), tandis que Roger II le Normand, roi de Sicile mande à Charif Al-Idrissi, (née à Ceuta), d'établir un globe terrestre avec mention des noms de lieux (1592). Charif Al-Idrissi est l'auteur du plus complet et précis ouvrage de géographie, intitulé « *Nouzhat Al-Moushtaq* ».

Epernius est le plus grand arabisant de cette époque-là. Il occupe la chaire d'arabe à l'Université de Leyden et écrit une grammaire arabe de son cru qui reste la meilleure pendant environ deux siècles, jusqu'à ce qu'un autre grand grammairien, français, Sylvestre de sacy, publie une grammaire arabe plus complète en 1810.

D'autres ouvrages arabes sont imprimés en Europe pendant les XVI°, XVII° et XVII° siècles. C'est au XIX° siècle que l'imprimerie arabe en Europe connaît son embellie. Il y a lieu de distinguer dans ce long parcours deux grandes périodes : 1°- la période où les savants européens se mettent à apprendre l'arabe en tant que langue, la grammaire étant alors l'objet de tous les intérêts, ainsi que la fonte des caractères de l'alphabet .2°- la période où, une fois la langue arabe maîtrisée, les arabisants européens se

mettent à réfléchir sur la civilisation arabo-musulmane et à se spécialiser dans ses domaines de connaissance. Exemples : Carlo Nallino s'intéresse à l'astronomie arabe, Aldo Mielli à l'histoire des sciences arabes, Krakchkovsky à la géographie, etc... C'est le début de l'orientalisme.

ARABIC PRINTING IN EUROPE

The invention of printing by Johannes Gutenberg in 1455 is undoubtedly one of the most significant human acquisitions. Diffusion on a large scale of the knowledge, uniformity and legibility of the writing, are profits which make us forget the time of copyists.

The Catholic Church was quickly made aware of the benefit which it could draw from this new invention in the diffusion of the sacred texts. Rome becomes the high place of the impression of the Bible and other Latin texts, especially at the time of The Medici's .

The erudite circles generally versed in the old languages, such as Hebrew, the Assyrian, the Chaldian, the Aramian are not indifferent to the contributions of the Arabic language which is the language of medicine, philosophy, astronomy... And although these sciences are partly already translated into Latin, especially medicine, the passion for the Arabic language remains dominating. To understand the Arabic language and to print its texts becomes the wish or the passion of certain scientists ; hence the necessity to acquire Arabic manuscripts, and to proceed to the cast iron of the characters of the Arabic alphabet. The manuscripts are forwarded to Europe via merchants or brokers devoted to this new trade. The Arabic alphabet intended for printing works is manufactured by senior founders and engravers such as Francis Rapheleng, and Robert Granjon. The Arabic alphabet remains still unfinished, and Epernius, an academic Dutch manufactures his own block letters. Thanks to the knowledge he has of Arabic, he subjects the metal alphabet, to the rules of the language.

But Europe is agitated by political and religious conflicts. It is initially worried by the Turks who take Constantinople in 1453, then Hungary and Balkans and encircle Vienna .To strengthen his position vis-à-vis Charles-Quint, François I°, become an allie to the Turks. The ambassador of France La Foret is accredited to the Turkish Sultan and is established in

Constantinople. He is assisted by Guillaume Postel who taught Arabic at the College of France. He will also take care of the transfer in France of Arabic manuscripts. The business of the traffic of indulgences causes the protests of Martin Luther and with them the beginning of The Reform. Luther translates the Bible into popular German. Henri IV, brought up in Protestantism, died assassinated. He lived the St. Bartholomew's Day Massacre. A wave of Protestantism spreads through Europe, especially in the North. Holland become independent from Charles-Quint, and constitutes the current Holland which knows a brilliant cultural rebirth centred on the University of Leyden. With a Protestant majority, Holland withdraws from the pontifical ban not to sell weapons to the non-believers (Moslems).

In 1622, Morocco, under the reign of the saâdien sultan Moulay Zidane, buys weapons from Holland and establishes diplomatic relations with this country. The Dutch ambassador Albert Ruyl is assisted by Jacques Golius, a pupil of Erpenius, professor of Arabic at the University of Leyden. It is the library of Moulay Zidane, pirated of shore near Founti (the present city of Agadir) which will be found later at the Monastery of Escurial in Spain.

What happens to the Arabic printing works in Europe during these events?

The Vatican calls upon the Lebanese Maronites to supervise the publication of the Arabic Bible intended for the Christians of Levant, and takes the decision, owing to the rise of the Arabic publications in Holland, to print books of sciences like the description of Africa (1550) of Leon the African (Hassan Ibn Mohammd Al-Wazzan), three volumes of Le Canon of Avicenna (1593), the geometry of Euclide translated from the Greek by Nassir Addine Khouja (1594), while Roger II the Norman, king of Sicily mandates Charif Al-Idrissi, (born in Ceuta), to establish a terrestrial sphere with mention of the place names (1592). Charif Al-Idrissi is the author of the most complete and precise work of geography, entitled Nouzhat Al-Moushtaq

Epernius is a famous Arabist of this time. He occupies the chair of Arabic at the University of Leyden and writes his own Arabic grammar which remains the best reference during almost two centuries, until another great French grammarian, Sylvestre de Sacy, publishes a more complete Arabic grammar in 1810.

Other Arabic works are printed in Europe during the XVI°, XVII° and XVII° centuries. It is with the XIX° century that Arabic printing in Europe lives its time of glory .

It is necessary to distinguish in this long course two great periods : 1st, the period when the European scientists start to learn Arabic as a language, grammar being then the object of all the interests, as well as the cast iron of the characters of the alphabet. 2nd, the period when, once the Arabic language was assimilated, the European Arabists start studying and reflecting on Arabe-Moslem civilization and to specialize in its fields of knowledge. Examples: Carlo Nallino is interested in Arabic astronomy, Aldo Mielli in the History of Arabic sciences, Krakchkovsky in Geography, etc... that was the beginning of Orientalism.

Abdelaziz Ben Abd Abdeljalil

UNE ÉTUDE DE TEXTES INÉDITS SUR LA MUSIQUE

PAR AHMED BEN TAIB ASSARKHASI (IIIè siècle Hégire/IX.s JC.)

Cette étude est en rapport avec des textes inédits d'Ahmed Ibn Tayeb Assarkhassi, musicologue arabe du IIIè siècle de l'hégire (IX J.C). Natif de Bagdad, il étudie les sciences de son temps et se distingue par la variété de ses connaissances. Il rencontre le philosophe Al-Kindi et devient son élève. De ce philosophe il apprend l'enseignement pédagogique qu'il introduit en musicologie. Il se distingue rapidement parmi les savants de son époque tels Al-Moufadal Ibn Salma, auteur du livre : "Al-Oud wa l'malahi", Tabit Ibn Qorra Al-harrani l'auteur de "Kitab fil moussiqa", Ibn Khardadabh, l'auteur de "Allahowo wa l'malahi" et Yahya Ibn Almounjim, l'auteur de "Rysalatoun fi n'agham".

Le vaste champs des connaissances d'Ahmed Ibn Tayeb Assarkhassi, comprend la médecine, la philosophie et les belles lettres. Le Calife abbasside Al-Mu'tamid le choisit pour être le précepteur et le compagnon de son frère Al-Mouaffaq. Ce dernier, devenu Calife, le garde dans son entourage immédiat.

Des biographes tels Ibn Nadim, Al-qifti et Ibn Abi Oussaybi reconnaissent le talent d'Assarkhassi et lui attribuent la composition d'une trentaine

d'ouvrages traitant de différentes sciences. Sept ouvrages portent des titres qui révèlent sa vaste culture musicale. Certaines oeuvres sont consacrées à la théorie musicale, semblables en cela à l'œuvre d'Al-Kindi; d'autres à la pratique instrumentale, au chant, aux chanteurs hommes et femmes de son époque, ainsi qu'au rythme et la percussion.

Un grand nombre d'ouvrages d'Assarkhassi ont disparu. Cependant, Al-Hassan Al-Katib, musicologue du V° siècle de l'Hégire, nous fait découvrir, dans son ouvrage "Kamalu Adab il ghinaa", des extraits inédits d'écrits philosophiques et musicaux d'Assarkhassi.

Les écrits attribués à Assarkhassi sont au nombre de neuf textes qui dépassent chacun les cinq pages. Ces textes sont répartis en six chapitres. Ils contiennent des thèmes de musique, des réflexions sur l'excellence du chant ancien, le mérite de l'exécution des notes musicales ainsi que le principe de relativité qui existe entre les instruments de musique et la percussion.

La présente étude tente d'analyser les ouvrages d'Assarkhassi en notant les aspects suivants :

- La fluidité d'écriture d'Assarkhassi et sa technique de persuasion.
- Les sources d'Assarkhassi.
- Les extraits des ses livres tels qu'ils sont reproduits dans l'œuvre littéraire et artistique d'Al-Hassan Al Katib.
- L'analyse des textes.

A READING IN SOME UNPUBLISHED NEW TEXTS ON THE MUSIC BY AHMED BEN TAIB ASSARKHASI (III Century Hegira/ IXth)

This study relates to new and unpublished texts written by a famous Arab musicologist of the third century Hegira. His name is Ahmed Ibn Taib Assarkhassi. He is a native of Baghdad, where he received his teaching and distinguished himself in several sciences both in Oriental and Western sciences. His intellectual acumen enabled him to write on various topics and he was one of the first to write on Arabic grammar. He met philosopher Al-Kindi and was one of his most famous pupils. From this philosopher, he acquired the science of teaching and introduced it into

musicology. he was soon distinguished among the scientists of his time such as Al-Moufadal Ibn Salma, author of the book : “Al-Oud wal malahi” and Tabit Ibn qorra Al-Harani the author of “Kitab fil' mousica”, and Ibn Khardadabh, author of “Allahou wa malahi” and Yahya Ibn Almounjim, the author of “Rysalatoun fi n agham”.

The great knowledge of Ahmed Ibn Taib Assarkhassi, and his natural gifts enabled him to become doctor and philosopher in history and in the beautiful Arts and letters. This is why he was chosen by Caliph Al-Muutamid to be tutor and companion to his brother Al-Mouaffak.

When the latter became Caliph, he kept him in his immediate entourage.

Scientists like Ibn Nadim Al-qafti and Ibn Ousaybia recognized the genius of Assarkhassi as a writer and attributed to him the composition of approximately thirty letters and a work including various sciences and arts. They counted the number of his musical compositions and songs and found seven works which titles reveal the diversity of his musical culture. Some of these books treat the theoretical side in musicology, like the works written by Al-Kindi; while the other books treat the practical side of the music and the song, and contains accounts concerning the female and male singers and describe the places where musical distraction is found. There is also an account of the texts of music, their classification, the register of the rhythm and the percussion.

Unfortunately, many literary and artistic works left by Assarkhassi were found missing. A musicologist of the fiftth century of Hegira, Al-Hassan Al-Katib, revealed to us some extracts of the philosophical and musical writings of Assarkhassi in his work entitled “Kamalu Adabil'ghinaa”. The author specifies that in his book, each chapter contains either complete or partial extracts of the work of the author or news said by people about him..

The work of art left by Assarkhassi is compiled in nine texts, each exceeds five pages. These texts are divided in the book of Al-Hasan Al-katib into six chapters. They contain topics on music, the excellence of the old song and the merit of the execution of the musical notes, as well as the principle of relativity which exists between the musical instruments and the percussion.

This communication analyzes the works left by the author Assarkhassi according to the method which follows :

- Simplicity in the style of writing of Assarkhassi and the explanations he introduces and his technique of persuasion.

- the sources of Assarkhassi.

- the extracts from some of the books reproduced by Al-Hassan Al Katib.

- the analysis of the texts.